

القسم الثالث

الحضارة الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

بلغت أوروبا في هذه الحقبة من تاريخها ذروة القوة والسيطرة . فهي تنعم بما تتم لها من سؤدد وسيادة وسلطان . هنالك لمعري ، في الشرق والجنوب منها، مناطق ريفية لم تتأثر كثيراً بالتطور الرأسمالي . فالمدينة هي التي تبث في الغالب ، الحركة والنشاط وتدفع بها إلى الامام بسرعة . ففي الاطار المدني ، البورجوازية هي التي توجه الانتاج وتشرف على توزيع الثروات وتحكم بالمدينة التي تنعم بالحرية وتكيف ما يقوم فيها من نظم ومؤسسات .

ومع ان عملية تفاعل العناصر التي تؤلف قوام الحضارة الأوروبية تنمو بسرعة وتنشط باستمرار ، فالتنوع لا يزال يستبد بالنظر في هذه القارة التي تفيض ، بالرغم من صغرها ، بالمفارقات الاقليمية والاجتماعية . فالاثراء في قلب كل دولة من دولها المتعددة يرسم منحنيّ فتلحظ العين بسرعة ما فيه من نقاط سود يرسمها الفقر . فاذا ما ارتفع فيها المستوى العام للحياة ، فحقوق البروليتارية فيها آخذة بالتضخم .

والى هذه كله فالنفوس في غليان موصول ومعين الفن فيها ابعد من ان يحف او ينضب .

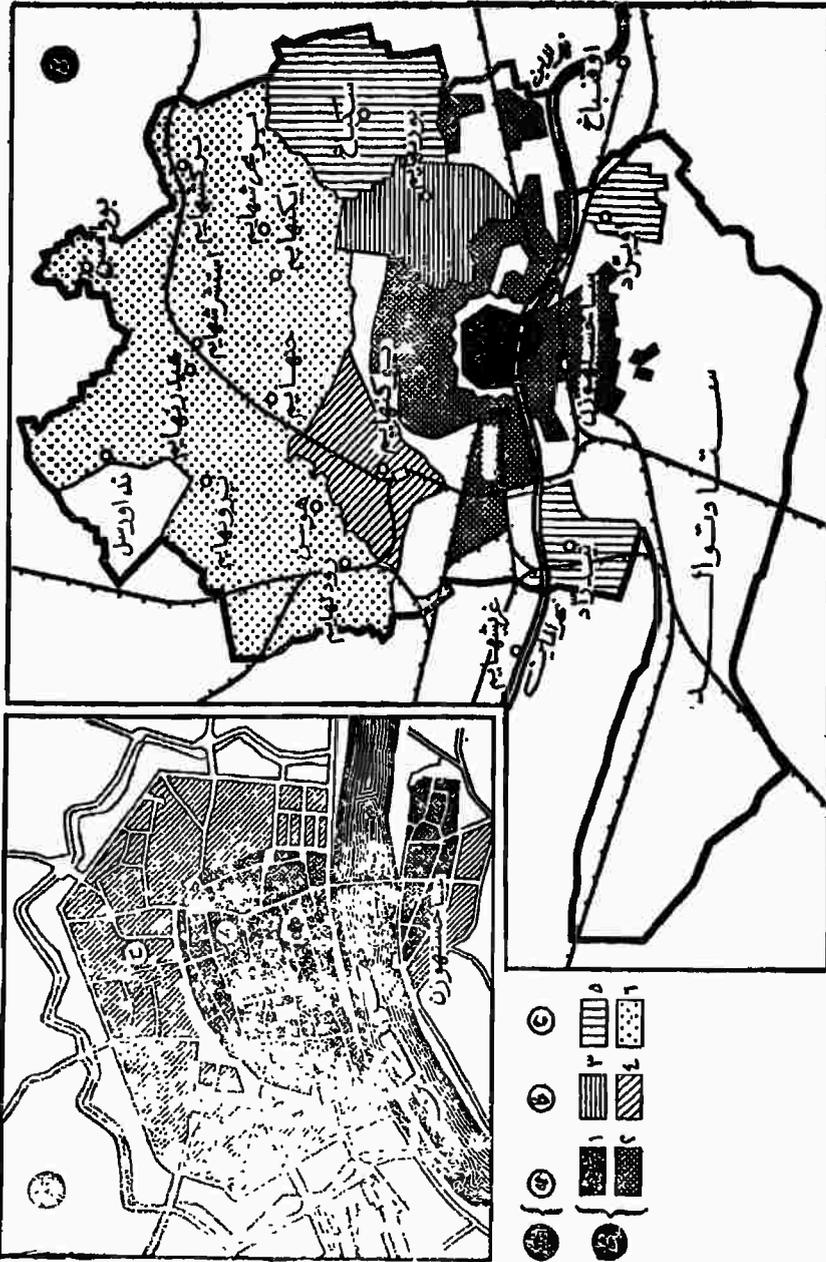
الفصل الأول

المدينة ودفعها الشديد

«اخضمت البورجوازية الريف للمدينة وخلقت مدناً
جبارة». (بيان الحزب الشيوعي- ١٨٤٨) .

ازدياد السكان في المدن اتخذت المدن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مظهراً من الضخامة والاتساع لم يسبق له مثيل للآن . كان سكان الريف ، حتى عام ١٨٥٠ ، اوفر عدداً منهم في المدن ، باستثناء انكلترا . واخذت حركة الاحتشاد والتجمع في المدن تزداد بسرعة . وهذا التجمع والتمركز تم بالطبع على حساب الريف ، واخذ يتطور ويتضخم . فهو ناجم عن حركة نزوح سكان الريف ، ولا يمكن رده بصورة من الصور للنمو والتزايد الطبيعي لنسبة المواليد في المدن . ففي فرنسا مثلاً نرى ان المجتمعات التي يمكن وصفها بالمدينة (وهي التي يجب الا يقل عدد السكان فيها عن ٢٠٠٠ نسمة) ارتفع عدد السكان فيها ، بين احصاء ١٨٤٦ و ١٨٩٦ ، الى ٦٣٧٩٠٠٠ وهو عدد يشير ليس الى مجموع الزيادة العامة فحسب بل ايضاً الى نسبة امتصاص المدن من سكان الريف ما مجموعه ٣٢٦١٠٠٠ نسمة . وهنا لا بد لنا من الملاحظة ان سير هذا التطور كان اسرع في مقاطعات الغرب والوسط منه في الشرق والجنوب ، وهكذا برز لنا بوضوح كلي تفوق مديني يزداد يوماً بعد يوم في وجه هذه القارة الاوروبية التي لا تزال بعد ريفية في صميمها .

هنالك حوالي ١٨١٥ ، اقل من ٢ بالمئة من سكان اوروبا يقطنون نحواً من عشرين مدينة يتجاوز عدد سكان الواحدة منها ١٠٠ الف نسمة ، بينما نرى عام ١٩١٠ ، ست مدن يزيد عدد سكان الواحدة منها على مليون نسمة ، و ٥٥ مدينة يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠ الف فتضم معاً ١٥ بالمئة من المجموع العام للسكان في اوروبا . فالمرتبة التي تحتلها عواصم



شکل ١٤ - نمو مدينة فرانكفورت على المائ
 لولا - فرانكفورت عام ١٨٥٣ يبدو في الرسم : ١ - الاستادات على مقربة الجسر القديم؛ ٢ - النمو الثاني : الامتداد الاول الذي تم في القرن الثاني عشر . ←

ثانياً - نمو فرانكفورت في القرن التاسع عشر : يظهر الرسم للمدينة القديمة بأحيائها : الاستادات والنوسادات فيها ٤٠.٠٠٠ نسمة عام ١٨٠٠ ، وتأخذ المدينة بالتوسع والامتداد وراء السور الذي اقيم في القرن السادس عشر . تبلغ مساحة المدينة اذذاك ٦٧٨٢ هكتاراً . كما يرقع عدد سكانها عام ١٨٦٦ الى ٨٠.٠٠٠ نسمة * وتأخذ المدينة بالتوسع على حساب المساحات الواقعة وراء السور ، بحيث اصبحت تمتد ، عام ١٨٩٥ ، اكثر من ٢٨٠.٠٠٠ وارتفعت مساحتها الى ٨٠١٤ هكتاراً .

الدول تلتفت النظر وتستبذ بالانتباه والملاحظة . فقد خمت لندن ، عام ١٨٨٠ ، نحواً من ٤ ملايين من اصل ٣٠ مليوناً انكليزياً ، وخمت باريس قرابة ٣ ملايين من اصل ٣٧ مليوناً فرنسياً



شكل ١٥ - توسع مدينة تورينو

- ١ - جرى تحصين المدينة في مطلع القرن التاسع عشر (٢٨٠ هكتاراً) تسع ٦٥٠٠٠ نسمة .
- ٢ - امتداد على عهد شارل البير .
- ٣ - حدودها عام ١٨٥٣ (١٦٦٢ هكتاراً) .
- ٤ - منطقة جرى اعمارها حوالي عام ١٨٨٥ (٢٥٠ الف نسمة) .
- ٥ - امتداد المدينة في اواخر القرن التاسع عشر (٦٠٠٠ هكتار ، و ٤١٥٠٠٠ نسمة عام ١٩١١) .
(مأخوذة من كتاب ب. غريبود)

فالزيادة في قرن واحد بلغت ٣٠٠ بالمائة في مدينة بطرسبورغ ، و ٣٤٠ بالمائة في لندن ،

و ٣٤٥ بالمائة في باريس وبلغت في فيينا ٤٩٠ بالمائة ، وفي برلين ٨٧٢ بالمائة . فسكان لندن اذ ذاك يعادلون سكان بلجيكا .

والطابع العالمي والدولي لسكان المدن الكبيرة يشتد ويبرز باستمرار . فتيارات الهجرة الضخمة تتجه اليها . فالإيرلنديون والسكندنافيون والعديد من سكان القارة ينزحون الى لندن . بينما السلافيون والجرم واليهود يقصدون فيينا . فمن مجموع سكان مدينة ميونيخ ، في عام ١٨٩٥ ، ٣٧ بالمائة فقط ولدوا فيها . اما في مدينة سانت ايتين فعدد من ولدوا فيها هم ٥٠ بالمائة .

فإذا ما ساعد القرن على تأمين النمو للندن القائمة ، فقد عمل المدينة القديمة وتوسع المدينة الحديثة بالاكتر على صقلها وافرغها .

صحيح ان المنجم والمصنع ساعدا كثيراً على خلق مدن جديدة كانت مواقعها في الامس القريب خواء . والامريتم ، بالاحرى مع المصنع الذي يقوم عادة حيث تتوفر امكانيات التوزيع . وقد جاء الخط الحديدي هنا يقوم بعملية غريبة او تخير افادت منها بعض التجمعات اكثر من البعض الآخر ، كما ان فن الملاحة وتطورها ساعد كثيراً في نمو المرافئ وامتدادها . ولا بد من الملاحظة هنا ان النشاطات السياسية والادارية والفكرية حتى والدينية منها لمبت هي الاخرى دورها البارز في نمو المدن وتوسعها .

ولما كانت المدينة ترتبط بالريف الذي يحيط بها ارتباطاً وثيقاً فتؤلف منه سوقاً وبنديراً تجارياً ، فقد عرفت كيف تحافظ على اسباب وجودها . فقد تجلّت صورتها لموريس باريس عام ١٩٠٩ كما يلي : « هاهي منذ اجيال تحتل الرابية نفسها التي تقوم فوقها الآن . هاهي ذاتها تقريباً ، باستثناء سورها الذي فقد الكثير من متانته الاولى . فقد استحال الحيز الذي شغله حدائق غناء وجنات خضراء وضعت فيها سلواها وتمتعها ، ففي كل يوم ، وفي الساعات والاقوات ذاتها نرى هذه الايدي التي تمتعنا بها ... »

كثيراً ما يحدث ان هذا الماضي المائل امامنا لم يلحق به عصر الصناعة الكبرى الذي يسيطر الآن ، اي اذى ، وهذه المظاهر والرؤى المتتالية تحيي معاً وتتراكب بمدان تتخلل عن مميزات الفارقة . فالمدينة القديمة هي التي تحدد موقعها على العموم ، وعلى كل خطة توضع لتجميلها ان تحسب حساباً لها وان تتكيف ومقتضيات هذا الوضع الطبوغرافي . وتبذل حركة تطوير المدينة كل جهد مستطاع لتحترم آثار المدينة وخططها التاريخية ، فلاتمسها معاول الهدم . ولذا فتراكم المنازل وتراكبها بعضاً على بعض كثيراً ما يجري في هذه الاحياء التاريخية . وقد يجري هذا الاحتقان قبل ان تتيح وسائل النقل السريعة على اختلاف انواعها ، مراعاة حركة البناء والامتداد لتوفير الفراغ والساحات فيما بينها . ففي برلين حيث الاتساع والامتداد تم باكراً وبسرعة غربية ، فقد بلغت كثافة السكان في قلب المدينة ، عام ١٨٩٠ ، ما معدله ٣٧٥ شخصاً في الهكتار الواحد ، مقابل ٢٥٠ نسمة للهكتار بالنسبة للمدينة كلها . ومع ذلك فبفضل حركة الامتداد

والإتساع ، لم يعد مركز القلب ليمثل ، في لندن ، سوى ٥،٨ بالمائة من مجموع السكان عام ١٨٩١ ، بينما كان معدله ١٥ بالمائة عام ١٨٠١ ، بمد أن فقد قلب المدينة ٧٠ بالمائة من سكانه . أما في برلين ، فالأحياء *Alstadt* و *Ferderichstadt* يسجلان تأخراً أو بالأحرى تقهراً بين ١٨٧٥ - ١٨٩٦ ، إذ هبط معدل السكان فيها من ١٧٤٦ الى ٧٤٣ بالمائة . وفي باريس ، هدمت الامبراطورية الثانية الأحياء العائدة فيها الى الأجيال الوسطى او الى عهد الملكية المطلقة ، وذلك بما يوازي مساحة ٥٠٠ هكتار من اصل ٣٣٧١ هكتاراً هي مساحة المدينة داخل الحصون التي أمر بتشييدها الملك لويس فيليب . فقد أمر بفتح ثغرات او فجوات واقام مبادين او مساحات في قلب المدينة ، وبنى دوراً للحكومة رحبة ، كما أمر بهدم المنازل السكنية الخفية المنظر ذات المساكن الضيقة لتحل محلها مباني بورجوازية ضخمة . فهاهو برودون يحدثنا عن المدينة الجديدة الرتيبة ، الملة التي انشأها هوسمان ، مع ما لها من جادات مستقيمة الزوايا وفنادق ضخمة وأرصفة بديمة ، مقفرة ، ونهرها الكئيب الذي لم يعد يرى ينقل سوى احوال الحجارة والرمل مع مرائب وعنابر قائمة لدى منتهيات الخطوط الحديدية ، التي بعد ان حلت محل مرافق المدينة وموانئها القديمة ، ا فقدتها سبب وجودها لهذه المساحات والميادين ودور التمثيل الجديدة وطرقها المرصوفة بالحصى ، وهذه الطواير من الكناسين ، وهذه السحائب الخفية ، من الفبار المتصاعد . واخذت الأحياء ترتدي طابعاً خاصاً مميزاً ، لكل منها منظره الهندسي الخاص . هنا الأحياء الخاصة بالتجارة بالجملة ، وهناك أحياء محطة سكة الحديد ، وأحياء الإدارات العامة . وهذه الحواجز والفواصل المادية لم تلبث ان حمت طابعاً اجتماعياً ، يبرز من خلال ارادة البورجوازية . فالعملاء أبعدوا بقسوة عن قلب المدينة ، كما يلاحظ اوغسطين كوشين . اما في منشستر حيث يسكن اصحاب الفبارك والمصانع ، عام ١٨٣٠ ، يسكنون منازل ، اسودت جدرانها من تراكم السخام عليها ، منازل كانت تحيط بها اكواخ المسال وزرائبهم ، فلم يلبثوا ان نزحوا الى ضواحي المدينة حيث يتوفر الهواء الطلق ، بعيدين عن كل اتصال بطبقة البورجوازيين والمياومين الذين اخذوا يتكدسون في أحياء تقتر الى الوسائل الصحية .

وعلى جانبي الشارع الذي خططوا له من عهد قريب ، ترتفع هذه المباني والعمائر المعسدة للاستثمار ، من أبرز انواعها هذه العمارات ذات الواجهة الجميلة ، بينما الظهر منها يطل على ساحة داخلية ظليلة ، والطابق العلوي يحتفظ به للخدم والعشم وقد قسم دائرياً الى حجرات ذات سقف سَندي يدخلها النور من منافذ في السقف . والطابق او الدور الواحد يقسم الى سقق او مساكن ، يضم كل واحد منها عدة غرف كبيرة ، رحبة بمد ان ضحتوا بالمطبخ والقسم الصحي ، اذ ان غرفة الحمام لم يهتموا بها الا فيما بعد . فكل شيء في المبني جرى تصميمه على اساس تجاري برسم الأيجار .

ويقوم حول المدينة جادة دائرية او صف من مراكز الدخولية . وتجاوز هذا الخط الى

الى الوراء يعتبر حدثاً هاماً في تاريخ تطور المدينة وامسدادها ، اذ يحرجها ، الى الأبد ، من النطاق المضروب حولها ويفتح امامها مجال التوسع والامتداد . وقد قام حول باريس عدد من هذه المناطق الدائرية استحال فيها بعد حارات واحياء جميلة متعددة المركز ، وقد حدث من طاقتها على التطور والانتساع سلسلة الحصون التي انشئت حولها عام ١٨٤٠ . ولم تخضع لندف مثل هذا الارتفاق الذي يحد من قدرتها على التوسع . وقد حل نطاق من المباني والمعائر محل الاسوار بعد ان أزيلت من الاساس وهدمت عام ١٨٥٧ ، وأزيلت كذلك تبعاً من مدينة انفرس اسوارها عام ١٨٥٩ ، وكذلك من مدينتي بال وبرشالون ، عام ١٨٦٠ ، ومن كوينهاغن ، بين ١٨٥٧ و ١٨٧٢ ، ومن كولوني عام ١٨٨١ ، واملئت ميلانو الى ما وراء سلسلة الحصون التي كانت تحميها ، كما ان مدينة امستردام تجاوزت كثيراً نطاق شبكة الاقنية المائية والترع التي كانت تحيط بها . وعمر حي المحطة بالمباني السوقية حيث اخذت تظهر سلسلة من الفنادق والقاهي ، ولن تلبث المدينة حتى غطت الضواحي القريبة فاصبحت بدورها احياء عامرة اصبحت واسطة المقدم بين الريف والمدينة .

هنالك رغبة شديدة في ادخال تعديل اساسي على هذا الطراز بحثاً عن نمذسة خاصة بالمدن المعماري المسيطر على الاذواق في بناء عمارات ضخمة ، بالجملة . ففي مذكراته يعترف هوسمان « بأنه كثيراً ما ضحى بالخط السوي في البناء » وبأسف كثيراً ان عهد الامبراطورية الثانية لم يشهد مهندساً خلافاً يحاول اجراء تجديد في فن العمارة بحيث يراعي الموجبات الجديدة . . وبالفعل ، فالعصر كله يتمتر في تروده ، ويكثر من التقليد كما ان ابتكاراته تفتقر الى الإصالة .

ويشعور من الوجمل والجرأة ، والتردد والاقدام ، خيل للكثيرين في هذا العصر ان عليهم او باستطاعتهم ان يقلدوا ، على هوام ، الفن القديم او الفن القوطي او فن عهد النهضة والانبعث . ولذا نراهم يندفعون وراء التجديد والتقليد . فقد علق باريس بالفن الايطالي في عهد النهضة محتذية بذلك حذو العصر الذهبي الكبير (القرن السابع عشر) فتحيي بذلك الفن الكلاسيكي الروماني ، كما يظهر ذلك جلياً لمن يتملى النظر في كنيسة الثالث الاقدس وسانت فرنسوا كسافيه ، والاوربا والوفر الجديد ، كما يحلو لفارنييه الاكثمار من تزويق الأوبرا بشكل ينسب عن الذوق السليم ، كما ان دو كسنوي عمسده هو الآخر ، الى تقليد الفن الكلاسيكي في هندسته لمحطة الحط الحديدية الشمالية ، ويحذر حذوه هيتورب في بناؤه المحطة الشرقية . الا ان بلنار الذي تولى بناء الهال الذي اكثر فيه من المواد المعدنية آخر ان يضفي على كنيسة القديس اوغسطين ، مظهراً بينظياً . اما البريطانيون المحافظون فقد مالوا بالاحرى الى الطراز القوطي بينما اخذ الاحرار منهم بالطراز الكلاسيكي كما تتمثل ذلك في قصر بوكنفهام مثلاً وفي اروقة كاتدرائية سانت بول ، والطابق الارضي لسلة نلسون ، بينما ارتدت مباني الجامعة في لندن طرازاً يونانياً . اما في فيينا فالطراز المسيطر عليها هو المعروف بطراز فرنسوا جوزف . فقد تمثل في الكنيسة

التذكارية ، الا ان مبنى المصفق (البورصة) ومسرح هوفبرغ والمتاحف التي قامت فيها ، فمعظمها من طراز فن عهد النهضة . وقد استلمهم *Poelaert* الفن الكلاسيكي في تجديد رسم وشكل قصر المدل الضخم في بروكسل .

والهندسة قلدت على اقدار مختلفة من النجاح ، المتعارف من فنون القرن الثامن عشر كالجداريات والميادين العامة والحدائق . واستعملت على نطاق واسع ، فن الحفر لتزيين القصور ومفارق الشوارع الكبرى ، بالتماثيل والانصاب . ولما كان الحجر يوحى دائماً فكرة الضخامة ، فقد حاول بعضهم استخدام المواد المعدنية فيأتي مظهر البناء من الخارج منمنماً مهيفاً ... فالهندس لابروست يكثر من المواد الحديدية في المكتبة الاهلية في باريس ، وفي مبنى سانت جنيفيف مخففاً بذلك من تراكم الاعمدة . فالاحجام الدقيقة المشوقة ، الهيفاء ، تليق كثيراً بالمباني الخاصة بالمعارض ومحطات السكك الحديدية وبالصالات .

تطور الخدمات البلدية الصحية
اثار نمو المدن السريع وامتدادها مشكلات متعددة، متعاظلة،
فاذا ما حفظ لنا تاريخ تطور باريس اسماء يتمتع اصحابها
بالشهرة وبعد الصيت امثال : رمبوتو وهوسمان وبوبيل ، فيروكسل تفخر وتدل برئيس بلديتها
أتاباش ، معاصر هوسمان وزميله في الوظيفة محافظاً ، كما اشهر جوزف شمبلرن بوصفه اميناً
لمدينة برمنغهام .

فقد عدت لندن ١١٤٠٠٠ شارع اي ما يعادل طول ٨٥٠٠ كلم ، كما بلغ معدل طرق باريس ٢٣٤٥ كلم ، نصف معظمها بالحجارة والبلاط واقيمت الارصفة المريضة على جانبيها . وورصف الطرق بالخشب ، أخذ به عام ١٨٨٠ ، كما لجأوا الى تزيين الطرق بعد ذلك بقليل وتم للنقل ثلاثة انواع من الوسائل : الامنيوس او سيارة كبيرة للركاب ، وعربة الجر والحط الحديدية على سطح المدينة او تحت الارض ، ثم الترامواي : مكهرباً كان او غير مكهرب . وغاز الاستصباح يبلغ استعماله الذروة عام ١٨٩٠ ، فهو وسيلة سهلة للتدفئة لم تلبث ان عمت المطابخ . أفيبقى بعد هذا جائزاً التعويل في تأمين المياه على الحمالين والسقاة ، ولذا رأت ادارة المدن العودة الى استعمال قناطر الجر هذه القناطر التي عول عليها الرومان ، من قبل . فكانت باريس اول من فكر بين المدن باستنباط الماء من تحت الارض بواسطة الآبار الارتوازية ، ولعل اول بئر من هذا النوع هي بئر غرينيل . وراح المهندس بلگران يحاول جمع مياه بعض الينابيع المعروفة في المنطقة ، فارتفع استهلاك الماء لدى الفرد الواحد من ٦٨ لتراً الى ٢٤٠ لتراً في السنة . وبنت مدينة مدريد قناة لجر المياه طولها ٧٠ كلم . ومدينة منشستر تزودت بالمياه من كبرلاندا . وتصريف المياه القذرة او الملوثة عملية ضخمة تطلبت نفقات باهظة . فقد احدث بوبيل (محافظ باريس) ثورة في تلك المدينة عندما اصدر امره بان تطرح النفايات في صناديق خاصة ليتولى عمال من قبل البلدية فيما بعد ، جمعها ، ونقلها ، دون ان يبالي بمعارضة ٤٠٠،٠٠٠ من جامعي الخرق والاسمال .

احشاء باريس ، هذه هي التسمية التي اطلقها زولا عندما راح يتكلم عن هال باريس . فالمدن الكبرى في الغرب تعمل ، في تأمين موادها الغذائية ، ليس على هذه المناطق المحيطة بها فتؤمن لها حاجات من الخضراوات والحبوب فحسب ، بل ايضا على هذه المناطق النائية عنها . فبينما تستقدم حاجاتها من اللحوم من مقاطعات الالب والحبوب من هنفاريا ، والجمعة من بوهيميا . وسكان مدن مقاطعة الروهر يؤمنون حاجتهم من البطاطا من المانيا الشرقية ، ومن هولندا ، والخنطة من اميركا ، والخضراوات من هولندا ، وفرنسا ، والحس على انواعه من مناطق البحر الشمالي ، والفاكهة والثمار من فرنسا وايطاليا . وهكذا ندرك الآن كيف ان الالمان تمكنوا من اخضاع الباريسيين عن طريق تجويعهم .

وهذه الاقوام المحتشدة في هذه المدن العملاقة تمشي جاهميريا ، الشارع في عبثه ولهو وملذاته لها ساعاتها من الغضب والحب . فباريس لا تقتفر للجلس في فرساي « مجلس ابناء الريف » كما يلقبونه ، منافسته لها على لقب « العاصمة » ، فتعرب عن هياجها وعن ثورتها عندما يتقدم احد امراء آل هوهنز ولرن ليرشح نفسه لعرش اسبانيا . ويحلو لهذا الشعب الباريسي التحم « بالتونكين » ، ويتعلق حول بيرانجيه ويصفق له ويظهر عداوه للسامية خلال « القضية » (قضية اليهودي دريفوس) ويهتف للقصر مردداً :

لرؤية القصر كما يجب
قم باسكراً واحضر بسرعة
ولا تتمهل في سريرك

وقد تقابل ادوار السابع خيراً خلال زيارته لباريس ، من موقف الشعب الفرنسي موقفاً حيادياً من الاتفاق الودي ، وراح شعب مدريد ، عام ١٨٨٢ ، يحيي الملك ألفونس الثاني عشر ، اثر عودته من زيارة قام بها الى المانيا ومصر فيها على باريس (التي اظهرت استياءها وغضبها) يهتف قائلاً : « ليحي الملك الراح » ، وهذا لم يمنعه قط من ان يحتج بشدة على ائزال فرقة المانية في جزيرة باب . البزة العسكرية لها اغراؤها لعمري : فها هو ابن لندن او زائرها الاجنبي يسارع لمشاهدة حفلة تغيير الحرس امام قصر بوكنفهام ، وابن باريس كابن برلين ، يهرول في سيره لمشاهدة حفلة استعراض للجيش تقام في احياء العاصمة . فالتهايل والانصاب الوطنية والشوارع تمتد باسماها مشاهير الوطن ؛ والمبني التذكاري يلعب الدور ذاته الذي لعبه الضريح من قبل .

وجاذبية الشارع أقوى من اي وقت مضى . فالمناظر المتنوعة تأسر الانظار وتبسي الالباب بعد ان تكون شوارع العاصمة قد تألقت بالانوار السواطع ليلاً . والنساء والفتيات لا يتحرجن قط عن الخروج ليلاً . وفي باحات المقاهي يحشد النظارة والزبن يتعدثون ويتسامرون محديقين بعضهم لبعض . وفي باريس اصبح للشوارع ولجساداتها البديمة سحر وفننة دونها سحر القصر الملكي ، والاقبال على احتساء اكواب الجمعة اصبح من الامور التي غزت اعراف

الامبراطورية الثانية بعد ان جاءت من المانيا . فواجهت المخازن الكبرى تلفت اليها الانظار والاعلان يمتدب النظر .

فالموضة او الازياء ، تخرج من باريس وتتحكم بالاذواق في الوقت الذي تفخر معه لندن بأنها محور الاذواق الرجالية ، كما ان فيينا هي محور الموسيقى المرقصة . هنالك لمعري انماط من الحياة هي من صمم حياة الشعب او الجماهير . فالعامل يتخلى عن ارتداء « البلوزة » او السارة بينما يتمسك بارتداء الكاسكيت او القبعة . فهو يشعر بانه في محيطه وبيئته لدى مشاهدته هذه الاعياد التي تقام عند حاجز العرش او في سوق المعجنات والحلويات ، اكثر مما يشعر به عند مرأى الشانزليزه . له العابه المفضلة كالكرة والبلياردو والدومينو والورق . فهو يتردد على الحنارة ويأتي الى هذه « الدواخة » ، كما ينتمتا زولا في وصف لها أخاذ . الا ان هذا المجتمع الذي تتحكم به البورجوازية ، كثيراً ما نظر اليه نظرتة الى غريب بعيد عنه .

فقد حرص البورجوازي على ان يتميز عن العامل . فهو يلبس الريدنغوت والجاكيت . فاذا ما اعرض عن السوالف ، فهو شديد الاهتمام والعناية بلحيته وشاربيه . اما امرأته فتتبع بيقظة واهتمام شديدين تطورات الزي السائد (الموضة) التي لها غرائبها ومستحجاتها السنوية واحياناً الفصلية ، فتسبب لها نفقات غير ملحوظة كما تقتضيها المزيد من اوقات الفراغ . فدواءً حصرت نفسها في مشد او فضلت الشكل المبهم ، وسواء أفضلت القبعة الكبيرة او اختارت القصيرة ، فهي تهتم الى حد بعيد بأحذيتها وتفضل منها ما كان على الزي ، وبقفازاتها ، والحطة والطرحة ، والنقاب او الحمار ، وبالمروحة اليدوية . ولما كانت دواعي حياة العصر تحفزها اكثر فاكثر الى الحركة والتنقل والى ركوب العربة ، كان عليها ان ترفع اطراف فستانها الذي يشكو من الطول اجمالاً . فهي تدل حوالي عام ١٨٩٥ ، بحميتها الصغيرة تودعها مندلبها وبعض اغراض زينتها . فاللبسة لا تتطور الا حوالي عام ١٩٠٠ ، فالرجال يفضلون بالاكثير السروال والقبعة المستديرة الشكل ، وقبعة القش ، بينما تؤثر السيدة التايور والحذاء الواطي الكعب . فالرياضة البدنية وركوب الدراجات والاستقبالات وارتياح المناظر في الاوبرا ، امور معقدة وتدعو للبذخ .

اما الدار او المنزل ، فقد حرصوا على ان يوفرها له احسن ما يكون من المفروشات والاثاث والرياش . فقد اخذ الناس يكثر من الدمى والصحون المزخرفة بشتى الالوان ورسوم الاسرة ، كما حرصوا على ان يؤمنوا لهم غرفة للطعام فرشها من طراز هنري الثاني ، وغرفة للنوم من طراز لويس الخامس عشر او لويس السادس عشر . وكثيرا ما يتدلى من السقف الشريات الجميلة ، كما حرصوا على تزيين المداخن بالشموع . اما المائدة فتزقل عادة بالاطبايب من الالوان وصنوف الاطعمة ، ولذا كشرت جداً الكتب والمطبوعات التي تدور حول المطبخ واعداد الطعام . والملاقي والشوك والسكاكين هي مفضضة على طراز دبولز وكريستوفل وهلفن . والبيانو يضاف على البيت مسحة من الشراء والفني ولا يفترض في اصحابه مواهب موسيقية عالية ، ويصطحب الغناء عادة .

فهو الآلة الموسيقية المفضلة لدى الطبقة البورجوازية الحديثة المهذب . و بانتظار هيئة البائثة قبل الزواج ، تنصرف الفتاة لاشغال الابرة والتطريز . اما تبادل الزيارات في ايام ومواعيد محددة مسبقاً ، فهذه من الامور والواجبات التي تتقيد بها السيدات في المجتمع ، اما الصالونات الادبية في المنزل ، فمثل هذا الامر لم يعد موضوع اهتمام .

وكثيراً ما يلتقي في هذه الصالونات والنوادي ممثلو الطبقة البورجوازية العليا وابناء طبقة النبلاء القديمة ، على الطريقة الانكليزية ، كنادي جوكي كلوب وناضي الاتحاد .

والاقبال على جمع الاشياء القديمة والتعلق بمحففظها يلتقي والغريزة المحافظة التي ميزت هذا العصر . فهذه الهواية تخدم المتاحف والمجموعات الفنية الفنية الكبرى . فاذا ما خطر يوماً لاحد هؤلاء الهواة ان يلقي نظرة عابرة على المجموعات الفنية الخاصة المتوفرة في باريس ، كان لا بد له من ان يقضي سنة كاملة قبل ان يشبع فضوله ، كما يؤكد لنا عام ١٨٦٠ ، وليم بورجر . كل بورجوازي من علية القوم يحترم نفسه يرغب صادقاً في ان يؤلف له مجموعة منها محتدياً في ذلك حذو ابناء الطبقة الارستوقراطية ، والهبات الخاصة تتوافر وتتكاثر بحيث يمكن انشاء متاحف عامة . فأبل غييمه يحرص على جمع غرائب الشرق الاقصى ثم يهبها للدولة ، والصراف سرفوش ، والبارون دافلييه ودوقة غاليارا وآل كونياس - جاي ؛ وآل روتشيلد ، وهبوا الدولة مجموعاتهم النادرة .

وهواية جمع الكتب تستهوي الاذواق ، اذ ذلك ، فمن ناطور المارة الى ساكن السقيفة العلوية ، الكل يقرأ الروايات المسلسلة التي تحرص الجرائد المعنية بالإعلام والازياء على نشرها تباهاً . وقد توفر من هذا كله ادب روائي رخيص هو من القصص الشعبي او القصص البوليسي .

ومثل هذا الهوس يستحوذ على النفوس فيقبلون بحماس على المسرح الفئائي . فالفن كل الفن يقوم باستثمار اللحن او النهمج الفئائي على الوجه الاكمل . فاناشيد روسيني ومدرسة ماير بير وبوالديو وهيرولد وأوبير ومن لف لفهم تنتشر بين الجماهير الشعبية . وبعد هذا الجيل الذي صفق عالياً « للافريقية » و « لليهودية » تطل علينا الميلودراما التي تغص صالات العرض بالستمعين اليها من الهواة ، منها الـ *Mignon* تأليف امبرواز توماس ، وفوست ، وميراي لفونو ، وكارمن لبيزه ، ومانون لمانيه ، وباريس تقوم وتقعده لواغفر الذي قاد المعركة ، سنة ١٨٦١ وخسرهما حول *tannhauser* وكل مدينة لها شيء من الشأن تعمل على انشاء مسرح لها وفرقة موسيقية ، ملازمة له ، و « موسم » فني ، تنظم هذه الجوقات رحلات لها تطوف معها الولايات والمقاطعات . والآلة تفيد كثيراً من التقنية التي ازدهرت في هذا العصر ، كما ان فن التزيين والتعلية يتطور بسرعة ، وعرف فن الضوء ، كيف يفيد من غاز الاستصباح ، ثم من الكهرباه .

وهذا الشعب يرغب في ان يلهو وان يعبت . فالى جانب المسارح التي تسير في نهجها على تكريم المؤلفين الاتباعيين (الكلاسيكيين) ، كالكوميديا الفرنسية التي برز فيها نبوغ

ممثلين امثال : بروهان ومونيه - صولي وروزين برناردت (التي اشتهرت باسم ساره برنار) ، فقد عمل بمزمل عن الاوبرا مسرح المهرجين ومسرح بيجازيت ومسرح الامم ، ومسرح المستحدث (*Nouveautés*) . وهذا الفن الباريسي الاصيل : الفودفيل او الملهاة الذي يقول عنه سانت بوفانه : مثال لا يخرج كبيراً عن مثال هذا الجيل الذي لا مثالية له ، فن يضعنا وجهاً لوجه امام رواية يشاهدها المرء وهو متكئ، الى درابزون الشرفة ، موضوع هواية الطبقة الوسطى التي لا تحلم بشيء احسن ، وبعد هذا النجاح المنقطع النظير الذي سجله سكريب امكن للايش ان يطلع علينا، فيلعب لوحده، او مع بعض المساعدين له نحواً من ١٠٠ مسرحية، بين ١٨٣٦-١٨٧٦ واكثر سخرية منه واوفر، كما برز كل من اميل أوجييه واسكندر دوامس الابن الذي تمكن من أقلمة مسرحيات ذات فكرة معينة او تصف لنا اخلاق المجتمع . والاوربيت التي تداني الفودفيل ، تبعد عن الاوبرا المضحكة على نسبة ما يصبح هذا الفن الاخير دراما تقف عند منتصف الطريق من القصص الوصفي، اذ كان من المفروض القيام بحركة معاكسة لما يسميه تيوفيل غوتيه الفن المهجين الحقيير الذي جاء خليط من طريقتين للتماير تمارض احدهما الاخرى حيث يسيء اللاعبين تمثيل ادوارهم بحجة انهم مغنون ويفنون بصورة شاذة تحت ستار انهم يقومون بعملية تمثيل . كان على الاوربيت ان تضحى بمنصر المرح وحرية الموضوع بدلا من التضحية بالموسيقى التي كان يطلب إعداد الجو الملائم لها . ومع ذلك فالمؤلفون امثال لوكوك واوردان وبلانكيت ومساجيه اتقنوا، الى درجة عالية، فن التلحين او التوزيع الموسيقي للاوركسترا، وقاموا بردة معاكسة ضد هذا الفن الذي وصفه برليوز « بالزقاي » والسافل او الواطي ، والكثير الحركات ، ضد هذا الفن الذي بفضل النجاحات التي حققتها « هيلينا الجديدة » و « الحياة الباريسية » رواجاً عظيماً .

هنالك مع ذلك لنادات ايسر منالأويسر اخذأواشد وقماً. فقد اقبلت باريس على المراقص حيث تقع العين على ما يذهل ويدهش ، امثال ميمي ، تاب تاب ، وبيبيه والبطينة ، كما استسلمت لهواية السيرك الذي غمك الاذواق وسارت شهرته بفضل العاب بارنوم ، فعرفت باريس اربح فرق منه في وقت واحد ، حيث أخذ القوم بالعباب الخفة التي قام بها مازورييه ، صاحب الوجه الصبوح ، واوربول ، هذا المهرج الذي ليس من يعدله ، ثم الاخوة برانكوني الذين وضعوا تحت اعين النظارة العاب السيرك الاولي الذي لم يلبث ان حل محل سيرك الشاتليه . وفتح مسرح فولي برجير ابوابه في باريس حيث تألب الناس لمشاهدة الضواري والكواسر والالعاب البهلوانية ، ومشاهد العري والعباب الخفة . وراجت كذلك المقاهي الغنائية حيث يستطيع المشاهد ان يدخن ويشرب على هواه ، فعدت باريس منها عام ١٨٨٠ نحواً من ٣٠٠ مقهى .

كل ما في المدينة ليس باللائق . ففي بعض احياء باريس الحضارة المدنية : مساوتها وعورتها امثال الـ *Salpêtière* ، والمهطقة والبيت الابيض ، وفي اماكن ومواقع كثيرة على الخط الدائري تقوم العلب الليلية وبيوت المشاة والتمسرى .

ولستراسبورخ مثل هذه ، هي الاخرى ، اشهرها الـ (*Ponts - Couverts*) ومثل لذلك لمدين روبيه وليون ومرسيليا . اما في لندن ، فمقابل الاحياء السكنية الغنية الى جهة الغرب ، يقوم حينها القدر ، الـ *East - End* ، واحياؤها الفقيرة القذرة . ويرى ماكس اوريل في لندن مزيجاً بشعاً من الجمعة والانجيل ، وخليطاً من مشروب « الجين » والتورا ، والسكر والرياء ، والاساخ مما لا يرى في غير مكان ، والبذخ الجنوني والبؤس المدقع ، والازدهار والانهطاط وغير ذلك من المفارقات والمتناقضات الصارخة ، وهؤلاء البائسون الجائعون ، الحيارى ، وهذا الفريق الفارق بصلف وعلواء في الفن والذادات .

فهذه الزرائب والحشود البشرية التي هي اقرب الى الصائمة منها الى الناس ، هي نتيجة هذا الازدهام والقذارة معاً . ففي عام ١٨٨٥ ، كان معدل الغرف التي يسكنها شخصان ١٤ ٪ في باريس ، و ٢٨ ٪ في برلين وفيينا ، و ٤٦ ٪ في بطرسبورخ . وجاء في احصاء حول بروكسل ، عام ١٨٩٠ ان ٤٩ اسرة تملك مسكناً خاصاً بها ١٣٧١ تضم ثلاث غرف على الاقل ، و ٨٠٥٨ للواحدة منها غرفتان فقط ، و ٦٩٧٨ اسرة لها غرفة واحدة ، و ٢١٨٦ اسرة تسكن غرفة علوية تحت السقف ، و ٢٠٠ في كهف او دهليز ارضي .

ففي عهد ديكنز ، آوت ارضفة لندن وعنابرها ١٠٠٠٠٠ سارق . وهاید - بارك حيث لا تظهر الارستوقراطية نهراً الا على صهوة الخيل ، هو مكان يتعرض من يمتاز له لخطر الموت ، وكلمة « مخضب بدمائه » هي على كل شفة ولسان . ففي فرنسا ٢٢ شخص من كل ١٠٠٠٠٠ من سكان المدن يقدمون لمحاكم الجنح مقابل ١١ في الريف ، عام ١٨٨٠ وحوادث الانتحار هي تقريبا ، وبصورة ثابتة بنسبة اهمية التحشيدات .

ففي لندن ، عام ١٩٠١ نحو ١٨ ولادة لكل ١٠٠٠ شخص في مهبستيد ، و ٢٥ في بتنال غرين ، وفي تورينو ٢٤٠٦ ولادة في الحي الارستوقراطي سان فرديناندو ، و ٤١٠٥ في حي سان لورنزو الفقير . اما معدل الحياة ، فالاحصاءات تقدم لنا ارقاماً في غاية التضارب والتضاد . فالاحصاء الذي وقع ١٨٧٣ - ١٨٧٥ ، كان معدل الوفيات ١٥٠٧ في المقاطعة الثامنة في باريس ، بينما بلغ هذا المعدل ٣٦٠٢ في حي ١٩ ، عام ١٩١١ ، مقابل ٩٠٦ و ٣٢٠٤ . اما في برمنغهام فقد انخفض الى ٢٦ عام ١٨٥٠ ، والى ١٧ عام ١٩١٠ ، بعد ان تطورت الامور الصحية في المدينة ، وارتفعت اسبابها . وتعمل مقاطع مستمدة من نصوص كثيرة ان سبب هذا الوضع انها يعود كله الى تأثير الزرائب والاحياء الفاسدة في المدينة ، فكلمات السكر والسرقة والبغاء والامراض ترقص على لسان الشعراء وتتدافع الى شفاههم عندما يتحدثون عن المدينة اللعينة .

من خلال الأنوار التي تعبت بها الارياح

بيوت البغاء تتألق نورها في الشوارع

(بودلير : ازاهير الشر)

الهرب من المدينة
كثيراً ما جاشت نفس ابن الضيعة حسداً من ابن المدينة على عيشه ، في الوقت
الذي يفكر هذا الأخير بمناسبة لتغيير الهواء الذي يستنشقه. وهكذا نرى
ان حضارة المدينة طلعت علينا برغبة جامحة وميل قوي للتنقل والانتقال طلباً للذة وانتجاعاً
للصحة ؛ وكلما توفّر لابن المدينة بعض اوقات الفراغ وكان باستطاعته السفر شمر للرحلة متوخياً المواقع
الجميلة واماكن الاستجمام . وكلمة سياحة اطلت علينا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،
ويخرجها لبتره في معجمه الشهير من الكلمة الانكليزية *Tourist* فقد جاءتنا هذه الحركة ونسبها
اليوم هذه الرياضة ، من الانكليز . الا ان الاسفار أصبحت عادة استبدت بالناس وطلعت على
الامزجة بمد طلوع السكك الحديدية ، فكثرت بين ايدي المسافرين كتب الادلة والخرائط
التي تشير بدقة الى معالم الطرق وخطط البلدانية . فالنادي البريطاني للرياضة البدنية للتصعيد في
الالاب ، نشأ عام ١٨٧٧ وسميته النادي الفرنسي ظهر عام ١٨٧٤ ، وتولى ادارة الثاني منها
شخصيات لها شهرتها الواسعة للترويج للرياضة البدنية وحركة السياحة ، امثال : ادولف جوان
وفيوه – لودوق ، ودوق دومال والبارون نفليز . وطلع علينا بيارا بالخرائط المصورة التي
تشير الى المواقع الاثرية المشهورة .

فاذا ما حرصت كل مدينة على ان تؤمن في محطاتها الكبرى ونهايات خطوطها الحديدية
الرئيسية الفنادق النخمة لاستقبال المسافرين والسياح ، فالصناعة الفندقية فرشت مناطق برمتها
ومقاطعات بكاملها بالفنادق والاقليات على اختلاف درجاتها . وعلى شواطئ البحر قامت
مساح اثيرة يرتادها المستعمون من كبار القوم واثريائهم ومشاهيرهم .

ورياضة الجبل راجت ، هي الاخرى ايما رواج . فقد ام شامونيكس ٩٠٠٠ زائر عام
١٨٦٠ ، كما انها حوالي ٢٥٠٠٠ عام ١٩٠٠ . واخذت سويسرا تصنع السياحة في بلادها فدرت
عليها هذه الصناعة دخلاً طيباً . فسويسرا هي التي طلعت علينا بما نسمي *Palace* ، وادمز الغى
ماندة الضيوف ليقدم لهم بديلاً عنها غرفة الحمام . ورؤوس الاموال التي استثمرت في صناعة
السياحة بلغت المليار ، عام ١٩١٠ . والرياضة الجبلية استفادت من هذه الحركة الناشطة لتحسن
ستار قنن الجبال وقممها ، وفتحت بذلك الطريق امام رياضة التزلج على الثلج .

فقد هبط فيشي ٧٠٠٠ ضيف او زائر عام ١٨٥٢ ، و ٦٠ الف عام ١٨٩٠ ، ومدينة بلبييه
تجمع ينانبيها العديدة عام ١٨٥٧ ، حتى ان مترنيخ دعا ممثلي الحلف المقدس لقضاء فترة
استجمام في مياه كارلسباد ، وناپوليون الثالث يتردد كثيراً على فيشي ويقوم بمفاوضة كافور في
بلبييه ، بسمارك ياتي وبياريتز . وعدد كبير من المفاوضات الدولية جرت في مراكز المياه المعدنية :
في ايشل ، وغاستاين ، وبادن . والبرقية التاريخية التي ارسلها غليوم الاول الى بسمارك في تموز
١٨٧٠ ، انها انطلقت من ايلو حيث كان العاهل الالماني يستجم .

وفي ميادينها وساحاتها المعشوشبة اخذت انكلترا تحمي العابها المفضلة : التنس والغواف

وكرة القدم ولعبة الكريكيت، واخذت عادة التزلج تنزور باريس منذ عام ١٨٦٠ / ٦١ على بحيرة لونسان. اما هواية القنص والصيد بواسطة الكلاب فبقيت الهواية المفضلة لدى الطبقة الارستوقراطية وكبار ممثلي البورجوازية الذين لهم من مذخور وفرم ما يسمح لهم بالانصراف لهذه المتعة. اما صفار القوم فيقنعون منها بصيد صفار الطير ودقيق الطرائد بالبندقية . واخذ الطب يدعو للرياضة البدنية ، واقبلت عليها المدرسة تشجع في صفوفها الرياضة ولا سيما الالعاب السويدية التي روج لها اياما رواج آل لنغ ، الاب والابن . وقامت جمعيات رياضية في جميع البلدان تدعو الشباب للالعاب الرياضية في الهواء الطلق ، ومثل هذه الجمعيات لها موسيقاها واعيادها الموسمية ، من هذه الجمعيات من وضع نصب اعينها اغراضاً وطنية كجمعية السوكول عند التشيك مثلاً ، التي رمت الى تغذية الروح القومية في قلب الشباب الرياضي .

الفصل الثاني

استقلال الذوق

استقلال كل من الكاتب والفنان
كلما تقدم بنا المصر نعمنا بالمزيد من انتاج الادب والفن. وقد
تم لنا ذلك بفضل هذا التطور المزدوج في مجالي الفن والافراء
وتوفر اسباب الفراغ والتعليم والتقنية . فالمنشورات على انواعها تتوفر في كل مكان وعن كل
شيء . فالجريدة تنير وتزود قراءها بالمعلومات وتثير الفضول في نفس القارىء . وقد طغى
الكم على النوع وليس بمستغرب . ومهما يكن فقد ادى انتشار الثقافة الى طلوع نشاطات فنية
كانت من قبل وقفاً على اقلية ضئيلة ونقر قليل ، كالموسيقى مثلاً . لنعد بالفكر الى هذا الحد
الذي سيطر على فيينا فترة من الدهر وكان المرء فيه شعر بانتقاص من كرامته اذا لم يأت اهتمامه
بفنون المسرح دون اهتمامه بهام الحياة وشؤونها الدنيا . فتألفت جمعيات فنية ، عنت باقامة
الحفلات الموسيقية ، منها في باريس مثلاً ، الجمعية الوطنية للموسيقى ، وجمعية بادلو للموسيقى ، وكرلون
ولامور ، وكلها رمت لتصحیح الذوق وصفه وتهذيبه ، كما ان جمعية الحفلات الموسيقية في
الكونسرفاتوار الوطني التي نظمها هابنيك اخذت تمرف عبقرية بيتهوفن الى الرأي العام الفرنسي .
فاذا ما حل للنصرء من رجال المال الذين لا تتوفر دوماً لهم ثقافة عالية محل النصرء الامراء ،
فكثيراً ما رأينا نصيراً ذكياً مستبدأً يحل محل هوي يبسط للفنان يدأ رقيقة دون ان يفرض
عليه الامور او الاشياء الاثيرة لديه . فالتوصية حملت دوماً شيئاً من الاستبداد والتسلط .
فعل هذا الهوي الا ياخذ بعين الاعتبار والملاحظة ، هذا الخيال الممنح الخلاق ، بل عليه ان
يؤكد حكم الاندية الادبية والفنية .

فكان لا بد ، والحالة هذه من ان يدافع الفنان عن حريته وان يصمد في وجه الضغط
الذي يتعرض له من الجمهور . فقد تكاثرت المذاهب والمدارس الصغرى لتفي بطالب الجماهير ،
فراحت في تمنيتها توصل ابوابها في وجه المعديدين . وهكذا راح الالهام يصون نفسه من هذه

الزرقاقية . هنالك اتجاه بارز يرمي الى صبغ الفن بالديموقراطية . فقد استطاع الجيل الرومنطقي ان يفرض نمطه كما يفرض الطغيان ذاته . ومع ان الرومنطيقية بقيت لها القدرة على التعبير عن لواعج النفس بعد عام ١٨٤٨ ، الا انها كانت اعجز من ان تشبع الغرائز في ثورتها على الاعراف والتوافه . فتورة الشباب التي اتسمت بالرومنطيقية قبل عام ١٨٣٠ ، قامت عام ١٨٥٠ تغف في وجه الرومنطيقية . الا ان مراكز العبادة هذه ثاقت اكثر من كل وقت مضى ، الى جمع اتباعها وضمهم بعضاً الى بعض . فعبق الجو بهذا الاربغ وهذه الالوان الزاهية والانغام الساحرة ، كما يؤكد بودلير لنا ذلك .

والحال ، فالبورجوازي لا يستطيب كثيراً ما يخرج عن الحد الوسط . وفي هذا لعمري كل جاذبية الربح وسعره - في هذا العهد المعروف بالعهد الواقعي - الذي قابل ، بإعراض كلي حرفة الادب والفن لمعجزهما عن تأمين الحيز لهترفيهما . فقد سبق للشباب الرومنطقي واحتج بشدة على ما يكتنف العيش من صروف وظروف قاسية ، وشروط راح برودون يفرضها على الفنان في عهد لويس فيليب . فقد راح ميليه ، في مطلع حياته الادبية يقلد بعض آثار القرن الثامن عشر بعشرين فرنكاً للقطعة الواحدة ويصور باقطات . فقد باع صورة «البشارة» ١٨٠٠ فرنك ، التي بيعت ، بعد ذلك بقليل بـ ٥٥٣٠٠٠ فرنك عند بيع مجموعة سكريتانف وراح بعض هؤلاء الفنانين يتساهلون ويتنازلون عن غلوائهم في سبيل استدراج توصيات وطلبات جديدة . وراح الناس يتذوقون اللوحات المرسومة بريشة فلاندرين وشاسريان بينما رفضوا ان يعرضوا الصورة: « جنازة في اورمانس » بريشة كوربيه ، في متحف باريس للفن ، عام ١٨٥٥ ، فاضطر لعرضها في كشك من خشب . والمحكون الفنيون لم يعاملوا معاملته احسن آثار مانيه . وقد أحيل الى القضاء اصحاب هذه الآثار الادبية او الفنية : اراهير الشر - ومدام بوفاري - وتيريز راكن - ومادلين فيرات ، والمدوخ ، بحجة انها انتهاك للآداب العامة . فقد ترك لنيبا « مورجر » وصفاً لحياة بوهيمية ، حياة على هامش العالم البورجوازي الذي يحرص على دفع بعض بنيه الى سلوكها ، ثم يروح ويصفهم بخارجين على المجتمع . ويذهب ستيفن زقاينغ الى اطراء مناخ باريس الغريب « المشبع بالسذاجة » وبهذه اللامبالاة المتسمة بالحكمة والرصانة ، هو الذي « خرج من مدينة فيينا هذه ، الطائشة ، اللعوب » وقد وقع الانفصال حقاً: فقد اعلنت مونمارتر ومونبارناس تمردهما في باريس نفسها واصحاب الشهرة لم يعودوا من خالستق النوادي والصالونات ، ولا وقفاً على الاغنياء ، بل من صنع المقاهي - المساقى والاهراءات . وقد يحدث ان اللغة المحلية في هذه الاماكن لم تعد مفهومة لدى الطبقات العليا . هنالك ضوء خافت يضيء بعض المطلعين او المريدين ، الا ان هذا الضوء لا يبلغ المدينة .

وهذه الثورة ضد الالتزامية او العرفية - وهي ليست بشيء جديد - ظهرت في جميع البلدان على اقدار متفاوتة ، فما هو احد الكتاب الروس يتأوه عالياً نادياً حظه التاعس لوقوعه تحت كابوس الروح السلافية ويندب حظه لان ادبه ليس من هذا « الادب المتهم » . فبمدان استعرض شعراء ايطاليا وقصاصوها البلاد الذي يتضرس به الوطن المضطهد المهض الجناح في

تطلعهم بإعجاب لهذه الاعمال التي تم إنجازها برعاية الاسرة المالكة سميذاً في سردينيا. والفكر الالمانى القلق ، المضطرب دوماً ، يعرض جانباً عن هذه المفريات التي توفرها له سياسة بسبارك الوطنية ، فيتية حائراً بين الفلسفة الراديكالية وبين اللاعقلانية. اما في الجزر البريطانية ، فقد انتصب في وجه هذا الرياء الذي طبع العصر الفكتوري ، هذه الفردية بما اتصفت به من سخرية ومرارة . فلا يسرون معها بالضرورة على خطى اوسكار وايلد الذي حُكّم عليه لخروجه عن جادة الادب، متجاوزاً هذا التشكك اللااخلاقي، برفضهم لسهولة التعبير فطمعوا علينا بمعظم هذه الآثار الادبية التي وصلت الينا ..

اتكون هذه الحضارة المدنية في اوربا، اسفينا او اداة طرد بعد ان سجلت في حسابها مثل

هذا التطور ، يا ترى ؟

وهذه الرومطقية ، الفنائية السادرة في تأملها والعاطفية، سر قوتها
مخلقات المدرسة الرومطيقية
وسر بقائها ، في قدرتها على ورودها ورد الاحلام والخيالات المجنحة
والحماس الوطني. وهذه البنابيع التي كانت تصدر عنها زاخرة ، فياضة اصبحت الان اشبه
بخط دقيق يكاد يضيع بين هذه التيارات الجديدة التي اطلت علينا من هذه البلدان التي شهدت
طلوع ادب وطني قومي ، فقد كان بوسعها ان تردفه بدفع شديد، فلا نراها تشكو من اي ضعف
او وهن في المجال الموسيقي .

وهذا الهس العاطفي والمادة الشعريه الدفينة بقي يستمد منها نبراته المثيرة . فالحب المشوب
طلي الضلوع والتمططي بين ثنايا لواعج النفس ، يلهم هؤلاء الادباء صفحات تور بالحرارة والوهج
والدفء كالاديب الانكليزي روسي ، والاديب الاسباني بكر ، ومعظم الشعراء السلافيين
والرومان والسكندينافيين. والطابع المميز لآثار روبرت بروننغ هو الطابع السيكلوجي، وهوغو
الذي ادر كته الشيخوخة وراح يمانى من اغراضها ، اخذ يعنى اكثر فاكثراً ، بامور الحياة
والموت هذه القضايا التي عالجها الكاتب النرويجي بجارسن منذ ١٨٨٠ . ومع ذلك فحماسة
الناصرين تبرز على اتمها في المانيا ، في ما عرف به الفن المثالي الذي لمع فيه ماكس كلنجر ،
اشهر وبرز نقاش على ما نرى ، منذ طلوع دورر ، وهذه الردة التي ظهرت في انكلمتر ضد
الاكاديمية او التقليدية الفنية والتي كان بعض نتائجها هذا الازدهار المدهش السابق لرافائيل
والذي يتمثل على اتمه في هونت وروسقي ، وميلاي ، وبورن - جونز الذين حرصوا جميعاً على
ان ينموا فيهم البدائية الفنية ، التي راح رسكن ، هذا الناقد الذواقه الذي راي « في كل فن
كبير، شكلا من اشكال المادة، رسكن هذا الذي كان همه الاول والآخر ان يطهر البشرية
ويتقيها مما علق بها من عورات وشوائب، من هذه اللطمة التي لحقتها من جراء وقوع نظرها على
هذه المناظر البشعة التي طلعت بها علينا الصناعة . وهذا الحنين القوي الى الاجيال الوسطى
نجدّه من جهة عند « هيبيل » ، كما نجدّه من جهة ثانية عند وليم موريس وولتر كراين اللذين

حاولا تجديد فن الزجاج الملون وصناعة السجاجيد والفسيفساء ، او عند غوستاف مورو هذا الفنان الذي عني بفن التمنمة والتزييق الناعم .

والاشاحة عن المدينة والهروب منها يولد بالتالي النزوع الى الدخيل او الدخيل المستجلب من الخارج ، الذي يبعث الشوق الى تنويع المناظر . « اني امقت كل ما توافقوا على وصفه بمحضرة وما طلع علينا من نظريات المساواة » . يصرح لوتي ، كما ان موباسان يكتب بدوره قائلاً : « لن ارى بعد الآن ائماً لابسين الحداد ويشربون الاقسانت وهم يبحثون شؤون مشاريمهم التجارية » . فاذا ما راح برودون يستعيد بلذة ظاهرة ذكريات حدائته ، عهد كان يحرس قطعان البقر ، ويستحضر كوربيه امامنا الاعمال التي نقتضيه العناية بالارض . والاقبال على تصوير المناظر الطبيعية ، هذه النزعة التي اطلقها بريزون لغيت رواجاً عظيماً وكانت امتداداً لفن السمفونيات الراعوية .

وقد ذهب بعضهم الى ابعاد من ذلك حتى انهم اوغلوا ، غير هيايين ، في مجال المستهجن ، فالحرف من الجهول الذي يزرع على الصدر ، عرف ادغار يون ان يفيد منه الى اقصى حد وبمنف كما اجاد ذلك مريميه بمهارته المعروفة ، وغوثيه بذوقه الرفيف ، وجيرار دي نرفال يجاليتيه . وسيستمر موباسان وكذلك الرمزيون بعده ، في سيرهم على حافة اللاعقلانية .

وهذا العصر يصير على ربط الحاضر بالماضي . من ذلك مثلاً مناظر البطولة التي يرسمها لنا ، على غرار هوغو في اثره الخالدين : « القصص » وملحمته « اسطورة الاجيال » ، وتسون ، ووليم موريس وماتيو آرنولد ، وفريتاخ في روايته « الجدود » ، وتولستوي في روايته : « الحرب والسلام » . ولهذا السبب بالذات لقي واضعو القصص التاريخي ارتياعاً لدى الرأي العام واقبالاً شديداً منه ثم ان الاستمساك بالارض الام والتعلق بتاريخها ، قدم من جهة ثانية ، للشعر الملحمي ، موضوعات قوية . ومع ان هذا القصص خضع لمستازمات الواقعية وحياناً راعي ، مبدأ الفن لاجل الفن ، فالرومنطيقية ، بقيت تكأة هذه الآداب الحديثة المهد ، تعتمد على بعث المآتي العظيمة التي تنتزى ، على اقدار متفاوتة بين الكبير والصغر ، بأسطورة هذه المآتي والانجازات التي عرف القصص الشعبي ان ينفخ فيها الحياة . وهكذا اخذت بمماضدة حركة البحث القومي التي سار في خدمتها منذ عام ١٨٤٨ في هذه البلدان الواقعة بين البلطيق في الشمال والبحر الابيض المتوسط ، في الجنوب ، وعرفت ان تعضدها وتبيها لها اسباب النجاح ، كما احسنت تمجيد الذكريات الوطنية بين الاقوام السلافية ، وسكان شبه الجزيرة الابيرية . وفي هذا المجال ، يستلم كاردوتشي الموحيات التي استوحاها بيرس غالدوس او فركليكي . فنحن في عهد تدوي فيه الدنيا بالاناشيد الوطنية وتشهد ابداعاً موسيقياً في الحقل الوطني .

ومن هذا المعين الرومنطيق الذي لا ينضب ، تتفجر باستمرار تيارات الهرمونيا . فنذ ان توارى عن الانظار المثلون الحقيقيون لهذه المدرسة ، امثال ويبر ، وشوبرت ، وشومان ،

وشويان ، وليست ، جرت عبثاً محاولات تمهد لطلوع مناهج أو مدارس جديدة . فكل هؤلاء الذين يكتبون وفقاً لروح العصر ، لا يستطيعون مقاومة الرغبة في استخدام الطريقة الاحتفالية وباستلهاام الموضوعات التي كانت عزيزة على قلوب جيل الثلاثينيات . فشكسبير ما زال مصدر وحي والهام لكثير من المواضيع ، وفوست يمي أكثر من كل وقت مضى ، الموضوع المفضل . فالعبور من ليست الى واغتر تم بصورة طيبيمة مع ما صحبه من عنصر الخوارق والمعجزات .

القيادات الرجيمية ضد الرومنطيقية :
الواقعية ، الطيبيمة ، الفن اللاشخصي

بما لا شك فيه قط ان الرومنطيقية لاقت ، منذ عهد بعيد حركات عديدة مناهضة لها . فكثيراً ما قرأنا عن الحركة السابقة للرومنطيقية ، وهي حركة معادية اطلت من فراح عديدة : من بلزاك وميريميه ، كما اطلت علينا من سنتدال . وكم راح بيالنسكي يتمنى ، قبل عام ١٨٤٨ ، ان يطلع علينا شعر واقعي (وهي امنية تحققت على يد نكراسوف . وضحكة غوغول لم يكن فيها شيء من الرومنطيقية ، الا ان رينان بقي قريب الصلة بميشليه . وفلوبير بسننته الحمراء وبصوته القاصف والذي تجملت له افاريز ضخمة ، يوضع لنا قائلاً : « الطيبيمي عندي هو الشاذ الغريب ، المستهجن هذا الزعيق الميتافيزيقي او الميثولوجي » . فلا يحق للروائي ، اياً كان ، ان يعبر او أن يبدي اي رأي في اي موضوع يطرق ، . عليه ان يبذل جهداً كبيراً لئلا يودع الورقة اي شيء من قلبه ، . وزولا نفسه يعترف قائلاً : « انا اكره الرومنطيقية وامقتها لهذه التربة الزائفة التي لغنتها ، فانا لا ازال احمل في نفسي ارها وهذا ما يهبجني بالفعل » ، فيجمع به الخيال .

ما من احد لاحظ ان المذهب الواقعي انتشر بيسر اكبر في هذه البلدان التي سيطرت عليها الثورة الصناعية . وليس من يستطيع ان يتجاهل ما للوضعية والروح العملية من تأثير بعيد في هذا المجال ... ! « ان ما أرغب فيه ، يصرح ديكنز على لسان احد شخوصه ، هو الوقائع ... فالوقائع او الاحداث هي الشيء الوحيد الذي نحن بحاجة اليه على هذه الارض ... علينا ان نلغي الهيلة وان نتزعها عنا الى الابد » . فانتشار الزندقة على هذا الشكل ليس بقريب قط عن هذا الاقبال على الامور الخلاقية والمقذعات فلم يمد ثمة من موضوعات سامية او خيسية محطه . كل شيء يمكن ان يصبح موضوعاً بعد ان تحيز واصبح واقعياً . فاذا اعترفنا للماضي ببعض الشأن ، فعلى شرط تجريد الوقائع التاريخية من العنصر الاسطوري الذي يقلقها . وعلى هذا الاساس انزل رينان يسوع الى الارض وردة الى المحيط الذي وُجد فيه وفسره من خلال الناس الذين عاش بينهم . وهكذا تسقط فتنة الاجيال الوسطى ويزول سحرها ، هذه الاجيال التي تبعت الرعب بما فيها من ايمان وبرص ومجاعة ، حسب ما يقوله لو كنت دي ليسل . فالتاريخ القديم وعهد الانبعاث ليسا بأفضل منها . فمدم التأثر والتجرد من الغرض ، يمكن صاحبه من تشريح مجتمعه بتؤدة ورسم اخلاق المجتمع بكل صراحة . فقد قامت عبقریات خصبة وقوية جددت المسرح واعادت اليه حيويته ونشاطه ، منها اميل اوجييه ودوماس الابن ، في فرنسا ، وهيبيل

وهوتان ، في ألمانيا ، والثالث الشالي الذي تألف من بجرسن وابسن وسرانديبرغ ، وفي روسيا تشيخوف . اما انكلترا فيمكن ان تباهي ب : تاكراي وجورج اليوت ، وبولوير لثن ومريدث ، طليعة سلسلة طويلة لا تقل خصباً وشهرة في حقل القصة والرواية تمثل على خير شكل بفوقنتان في ألمانيا ، وكيار في سويسرا ، وقورغنيف ثم دستوفسكي وتولستوي ، مها كان من روحانيتهم فقد وصفوا لنا بدقة لا ترحم ولا تأخذ بالوجوه ، بألوان صارخة ، الطبقة الارستوقراطية الروسية العليا ؛ وعمل فلوير مع الاخوة غونكور ، على الترويج للمذهب الواقعي ، هذا المذهب الذي حرثه الفونس دوديه بكل دراية والذي وصل به زولا الى حافة المذهب الطبيعي . وعرفت ايطاليا ، هي الاخرى المذهب الواقعي (الموسيقي والأدبي على السواء) ، هذا المذهب الذي يتمثل على أتمه في هؤلاء الروائيين امثال فرغا وكمبوانا والموسيقار مسكاني وليونكا فالو وبوتشيني .

وكوزيبه من رجال الطليعة بين الفنانين الذين تصدوا بشدة لا بل بعنف لهذه التفاهات الرومنطيقية ، كانوا من جند المذهب الواقعي . وقد عرفوا ان يجتذبوا اليهم ميليه الذي يرى انه : « لا حرج قط من استخدام اللفظ الزقائي اذا ما صلح للتمييز عن السامسي الجزل ، وكلامها يؤلف « كتلة » انتصبت في وجه هذا الرياء الاجتماعي . اما في البلدان الاخرى ، فتصوير الواقع عنى بالاحرى ، بتحديد التفاصيل بكل دقة . ومختصر القول على كل من ينادي بمبدأ الفن للفن ان يطرح جانباً كل عاطفة شخصية .

فهذا الشاعر الذي يحرص على نحت وصقل عمله الاثري نحت الصائغ لقطعة ذهب بين يديه وصلها ، يعتمد كثيراً ، ولا شك ، عن عنصر التأثير . وهنا عودة ثانية الى النممة التي نشاهد رواجها عند السابقين للنزعة الروفائيلية ، كما انها عودة الى الانشودة . غير ان المذهب الوضعي ترك اثره البعيد في لوكونت دي ليل ، وفي « تين » ، ولا سيما في هؤلاء الذين على شاكلة براغا زعيم مدرسة كوامبرا ، يرون في الحادث الواقعي مظهراً جمالياً . واذ كانوا مهتمين كثيراً بتحديد الجمال فقد برزوا لنا خير من يمثل الفلاسفة الجمالية . فشخصية رسكن مع باثر تسيطر تماماً على هذا الفريق في انكلترا ، وبيرمز او والون وفوسمير في هولندا ، مع تين وواغنر ونيتشه ، كل هؤلاء عبروا عن هذه الفكرة الصحيحة الكامنة تحت هذا النشاط الفني الناصع والمشرق الذي يرى فيه العالم الاجتماعي غويو التمييز الاسمي لهذا التجاوب الجماعي في الشهور .

ان مثل هذه النزعة تتفق تماماً وعودة الكلاسيكية او الاتباعية . فقد تبني تيوفيل غوتيه عبارة افلاطون عندما يقول : « الجمال هو تعبير عن الواقعي المحيز » . و« تين » معجب الاعجاب كله لهذه الحياة الاغريقية المتواقعة . فنظريات انغر وتعاليمه استمرت في سيرها نحو الامام ، بعد ان عرف كيف يصمد في وجه العواصف الرومنطيقية ، وبوفيس دي شافان ربط بدوره فن التصوير بالرسم الهندسي رغبة منه في تأمين الانسجام والمساوقة . ومن مندلسوهن الى براهمز وسان - ساينس وفوريه ، عرف التقليد ان يصمد بعد ان تمسك بتأليف موسيقي آسر

وفقاً للوحدات التي وضعها القرن الثامن عشر ، بينما راح كاردوتشي يقترح الطريقة اليونانية اللاتينية . الا ان تذوق التاريخ القديم يتبين الآن نوعاً وقدرأ . فاذا ما راح اناقول فرانس يمب بلذة ظاهرة من اربح فلسفة أبيقور، فرينان بدوره استعمل حبراً سريعاً ، كما وجد فن الرثاء تلامذة مخلصين ، وفيلسوف التشاؤمية شوبنهاور ينتهي بشكل طبيعي ، الى فن ، يرى فيه كل الخلاص .

« فالرومنطقي الذي اتقن فنه لم يلبث ان اصبح ابداعياً ، ولهذا السبب عينه انتهت الرومنطيقية ، الى البرناسية ، كما يؤكد فاليري . ويرى تيوفيل غوتيه من ناحيته : « على الكاتب ان يعرف كيف يتحكم بشموره ويكتب احاسيسه في كل ما يكتب » ؛ ولو كونت دي ليل هذا الجمهوري من تلاميذ فوربيه ومريديه ، ونصير الغاية ضد المصنع ضد تمديدات الصناعة ، والمستلم بكليته الى بدائية تقول بالاشتراكية ، لم يمد ليرغب في عليائه وكبريائه واشمئزازه ، الا الانتطاع الى هذه اللذائذ الوضعية . فمعرفة الايقاع والانغام هي فوق كل معرفة ثم تأتي التفصيلات الدقيقة فتكمل ما ينقص . وهذه الدقة التي تميزت بها شاعرية كادوتشي وشادت عظمته ، سيرف جوزيه - ماريا دي مريديا ، الذي طلع من الجزر ، على شاكلة لوكونت ، كيف ينمسا بدوره ويعني بها في ديوانه *Les Trophées* بحيث ان كل مقطع من مقاطعها « سجل منتهى الدقة ومنتهى الجزالة » ؛ وهذا الفن الذي يتسم بالقوة عند الشاعر الايطالي صاحب : « الانشيد البربرية » ، والذي ينتزى بالعلم والدقة ، والذي يمتنى الى اقصى حد ، بالصيغة المتناهية الكمال ، لا يخلو دوماً من مسحة من الكتابة والسأم . فالامثلة كان لها دوي عظيم : فظهرت عام ١٨٨٢ « الانشيد القديمة » كما ان « الانشيد المفجعة » لن ترى النور قبل عام ١٨٨٥ ؛ وفي هذه الفضون ينشر بودلير ، عام ١٨٥٧ ديوانه الموسوم « ازاهير الشر » كما ينشر فرلين عام ١٨٦٦ : « الانشيد الزحلية » ؛ وفي سنة ١٨٥٧ ، وضع واغتر : « مذكرة تريستان » . وهكذا اطل علينا شعر جديد ، رمزي الطابع وجد الطريق امامه مهددة بهذا الانشاء الجزل الدقيق .

المدرسة الانطباعية
في عام ١٨٧٤ راح ناقد فني يعلق على احد الرسوم يوقع اسممه كلود مانيه فيصفه « بالفن الانطباعي » بينما دليل المعرض يشير اليه بمباراة « انطباع » الشمس الطالمة . « يا لنا من مساكين ، وسنقي مساكين » طلق يردد الفنانون بعد ان اطلقوا عليهم هذا الوصف التعريفي .

وقد شاء بعضهم ان يرى في مذهب الاخوة غونكور ظهور مدرسة ادبية جديدة يرمي الى وصف الاشياء كما تبرز للعيان في اوضاعها المتبدلة . فهم يشددون على الالوان وعلى المظاهر . ولما كانوا من الاوائل بين من ادخلوا الفن الياباني الى فرنسا ، فليس من عجب قط ان يتقنوا تحت تأثيره المباشر . وقد اطلق جول لوميتر فيما بعد على نقوده الذاتية عنوان : « انطباعات حول المسرح » . واناقول فرانس نفسه لا يستعمل تعبيراً آخر عندما يعرض افكاره الشخصية في

كتابه : « الحياة الأدبية » .

نحن الآن امام شيء من هذا ، في الموسيقى . وشابرييه الذي عُرف ببراعته وتقننه سار هو الآخر في اتجاه أفضى به الى مذهب دي بوسي . ولا يسمنا هنا الا ان ننوه بالرواد من الموسيقين الانطباعيين ، امثال موسورغسكي الذي عُرف بقدرته على تنويع التدوين الموسيقي . وقد يكون استبقي ، من هذه الناحية في كتابه الموسوم : « بوريس غودونوف » الرغبة التي طالما اعرب عنها دي بوسي ، وهي الاحتفاظ بما يسمى طابع العفوية او الطابع الزئبقي .

ان اسلوباً من هذا النوع ، وقد يكون شيئاً آخر - ظهر مع ذلك بين الرسامين . فالفنان الانطباعي يرى كزميله الفنان الموضوعي بين الامور المستمدة من حياة العصر ، اشياء طيبة . الا ان الاول منها يأخذ على الثاني اعتقاده بمظاهر وظواهر دائمة مستمرة ، كما يأخذ عليه انصرافه للرسم القاتم ، في مرحه السيء الاثارة والاضاعة . والحال ، فالمهم في الامر هنا ليس هذا الشيء بذاته ، بل الضوء الذي يكشفه او يبرزه . فالحوادث الثوري وقع بالفعل عام ١٨٦٣ عندما عرض مانيه في صالون المرفوضين رسمة المشهور باسم : « ترويقة على الحشيش » وهي صورة وضعها في الهواء الطلق . وعلى شاكلته نرى مونييه مأخوذاً « بهوس الضوء وحسى النور » . والحال ، فالنور او الاثارة تتغير وتبديل بتغيير الظروف والاحوال الطارئة . ومن ثم فالشيء المائل امامنا هو هو ذاته في كل الحالات اذ ان لاتغير ولاتبدل في ذاتيته . مما لاشك فيه اننا هنا امام تأثير *Estampe* الياباني الذي لقي في فرنسا نجاحاً عظيماً بعد ١٨٧٠ عندما أخذت امبراطورية الشمس المشرقة تلفت اليها انظار العالم ولا سيما الاوروبيين ، كما اننا ايضا امام تأثير الفن الهولندي والاسباني أيضاً كما هو ثابت . وهذه الثورة مدينة بنوع خاص لعلم البصريات الجديد الذي استشاطه التصوير الفوتوغرافي ومظاهر المشهد الصناعي : فالرمادي والاصفر يغشيان كل شيء حيث تقيم الالوان وتبهم وتشدت بالتالي الحاجة لنور ساطع . فالفنان الانطباعي لا يمزج ألوانه على الملائون (لوحة الالوان) . فهو حريص على ان يضع جنباً الى جنب الازرق والاصفر ليحصل بها على الاخضر . فهو يحل المركب ويترك للعين مهمة التركيب عن بعد . وهكذا فهو يضاعف اخف المؤثرات وادقها ، والهواء الطلق يفر له اللقطات الآنية ، كما يفعل المصور الفوتوغرافي اذ يأخذ المشاهد بنت ساعتها .

وكلود مونييه الذي يعتبر خير يمثل لهذا الطراز الفني لم يلتقط من الديكور العارض سوى المناظر الآنية ، والمناظر الهروب ، اذ ان الموضوع لا شأن له بمجد ذاته . فالابديع او السمو يكون في رسم « الخواء » . وسيزلي يضحي بمهام الارض في سبيل السماء ، ورينوار الذي برهن عن روح استقلالية كبيرة والذي انطلق من كوربييه الى مونييه ليكون اكثر فأكثر على مقربة من ديلاكروا ، آثر الواناً تهيج الحواس وتثيرها . لا يمكن اعتبار ديفاس في عداد الفنانين الانطباعيين المؤمنين ، هذا الرسام المحافظ ، اليقظ ، انقطع للرقيم (البستل) وتوصل به الى نتاليج مدهشة فاذا كان من المسير وضع هوسلر في مرتبة مونييه فقد دشن لبرمان ، مع ذلك ، في المانيا ،

مدرسة القطيعة او الانقسام ، هذه المدرسة الفنية التي تنتسب للانطباعية وظهرت بدورها رواجاً وازدهاراً كبيرين في البلدان الشمالية ذات الجو السويدي . ويوفيس دي شافان مدين بهذا الصفاء الذي عرف به لقضايا من هذا النوع سيطرت عليه واستبدت به .

كثيراً ما وصف نفسه بـ *tondichter* اي شاعر الموسيقى الذي واغتر والانجاء نحو الفن اللاعقلاني جمع في شخصه كل التيارات الفنية الذي عرفها القرن . رومنتيقي ، فقد « كانه » كل حياته ، اقله في انفتاحه للموسيقى . فقد واجه ثورة ١٨٤٨ كما يواجه حدثاً داوياً يصيب النظام الاجتماعي فطلع علينا سيفريد فوضوي يتحدثى الآلهة . وقد وقف في كتابه : الفن والمناخ ، ضد هذه الحضارة الجردة ، السوية الصور وراح يلوم فرنسا التي غدت ، من راسين الى سكريب ، ما هو تقليدي ، في سبيل « النبوغ » كما لم يفر في موقفه هذا ، اليهودي ، اي روتشيلد مرمزاً من تماثيل *Glaubiger* الى دائن الملوك وملهي المؤمنين ، ومندلسون ومايربير مع العلم ان اليهودي يمكن ان يرجع انساناً اذا ما تجرد من يهوديته . ففكرة التجديد تسيطر عليه ، هذه الفكرة المتحركة باتباع المدرسة الرومنطيقية بالرجوع الى الهرموني ، الى الانسجام والوحدة . يجب ان نوحده بين الشعر والموسيقى . ومن هذه الفكرة طلع علينا « برباعية خاتم آل نيبلونجن » فوضع نص النشيد واحكم الحبكة بين التأويل الموسيقي والمشهد . وتطالمة فلسفة شوبنهور القائلة بالفن المنقذ . ويتبعه فنه بعيد عام ١٨٤٨ ، نحو الرمزية التي تجملت بكل معانيها في كتابه : « تريستان » . وبعد الفشل الذي اصابه بـ « تانهور » في باريس ، لاذ بمرفاً السلامة الذي وفره له لويس الثاني ، ملك بافاريا . ومنذ ذلك الحين وضع كل آماله في المانيا المتجددة . فالقطعة التي وضعها بعنوان : *Les Maîtres Chantéurs de Nuremberg* هي مجلى لسمو المبقرية المتحررة التي انقذت في شخص ، لوثير المانيا من هذه الصيغ والقوالب الضيقة ، وبهر مسرح بيروث ليشهد تمثيل وقائع سيفريد الذي برز الآن بطلا قومياً وكذلك برزت شخصية برسيفال المنقذ .

واستبداد موسيقى واغتر بالناس واستشارها بأذواقهم يتفق وطلوع الوحدة الالمانية . قليلون جداً الموسيقيون الذين لم يؤخذوا بسحر هذه الموسيقى ، ولم يستطع كل من قام منهم بحركة رجعية منهم ، امثال دوبوسي ، ان يتفادى سحر الرمزية . « خرجت غخبولاً من مشاهدتي *Fielstapfelhaus* ، صرح فيما بعد ادوار هريو بعد ان استمع وشاهد الرباعية *tétrologie* عام ١٨٩٦ ليس ما هيأني ، انا الكرتراني الحديث العهد ، لاستمتع بهذا المشهد الموسيقي الضخم ، هذه الميتافيزيقا الموسيقية ، هذا الصدام بين القوة والحب ، ولاحتمال مرأى تشنجات ألبرنخ الغزم والحركات السحرية التي ترسمها الحلقة الساحرة في دورانها الذي لا ينتهي حول المرسة » .

وقد خطر لليست ان يوسع واغتر ان يحقق حلم المسرح الموسيقي ذي المدلول الفلسفي العالي . والأثر الواغترى هو الذي حققه نيتشه . فبعد ان وضع جانباً العقلانية السقراطية ، واعتقد بالسائل الحيوي الديونيسي الذي يستطيع ، اذا ما تعاون مع القوة الابولينية ، ان يخلق

الإنسان الكامل . فقد نزع نيلشه برادته نحو القول بمبدأ حياتي سام ، الا انه يأخذ بعد قليل ،
بمهاجة موقف واغتر من قضية الفداء أو الخلاص ويتطور ، بعد موت واغتر عام ١٨٨٤ ، بالهجاه
فلسفة نيور ومنطقية شخصية ، صرفة ، كان لها تأثير كبير في اخريات القرن التاسع عشر .

ربما كان بودلير بين الاوائل ممن انهبوا للدفاع عن واغتر مع
الابداع الشمري المستقل والرمزية استمراره في جهاده ذوداً عن كوربييه . فقد اطلق هذا
الرجل الغريب الطباع ، الرجيع ، الصعب التصنيف ، كما يقول فيه هوغو «قشعريرة جديدة» .
وفرلين الذي يستحق هو الآخر الشفقة ، والذي تأرجح بين الايمان والتهتك وسيطرت عليه
ابسط الفرائز مشروطاً « توفر الموسيقى قبل كل شيء » ، متصرفاً بكل حرته بالانظمة ، دونما
التزام ، مزدورياً بهذه الاصنام وهذه التماثيل ؛ وقد رُفِع على الهياكل رسمياً بعد عشرين سنة من
وفاته . وبأسلوب يفيض بالجرأة التي لم تعرف لها شبيهاً من قبل ، راح رامبو ، محمولا على اجنحة
الاحلام والخيال الشرود ، يصف امام اعيننا ، صوراً لم تخطر يوماً على بال ، باحثاً عن الشك
للشك ، ثم يلفه صمت طويل وينقطع للرحلة والسفر . وعندما توفي هوغو ، بعد واغتر
بقليل ، طلع علينا مالارميه بنظمه التقليدي ينشر على الملأ عدداً معدوداً من قصائده الرنانة
الداوية ارادها « ساحرة » تفيض نقاء فكرياً . وهذه الرمزية جاءت كما ارادها واغتر ، اذ
شدت وثيقاً ، بين الموسيقى والشعر . وهذا الفريق من الشعراء المعروفين بـ *Décadents* ومن
يلهم من الشعراء الرمزيين ، وصفوا انفسهم بشعراء فرنسا الشباب في الهيمى اللاتيني « قلة ممن
فتحت لهم الابواب ، فتقبلوا بارتياح كلي » ، البيان الجمالي الجديد الذي طلع علينا به مورياس .
فاذا كان المراد بالرمزية هذا الفن الذي استسلم ، بعد ان تسلم بالشعر المرسل ، للشعور وحده
وللعناصر الموسيقية ، وقام بحركة رجعية ضد البيان الوصفي واستخدم الایحاء واكثر من الهجاز
الشمري ، هذا التيار ارتدى اذ ذاك ، اتساعاً كبيراً . فقد غزا بلجيكا وتمثل فيها على خير وجه
بمترانك وموكل بقطع النظر عن فيهارين . وقد تمثل في انكلترا بالشاعر بریدجن وسونبرن
كما ترك ميسمه في الثالث الشمالي ، وجانب الكاتب الايطالي دانونزيو وترك فيه اثره ، كما ترك
ميسمه في الكاتب السويسري ستلر ، ودخل روسبا مع تيوتشيف « فت » . فالهم المسرح
كما ساعد في تمهيد الطريق امام الثورة التي قام بها دوبوسي في الموسيقى .

حركة انقطاع او انفصام تام عن المذهب العقلي او مذهب التعقلية . وفي سنة ١٨٨٩ اخذ
برغسون يطلع على الناس بنظرية الاكتناه . وتبين بين هذه التيارات الفكرية والفنية الدقيقة
تباعداً تقديماً نحو النظرية الموضوعية . وهكذا جاءت خاتمة حقبة عظيمة لعمرى .

الفصل الثالث

الريف يأخذ جزئياً بأسباب التطور

فاذا لم ترجع كفة المدينة عددياً من الوجهة السكانية ، فقد سجلت مع ذلك ، في جميع أنحاء أوروبا شيئاً لا ينكره الا كل مكابر عنيد . فعلى العالم الريفي ان يتكيف وان يتطور بما يتلاءم وهذا الوضع . ويمحق لنا هنا ان نتساءل ما اذا كان بالامكان ان نقارن بين « الثورة الزراعية » و « الثورة الصناعية » ، يا ترى ؟

وهذا الازدياد السريع في حركة السكان في المدن يقابلها
انخفاض نسبي في حركة السكان في الريف . فالأسر التي تعيش على مرافق الزراعة انخفضت نسبتها في كل من
ايرلندا وفرنسا . فالريف لم يمد في فرنسا سوى ٢٣ ٤٩٢ ٠٠٠ نسمة عام ١٨٩٦ ، بينما كانت عددهم ٢٦ ٧٥٣ ٠٠٠ ؛ وبلغ من وضع بعض البلدان من هذه الناحية « ان راحت تنمي الارض التي تحتضر » :

فالسهل كئيب تعب ، ليس من يحمي حماه
والسهل حزين يحترق وقد ابتلعته المدينة

(فيرهارين « المدن الاخطبوطية »)

ومع ذلك ، فهذا الوضع لا يعني قط ان الهبوط النسبي الذي طبع معظم الدول الاوروبية يكون انخفاضاً مطلقاً فلا تزال تشهد في كل من انكلترا والمانيا تزايداً مطرداً وان جاءت حركته اضعف مما كانت عليه في الماضي . أما في الجنوب والشرق من أوروبا ، فهذا النمو يطرد بصورة محسوسة .

فكل مرة تعجز الارض عن إعالة سكانها او تعجز عن الاحتفاظ بهم ، نرميها باكتظاظ السكان . ومع ان المدن لا تعمل في معابشها على الفلاحين الاوروبيين وحدهم ، فكثيراً ما نراهم يتخلون عن بعض انتاجهم الطيب طمعاً بالريح او نزولاً عند مقتضيات القاذون (تصدير

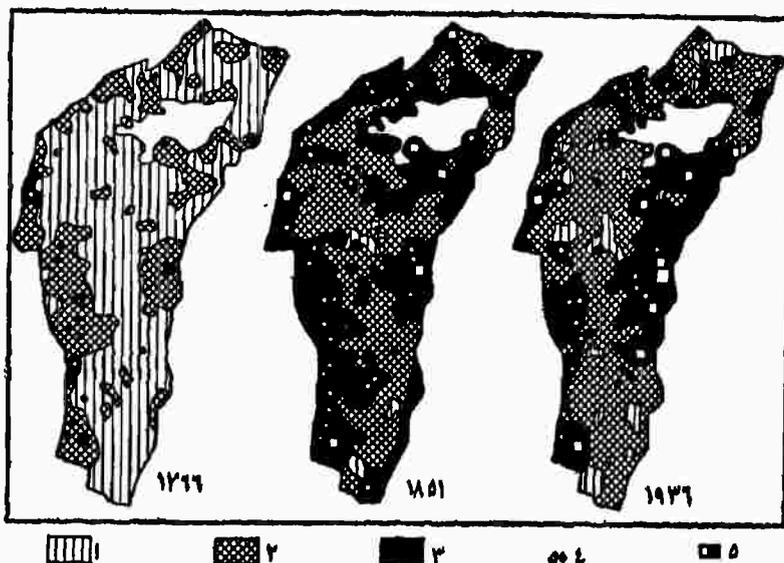
الحنطة في روسيا مثلاً ليس نتيجة فائض الموسم ، بل زهداً بالخبز الابيض) . فكثافة السكان في الريف يمكن اعتبارها على شيء من الشدة في عام ١٨٥٠ ، اذا ما قارناها بنسبة المحصول . ولما كان معدل الوفيات لا ينخفض الا قليلا او انه يبقى على حاله ، فقد كان من المتوقع ان ترتفع هذه الكثافة على اقدار ملحوظة لولا حركة نزوح السكان الى المدن او هجرتهم خارج اوروبا .

ومها يكن ، ولكي يتجنب الفلاح النتائج الوخيمة التي كان لا بد ان يفضي اليها ازدياد السكان ، كان عليه ان يبقى حيث هو ويعمل على زيادة موارده ، او ان ينزح عن ارضه ويرحل بعيداً .

فهو لن يتخلى عن ارضه بلء ارادته . ولذا نراه على شاكلة من تقدمه من السلف الراحل ، كثيراً ما يؤجر خدماته . فالهجرات الفصلية او الموسمية ازداد الاخذ بها بفضل طرق المواصلات والنقل الميسرة ، وهي هجرة تسببها دورياً الحاجة لليد العاملة ، في هذه المزدراعات الضخمة ، في بعض المواسم الفصلية ، كالقمح والكرمة . فمواسم الحصاد في سهل *Beauce* يجتذب اليه عدداً كبيراً من الحصادين يأتون من بين سكان مقاطعة بريطانيا او من البلجيكين . كما ان هذه المواسم في مقاطعة الساكس تجتذب العديد من البولنديين للعمل فيها . والانسان لا يتردد عن ركوب البحر اذا ما دعاه داعي الهجرة الى ذلك . فها هو الاسباني والبرتغالي والايطالي ينزحون الى اميركا الجنوبية اثناء الشتاء الشمالي للعمل فيها خلال فصل الصيف ، فوضع العامل الفصلي او الموسمي ليس فيه قط ما يرغب او يشوق . فأيام الشغل عنده مضنية ، مرزحة ، بينما يبقى عاطلاً في ما تبقى من ايام السنة . وهكذا يساعد ذويه ويؤمن لهم اسباب العيش ، كما ان الملاك الرأسمالي يستثمر الى اقصى حد في مزارعه هذا الريف الآني من اليد العاملة .

وهكذا ترى كيف ان المجتمعات الريفية اخذت بالتفكك والانهيار في اوروبا الوسطى بينما ينصرف صاحب قطعة الارض الصغيرة للاستدانة في سبيل استثمارها وتوسيع نطاقها . أما في المانيا فالاسر التي يعمل بعض افرادها في الزراعة ، اخذ عددها بالتناقص بين ١٨٧٥ - ١٨٩٥ بينما يزداد ، من جهة اخرى ، عدد الاجراء والخدام العاملين في المزارع . ففي جنوب انكلترا حيث الاستثمارات الضخمة تشغل ٨٠ بالمائة من مساحة الارض ، نرى تيار الهجرة فيها يحرف عدداً كبير مما يحرف في الشمال . والهجرة اشثدت في شرقي المانيا أكثر منها في غربها ، ولكي تحمد الحكومة من تيارها الجارف فرضت النظام المعروف عندهم *Rentengüter* الذي يقضي باقطاع العمال الميامين أراضي بموجب عقود خاصة تخولهم استثمارها . وهذا التدبير اتخذ مثله في كل البلدان التي تقوم فيها املاك واسعة للدولة كما اصاب ايرلندا وشبه الجزر الواقعة الى الجنوب من اوروبا على البحر الابيض المتوسط ، والبلاد الاخرى الواقعة الى الشرق من اوروبا . فاذا ما راح ملاك كبير يفرز ارضه قطعاً صغيرة للاستثمار اجتذب اليه عدداً من الفلاحين المزارعين ، فأدى ذلك بقسم من *Pntza* المجرية الى انشاء عدد من القرى الجديدة قامت حول

مزارع ممزولة عرفت عندهم باسم *mbiyos* عمرها اقوام من غاليسيا وآخرون من سلوفاكيا . اما تلك المناطق الجبلية كجبال الالب وسلسلة الجبال الوسطى حيث وصلت عملية احياء الاراضي الموت الى حدود المناطق الزراعية فقد عادت عليها هذه الحركة بالحيف والحسارة لصالح السهل ،



شكل رقم ١٦ - كثافة السكان الزراعيين في الزاس السفلى

١ - اقل من ٧٥ نسمة في الكيلومتر المربع ، ٢ - من ٧٥ - ١٥٠ نسمة ، ٣ - اكثر من ١٥٠ - ٤٠٠ - مجمعات سكانية تمداد سكانها اقل من ٥٠٠٠٠٠٠٠ - مجمعات سكانية تمداد سكانها اكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠ . الى الغرب : منطقة الكورم وكوشيسبيرغ . الى الشمال : منطقة هاغنر وغابتها . الى الشرق : منطقة الريد على طول نهر الريد . يلاحظ الزايد الفلاحي حتى منتصف القرن ثم الجنوب الذي مارسته ستراسبورغ ومنطقتها . (نقل عن جويبارالحياة الفلاحية في الزاس السفلى ، ص ٣٢٩) .

اذ واح المزارع الفصلي يستقر فيها بعد أن اطمأنت نفسه الى ظروف العيش المؤاتية . فمنطقة *Veluy* مثلا كانت في وضع أخف من غيرها ، اما في ضواحي مدينة سانت أتيان ، فالهبوط لحق بالأخص المقاطعات الريفية حيث اخذت تنشط صناعة صغيرة للمعدن ، بينما الصناعة الضخمة تقتل الحرف المتشتت بعضها عن بعض كما انها تستقطب اليد العاملة المتوفرة .

هذه التغييرات السكانية انما تشير صراحة الى المساويء التي يتأذى منها الريف . فاذا ما أدت حركة النزوح هذه الى التخفيف بعض الشيء من الضغط الذي يحدته اكتظاظ السكان على وضع إقتصادي محدود النشاط ، فقد اضطرت طبقة الفلاحين التي بقيت ملازمة للارض للاخذ باصلاحات جزرية تساعدها على قهر الصعوبات التي تعرض لها والتحكم بها .

تطور التقنيات الجديدة واستثمار
أصلح الارض

من المبادئ التي تعتمد عليها الهندسة الزراعية وتنهض عليها هي
ان الزراعة مظهر من مظاهر الصناعة ووجه من وجوهها
المتعددة ، تخضع مثلها لمتطلبات العلم والتقنية . فلم النبات

وعلم الحيوان ، والاقتصاد الزراعي اساسها كلها العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية وعلم الاسواق
بما تقوم عليه من فنون التسويق والتنسيق . ولذا انتشر التعليم المهني وذاع . ولا شك ان رأس
المال لعب هنا دوره البارز بحيث ان الفلاح المتعلم هو على الغالب ملاك ، ينعم ببعض الثراء .
ولكي يتخلص المستثمر الصغير من المصاعب التي يعاني منها ، كان عليه ان يتغلب على ما طبع
عليه من روح فردية وان يبرهن عن استعداد للعمل بروح تعاونية . فالعقارات تبقى كبيرة ،
واضحة بين من يرسفون في قيود العادات القديمة البالية ، وبين من اخذوا باسباب التجدد ، ويحاهد
الفريق الاول منهم ويناضل في ظروف وصروف غير متساوية مع الجهود التي يبذلون . فليس
بغريب قط ان تلمب سنة الاصلاح وقانون الاكفا لعبتها المعروفة هنا ايضا .

ومن جهة اخرى فهذه الاقطان والاراضي الزراعية القديمة في اوربا لا تصلح جميعها على
السواء للاجهزة الميكانيكية . فقد تركت فرنسا المانيا تيزها في هذا المضمار وتجاوزها بعيداً .
فقد كان لالمانيا عام ١٨٨٥ من الحاصلات الميكانيكية ١٢ ضعفاً مما كان لفرنسا منها ، وضمان
من الدراسات التي تعمل على الخيل ايضا . فبلدان اوربا الشمالية ، تتبنى قبل غيرهما من البلدان الاوروبية
الاخرى الماخض الآلية ، لان صناعة الالبان فيها اصبحت موضوع عناية وتخصص مستمرين .

فاذا ما اخذت الزراعة بالتقدم في هذه الاراضي المرتفعة الواقعة على سفوح الجبال بعد ان
تخلت عنها يد الانسان العاملة ، فالاعمال المتلفة باحياء الاراضي الموات تتقدم باطراد مستمر .
وعلى هذا هبطت في فرنسا مساحة الاراضي البور بين ١٨٨٢ - ١٩٠٨ من ٦٤٢٠٠٠٠٠ الى
٢٤٨٠٠٠٠٠ هكتار . وحلت الاراضي الحرجية محل الاراضي السبخية في محافظة غسكونيا .
كما ان اعمال تجفيف الاراضي تسير على قدم وساق في مقاطعات سولوني والبران والدومب ،
خلال الامبراطورية الثانية التي قامت ببناء سدود في مقاطعة كامارغ ، وبذلت جهوداً جبارة
باستمرار لاستصلاح الاراضي المنخفضة عن سطح البحر (Polders) ، واستخلاص بطون المناجم
من رواسب المياه وابتزاز الرمال من هذه الاراضي الممتدة من مقاطعة با دي كاليه الى مشارف
سكندينايفيا . ومثل هذه الجهود تخصص لمقاطعة كمباين ، ولهذه السهول المنبسطة التي تمتد على
شواطئ هولندا والمانيا ، وارضى الجوتلاند والسويد السيئة التصريف . وانفوس تستعمل نفاياتها
وقامتها المنزلية لتسميد السبائخ الواقعة على مقربة منها ، فتعطي مواسم طيبة من الخضراوات
والبقول ، ومواسم طيبة متأخرة القطوف من البطاطا ، واعمال تصريف المياه ، واقامة السدود
والحواجز المائية تفتح لزراعة الحبوب ، مساحات واسعة من اراضي الجهر التي كانت معرضة
من قبل لطفيان المياه . امسا في ايطاليا الشمالية ، فقد استعملت اقية الري على نطاق واسع
بحيث استطاعت قناة كافور ان تروي ٢٠٠٠٠٠٠ هكتار من الاراضي الزراعية ، كما انه وضع

فيها برعاً واسع النطاق لاستصلاح الاراضي شغل كل انحاء الجزيرة الايطالية. ومشكلة التشجير هي موضوع اهتمام الجميع منذ ان تبينوا الاخطار التي تهدد التربة من جراء تعرية الارض من الشجر وتعرضها للانجراف مع المياه المتدفقة شتاء من سفوح الجبال نحو البحر .

كذلك بذلت عناية كبيرة لتحسين قدرة التربة على العطاء والانتاج . فالعهد الذهبي الذي عولوا فيه على سواد الفوانو والذي يقع بين ١٨٥٠-١٨٨٠ ولى وأدبر لتحل محله مخضبات جديدة طلعت علينا بها الكيمياء الحديثة جاءت مسعفاً كبيراً للسواد الحيواني . واستعمال السماد الكيماوي الذي نجح نجاحاً باهراً في هذه الناحية ، كان فعلاً بطيئاً في فواح اخرى ، مما اتيح للفلاح مردوداً اكبر وادى بالتالي الى نتائج اطيبت في المحصول . وللنهوض بتربية الماشية ، عن طريق الانتخاب الطبيعي والتأصيل ، واستيلاء عروق جديدة ، ومكافحة الوبئة والجوائح الحيوانية فقد نصح خبراء الزراعة بالتحويل على تسميد الارض بالسواد الطبيعي ، واعتماد انتخاب افضل في الحيوانات الداجنة ، وتأصيل في النبات ، وكلها ذرائع ووسائل علمية ادت الى محصول اطيبت في البطاطا مثلاً اذ اعطى الهكتار الواحد في المانيا ٢٠ طنناً عام ١٩٠٠ ، لقاء سمعة اطنان ونصف في فرنسا ، واعطى محصول الشمندر ١١٪ من المادة السكرية بدلاً من ٧٪ . كذلك بذلت عناية اكبر في عمليات التطعيم والدرج ، كما اشتدت اعمال المكافحة ضد الامراض الطفيلية في النباتات الازهرية ، وهكذا تغلبت زراعة الكرمة على مرض الازماد ومرض العفن الفطري وعلى الفيلو كسيرا .

فكيف السبيل بعد لتطبيق هذه الاكتشافات وفقاً للبيئات الجغرافية ؟ فاذا ما اقتصرنا على المساحة ، فالمسائل التقليدية لا تزال هي المسيطرة حتى الآن . فالطريقة الزراعية القديمة المتعددة المزروعات ، وهي الطريقة التي تليها الفريزة والحكمة ، وذات المردود الضعيف ، تصمد في كل مكان وتقاوم تيار التجديد . فهي ثلاثم تماماً نشاط صفار الملاكين ، وهذا الفلاح الذي لا ارض له ولا املاك ، لا يقبل التخلي راضياً عن العادات والاعراف المعمول بها في مجتمعه والممول عليها في بيئته . ففي الجنوب الاوروبي ، يتألف معظم الريف مما يعرف عند ر Saltus اي من اراضي للرعي تجاور ما يعرف عند ر بالاراضي الصالحة للزراعة التي درجوا في استثمارها وفقاً لنظام التحويل الزراعي . كم هو كبير عدد البلدان التي تمتد حلقاتها من البلدان السكندنافية حتى سلسلة جبال شيارا مورينا في اسبانيا وفي البلقان ، اصبحت عملية الاحتساب عند ر من ذكريات الماضي البعيد .

والعلاقات في الحياة والانتعاش الذي تتخذ في المجتمع هي التي تعمل على تعديل ذهنية ابن الريف . والعلامتان الفارقتان اللتان لا تدعان مجالاً للشك هما التخلي عن نظام الدورة الزراعية وفقاً لما درجوا عليه منذ القديم ، والعزوف عن تعاطي زراعة الحبوب وتربية الماشية . ففي هذا انحاء للارض من جهة يوجب الركون الى تسميدها ، ومن جهة ثانية ضمان لمجراح التخصص وترسيخ لاصول الزراعة الاحادية ، مع العلم ان نجاح تربية الماشية يستدعي استبدال عملية

الـ *Emblavure* بالمشب وزراعة النباتات العلفية والبطاطا التي تحل بشكل اجدي وانفع محل الارض البور . فبعد الفصل بينها، تختار كل من زراعة الحبوب وتربية الماشية، الاراضي التي تلائم بالاكثر، كل واحد منها . وتربح الواحدة منها ، من حيث الانتاج والمحصول، مسا تكون خسرتة من المساحة ، بينما يسجل الثاني ازدهارا اكبر . وهذا الانفصال الارضي يعود بالخير على زراعة الكرمة والحداقن وبساتين الخضرة . غير ان الفصل يستدعي تبادل الخدمات ، والاخذ بنظام يرمي لتقديم الانتاج الزراعي الذي له قيمة اكبر من الوجهة التجارية . فالاكتفاء الذاتي يعني ان تنتج البلاد ليس كل ما تحتاج اليه ، بل القدرة على تأمين ما لا تنتجه البلاد بسعر منخفض . فكل بلد يحدد نوع الاختصاص الصالح له حسب ما يحدده علماء الاقتصاد الحر . فبعد ان عزفت انكلترا عن تأمين حاجتها من الحبوب محليا لتحصر جل نشاطها الزراعي بتربية الماشية ، فقد كانت اول بلاد تقوم بمثل هذا الاختيار ، وهو تصرف لم يلبث ان حذا حذوه كل من هولندا وسكندنيافيا وسويسرا ، والدول الاخرى التي لا تتوفر لها امكانيات اكبر كفرنسا مثلا تركت لمختلف مقاطعاتها ومافظاتها ان تختار على ضوء مصلحتها وحاجتها ، نوع النشاط الزراعي الذي يلائم طبيعة تربتها . فالكرمة تنوعت نصوبها ، وتلونت هروقها في الجنوب ، حيث جاءت التجربة تثبت بانه من المقاطعات الواقعة على الساحل الغربي ، لا يمكن ان يعول عليها لتأمين البواكير في انتاج الثمار . والسهول الغرينية اثبتت صلاحيتها لانتاج الحنطة والشمندر فنشطت ، في المقاطعات الجبلية ، تربية الماشية ، وهو نشاط تقاسمه مع السهول الرطبة . فالخط الحديددي والملاحه يسهلان نقل المحاصيل التي تغطي البلاد مردوداً طيباً . فالمدينة هي التي تنظم وتقني حركة المبادلات . فهي تشتري لتبيع ، وتمد الريف بالآليات الزراعية وتقدم له كل ما لا يستطيع توفيره او صنعه .

ترتبط الثورة الزراعية ارتباطاً وثيقاً بتقلبات طويلة الامد،
بميدة المدى. فقد عقد الريف سنة ١٨٥٠ ، آمالاً طيبة على
المواسم ونشطت بالتالي الحركة في المدن كما زاد فيها النشاط

التطور الزراعي يتوالى بين مواسم
خصبة وسنون عجفاء

التجاري . فالاستهلاك، ازداد ووسائل النقل الجديدة سهلت عملية مد الاسواق المحلية بحاجاتها الاولية . وقد صعب ارتفاع الانتاج الزراعي، ارتفاع عام في الاسعار^(١). ومع ازدياد انتاج الارض ارتفعت بالتالي قيمتها التأجيرية . ففي فرنسا ارتفعت قيمة الاملاك بين ١٨٥١ - ١٨٧٩ ، من ٦٠ مليار فرنك الى ٩٠ ملياراً، كما ان ربع الارض ارتفع في المدة ذاتها ، من ٧٠ - ٨٠٪ . وفي بوسانيا تضاعفت قيمة الغدان الواحد بين ١٨٥٧ - ١٨٧٠ كما ارتفعت اربعة اضعاف في بروسيا الشرقية . وتحسنت جداً الأساليب الزراعية ، واستطاع مزارعون كثيرون ان يؤمنوا وفرأ طيباً لهم . فنحن في صميم هذه الحقبة التي تواجه فيها بلدان اوروبا الوسطى زوال النظام السيامي

(١) راجع الكشف البياني ص ٨٩

هندما راح العهد القيصري يلغي عبودية الارض . وحركة لزوح طبقة الفلاحين التي اخذت اذ ذلك بالاستعداد ، اثارت شيئاً من الارتياح ، بين العديد من الاسر . وهكذا ساء قسم كبير من الريف في شبكة المبادلات والمقايضات ، مع العلم ان منافسة الدول التي طلعت حديثاً لم تكن بعد شعروا بها بصورة ملحوظة .

وقد اكفر الجو بعد عام ١٨٧٥ . فازدادت الصادرات الاميركية ، والروسية ، كما ان المنافسة الدولية احدثت هبوطاً في الاسعار : الا ان البلدان التي كانت تنتج كثيراً في سبيل التصدير تضررت بنسبة البلدان الاخرى التي تسير على النهج القديم . وقد انخفض مدخول الارض في فرنسا ٣٠٪ في هذه الفترة الممتدة بين ١٨٧٥ - ١٨٩٥ ، و ٦٠ - ٧٠٪ في هذه المناطق التي تعمل على زراعة الكرم التي فتكت بها آفة الفيوكسيرا . وقيمة الارض نفسها هبطت من ٥٠ مليارا الى ٣٠ مليارا في بريطانيا العظمى ، بين ١٨٧٥ - ١٩٠٠ ، في هذا الوقت بالذات الذي ارتفعت فيه قيمة بيوت السكن من ٣٥ - ٦٥٪ .

واستمر التطور السابق في سيره الصاعد وزاد بنسبة الميل الى الهبوط . ونشبت حركة الهجرة في الريف والتزوح منه ، وهي حركة لم تقتصر على ايرلندا وبريطانيا العظمى ، بل تمدتها الى بلدان اوروبا الوسطى واقطار اوروبا الجنوبية والشرقية على السواء . فالزروعات التقليدية ، وفي الدرجة الاولى منها الحبوب ، سجلت خسائر كبيرة اضطر معها المزارعون ، اكثر مما فعلوا في الماضي ، الى تحسين طرق استئثار الارض باستخدامهم وسائل وادوات جديدة للحصول على انتاج اكبر : وهكذا انصرفت العناية للزروعات التي تؤمن مردوداً اكبر : كمية اصغر من القمح ومقداراً اكبر من اللحم وكمية اكبر من الهكتولترات في الهكتار الواحد . وتم الفصل تماماً ، في هذه الحقبة بين الحبوب وتربية الماشية . فقد استحوالت مساحة ١٦٠٠٠٠ كيلومتراً مربعاً من الاراضي الزراعية في انكلترا الى مراعي . فقبل عام ١٨٥٠ ، كانت بلدان اسكندينايفيا تبيع مواسمها من الحبوب لتشتري اللحوم . ولكن منذ عام ١٨٩٢ لم تعد تنتج سوى نصف ما كانت تنتجه من القمح ، وثلاثة محصولها من الشوفان ، الا انها ضاعفت عدد الماشية فيها ، واخذت تصدر الزبدة . وقام الدانمارك بثورة جزرية في اقتصاده الزراعي ، وارتفع الى البلدان الطليمة في تربية الماشية . وسويسرا اتجهت هي الاخرى نحو مصير زاهر للراعي الجبلية . وايرلندا نفسها حققت تقدماً محسوساً في هذا المضمار بعد ان تخلت عن زراعة الحبوب لتشجيع المروج الخضراء والمراعي للماشية وبيعها من الانكليز . وتخصصت هولندا بانتاج المواد الغذائية ذات القيمة الغذائية كالحبوب وانواع الجبن والزبدة والزهور . فالحدائق والبساتين تقام بسرعة في الجنوب بينما تهدد الكرمه جوائح طارئة . فبلدان اوروبا الوسطى وغربها هي التي اخذت ، على الاجمال ، بأسباب حركة التكييف والتنسيب هذه ، بينما لا تزال الاقطار الشرقية منها في طور زراعة الحبوب .

وهذا لا يعني قط ان الجهود المبذولة لتأمين حركة التطور ودفعة الى الامام كانت كافية .

فلازمة تصيب بالاحرى هذه المناطق التي لم يطرأ تبدل يذكر على نمط العيش فيها . وبفضل هذه الغريزة التي رُكبت فيها بالفطرة ، اخذت الطبقة العاملة في الزراعة تلتمس من الدولة حمايتها . فسياسة الحماية الجمركية ليست بعلاج بجد ذاتها . فهي ليست باكثر من مسمف آلي - اذ تقسح امامهم الامل بتحسين الاسعار . ومع ان هذا التدبير له كل مساويء المخدر الوقي ، فلم يكن بوسع الحكومات الا النزول عنده . ومن جهة ثانية ، فقد اخذ قسم من سكان الريف بمبدأ تأليف التعاونيات ، كما اخذ قسم آخر - ولا سيما هذه البروليتاريا العاملة في الحقل ، بمبدأ النقابية .

الملكية الضخمة : امكاناتها ومساوئها
ليس بمستبعد قط ان ملاكاً من اصحاب الاقطان الكبيرة تتوفر له الدراية الكافية ولديه الوسائل الكافية ، من راس المال واليد العاملة الرخيصة ، ان يأتي في طلبه حركة التجدد هذه ، فيأخذ ، كما حدث لآل بولزني في ايطاليا ، باستصلاح جانب من السهل الالماني وسهل المجر . والمألوف عموماً هو ان يؤجر ارضه حصصاً لقاء نسبة من ريع الارض وغلتها . وقد ينزل به هبوط اسعار الارض ، كما حدث في انكلترا مثلاً ، ضربة مؤلمة ، كما ان الاجراءات الرسمية والتدابير التي عرفت ، فيها باسم (قانون الاراضي الزراعية) ، وطدت جانب المزارعين والمتمهدين الزراعيين الذين تمتعوا باحكام قانون (الايجار) ، بحيث ان راس المال المخصص للاستثمار ينفصل عن الرأسمال العقاري . في سنة ١٨٩٠ ، كان المتمهدون الزراعيون يستثمرون ٢٨ مليون فدان ، في الوقت الذي كان فيه اصحاب الاقطان يستثمرون بانفسهم خمسة ملايين فدان لا غير . فالصورة المرتسمة في الازدهان تصور لنا طبقة بورجوازية تنعم في مجبوحه وارتستوقراطية لا تزال تحتفظ باملاك وعقارات ضخمة جداً ، فالاراضي المرجية تعدد ٦ ملايين هكتار ، درت عليها ريعاً بلغ ٣٥٠ مليون ، وفي بعض الاملاك المتوسطة الحجم بلغ الريع نحو نصف مليون . وفي ايرلندا ، وضعت الازمة البلاد امام مجاعة وهو وضع اوجب على مجلس العموم البريطاني ، عام ١٨٧٠ ، سن قانون حول المستأجر حق المساومة حول قيمة الايجار دون ان يربطه ذلك بشيء . صحيح ان الفقر لا يزال ضارباً اطنابه ، الا ان تيار المهاجرة وحركة الاصلاح التي بوشرها امران بشرا بطلوع عهد افضل طل على المستأجر الصغير الذي توصل ، شيئاً فشيئاً ، الى ان يتحرر من الرسوم التي رزح تحتها في الماضي . ووقع في ولاية غروننغ تطور شبيه بالتطور الذي وقع في انكلترا استحلال معه المستأجر مشاركاً في الملكية . وهذا النظام هو المعمول به في مناطق كثيرة في شمالي المانيا وشرقيها . والمطالب الزراعية التي كان على اولي الامر في الاريخ ان يعنوا بها وان يهتموا لها نمت عن المشكلات التي تحفيها ما يعرف عندهم .
Junkertum .

اما في النمسا وايطاليا وشبه الجزيرة الايبيرية ، فالاملاك العقارية الضخمة كانت تسبب في اطالة البؤس والاضطرابات في البلاد . فالكنايس والاديار وابناء الارستوقراطية المملانية لا

يزالون يتمتعون بسيطرة مقيته ، منفرة ، مرزحة قلما تتيح لهذه الطبقة المتخلفة من الفلاحين والمزارعين فرصة لتحسين اوضاع معيشتهم .

ففي هنغاريا ١٠ ملايين هكتار من الاراضي الزراعية ، الحصة هي في قبضة ٢٣٠٠٠ كبار الملاكين . بينما ١٤٢٤٠٠٠٠ هكتار يتقاسمها ١٤٢٧٩٠٠٠ من صغار الملاكين . فقد حاز احد امراء استرلابزي وحده ٢٣١٤٠٠٠ هكتار كما حاز احد امراء آل فستتيك ٨٨٤٠٠٠ هكتار ؛ هنا زرائب واكواخ مبنية من قوالب اللسبن ، مغطاة بالقصب ، وهناك صروح وقصور باذخة ، فخمة يقطنها عظماء البلاد . وفي مقاطعة بوكوفينا نرى ٤٧٪ من مجموع مساحة الارض يملكها ٢٥٧ شخصاً وان ٢٦٪ من هذه المساحة موزعة بين ١٩١٠٠٠٠ ، بينما في ترانسلفانيا ٣٦٢ شخصاً يملكون ١٨ بالمئة في حين يملك ٤٠٤٢٠٠٠ شخصاً ٢٩٤٦ بالمائة ويؤلف المربعون في ايطاليا مع الممال المياومين ، السواد الاكبر من الشعب الايطالي . فايطاليا لا تعد من اصحاب الاملاك سوى ٤٠٠٠٠٠٠ بينما سويسرا تعد ٣٠٠٠٤٠٠٠ من الملاكين . فصاحب الارض يؤجر أرضه عادة ، حصصاً صغيرة بموجب صك ايجار ينص على اقتسام الارباح والحسارة *Mezzadria* او *Boaria* ، ما لم يلزمها الى متمد عام يستأجر لها اليد العاملة الرخيصة . ففي مقاطعة توسكانا ٩٣٧٪ من الاراضي المستثمرة ، لا تزيد مساحة القطعة الواحد عن ١٠ هكتارات ، وهي تمثل ١٩ بالمائة من مجموع الاراضي الزراعية في البلاد ؛ بينما ٢١٤٦ بالمائة يملكها ٤١٠٠ بالمائة من الملاكين ، و ٣٢٤٤ بالمائة يملكها ٠٢ بالمائة . والصورة تكاد تكون ماثلة في كل من اسبانيا والبرتغال . فالمقارنات التي تبلغ مساحة الواحد منها ١٠٠٠ هكتار توازي من ٥٠ - ٧٠ بالمائة من مساحة مقاطعات اسبانيا الجنوبية (أي بمعدل ٣٠٠٠ ٢٤٨١ شخصاً بينها يصيب معظم المزارعين ٣ هكتارات للشخص الواحد . فالقانون الاسباني الذي صدر عام ١٨٨٩ يؤثر التعامل مع الملتزم الواحد بحيث يسهل الدفاع عن مصالحه من جراء هبوط الاسعار مثلاً ، والقوانين التي تسهل مبدئياً حق التملك بقيت بالاحرى حبراً على ورق . وقد نجم عن هذا كله ، كما حدث في ايطاليا ، اضطرابات مزمنة تسببت في حركة مهاجرة واسعة النطاق .

حطمت الفردية في النظام الزراعي ليس المجتمع القروي

تطور الملكية الصغيرة ومشكلاتها
والاستعمار المباشر

فحسب بل ايضاً هذا الطوق الذي وضعه حول عنق المستثمر
اصحاب المقارنات الضخمة . من الامور المرعية الاشارة

بحسنات الملكية الصغيرة التي تكسب اكثر من استثمارها الارض مباشرة . الا ان صغر القطعة الزراعية وتشتتها قد يولدان شيئاً من الضالة في المواسم يجعل نظام الاستثمار مهدداً بخطور الزوال . ان استملاك الارض من قبل من يستثمرها بقي عرضة للطوارئ اذ لم تكن المراحل التي عرفها هذا النظام متشابهة بين بلد وآخر . فالاجار الدائم او صيغة شريك في الملك كثيراً ما افضيا الى وضع قد لا يختلف كثيراً عن الاستملاك . ففي سكندنافيا والدانمارك حيث عقب عملية توزيع الاملاك السيادية عملية اخرى قامت على تجميع هذه القطع عن طريق التسوية او المبادلة ،

نال الفلاحون بموجبها القدر الكافي من الاراضي المنسية . الا ان هذه الاملاك الصغيرة الحجم او المساحة اخذت تضييق وتصغر لحاقاً ، عن طريق الارث والتوزيع المتعاقب بحيث اصبح وضعها وضع اراضٍ اشتدت حولها رغبة الطامعين بها . فقد رأينا كيف عرف صغار المستثمرين في انكلترا الذين لا تزيد مساحة ارض الواحد منهم عن ٢٠ إيكرا (٨ هكتارات) بالاكثر ان يتفادوا الطوق الذي حاول فرضه عليهم النظام الاقتصادي المعروف بنظام الامتلاكية واصحاب المزارع الضخمة ، يملكون نصف الوحدات الزراعية اي ما لا يزيد على ٦ بالمائة من مساحة الاراضي الزراعية . فاذا ما اعتمدنا اساسا الاصلاح الفرنسي لعام ١٨٨٢ ، نرى ان المزارعين كبارهم ومتوسطهم يملكون معاً ثلاثة ارباع مساحة الاراضي الزراعية ، بينما ملايين من صغار الفلاحين يملكون الربع لا غير . وهكذا يشتط بعيداً من يقول او يعتقد ان ارض فرنسا الزراعية هي بتصرف صغار الفلاحين ، بل الاصح والاقر ب الى الصواب القول في انها تتركز في غالبيتها الكبرى ، الملكية المتوسطة ، اذ ما وضعنا في هذا الصف المزارع التي يتراوح حجمها بين ١٠ - ٥٠ هكتاراً . فعن اصل ٥ ٦٧٢ ٠٠٠ مزارع ، هنالك ٢ ١٧٦ ٠٠٠ يملك الواحد منهم اقل من هكتار من الاراضي الزراعية . ولما كان عدد القطع الزراعية في البلاد يبلغ ١٢٥ ٢١٤ ٠٠٠ قطعة ، فالمعدل الوسط للقطعة الواحدة يتألف من ٣٩ أراً . ومثل هذا التوزيع والتشتت انما يعني ان عدداً كبيراً من المزارعين كان يعاني الضنك الشديد ويضطر بالتالي للقيام بعمل اضافي .

الفنى والفقر في قلب طبقة الفلاحين ليس من طبقة ريفية اليوم كما في الماضي بل طبقات ريفية تتباين فيما بينها من حيث الوضع العام ونمط العيش .

فاذا ما اقصرتنا الكلام هنا على فرنسا ، مثلاً ، هل يصح لنا ان نأخذ بمسألة الاعتبار بعض التأكيدات العامة ؟ ففي عام ١٨٧٠ ، يؤكد بيغوي ان اي رعيوية عادية كانت الف مرة اقرب الى رعيوية من القرن الخامس عشر او من القرن الخامس او الثامن من اي رعيوية في يومنا هذا . ولنصنع الى ما يرويه لنا الاب « تيانون » بعد ان رسم اميل غيومين لنا صورة قاتمة عن حياة النكد التي يجيهاها الرابع ، وذلك في كتابه الموسوم : « حياة أحد البسطاء » ، فيقول : « قوتنا خبز الشوفان المجرش ، لونه لون السخام ، يجرش تحت الاسنان كأنه ممزوج برمل خشن من هذه الرمال التي تسقيها السواقي . وهم يؤكدون لنا ان ترك النخالة في الطحين تزيد من خاصيته الغذائية . اما الحساء او الشورباء فهو اللون والصف الرئيسي : شوربا البصل صباحاً وفي المساء ، اما عند الظهيرة فشوربا البطاطا مع الفاصوليا واليقطين مع لحسة من الزبدة . اما شحم الخنزير ، فلون تادر جداً و صنف يترك لايام الاعياد المدردة .

« ويضاف الى هذه الالوان احياناً بعض المالحالي التي يصعب مضغها بحيث تفرغ فيها الاسنان ولا تستطيع الخلاص منها بسهولة ، و بطاطا مشوية تحت الرماد ، و فاصوليا مسلوقة يضاف اليها

كمية قليلة من الحليب يكاد لا يتغير لها معه لون . ومع هذا أفلا يجوز لنا ان نجاري جوريس في تساوله : « كيف يتدبر هذا الفلاح امره من موسم الى آخره في عمل هو هو ، واسمار محاصيله دوماً في هبوط ، وهذه الديمومة في عمل روتيني ، وتدني سمر قمحه وسمر ماشيته ، وتبيذه ومحصوله من القنب ، ومن الزبيب والحليب ، وأمام هذا الجفاف ، والقحط ، وهذه الضربات المتتالية ، لا يستسلم لحكم القضاء والقدر ، استسلامه امام هبوط البرد وهبوب العاصفة واشتداد الجفاف ، ومع ذلك فهو يشعر ببعض التمزية « لأول مرة في حياته لمشاركته حياة المجتمع » . علينا ان نقر ونعترف ، مع ذلك ان الفلاح ، كان غذاؤه على وجه العموم ، احسن مما قرأنا له من وصف . فخبزه اكثر بياضاً . فقد ازدادت كمية البطاطا التي يتناولها كما ازدادت كمية النبيذ التي يشربها ، او الجمعة او شراب التفاح الذي يشربه حسب ظروف المكان . فهو الآن يتناول القهوة ويستهلك السكر ويأكل اللحم اقله مرة في الاسبوع وفي ايام الاعياد . الغذاء عنده اوفر حجماً وكماً منه نوعاً وصنفاً . وشبح الجماعة تضاعلت اسباب ظهوره وازدحام سكنه تحسنت قليلاً . فاذا ما قلت رؤية العرفة الواحدة سكناً للعائلة الواحدة بكاملها ، فلم يكن ، مع ذلك من النادر قط ، ان نرى اهل الدار يتقاسمون مع ماشيتهم بيتاً واحداً هو مسكن واسطبل معاً يفصل بينها حاجز رقيق . وشيئاً قشياً ، فقد حل القرميد محل القش على السقف ، وكابوس الحريق لم يمد المفزعة التي تزرع كابوساً على صدر العائلة . وقبل ظهور الكهرباء لم يكن التنوير شيئاً عملياً ومأموناً والعتمة كانت دوماً تسير جنباً الى جنب مع قلة التهوية . أما الفرش او الاثاث فغاية في البساطة ، مع ان الحزانة او الدولاب هي دائماً هنالك من طراز ما . والكرسي حلت محل الاسكفة ، كما ان الناس ازدادوا اقبالا على المقصف او صوان المائدة . فاللبسة الداخلية والاسرة اشياء اخذوا يهتمون لها والكل يراعي فيها الزي المسيطر في المنطقة على الاذواق الا ان الفلاح اخذ يتبرم من شيوع هندام ابن المدينة .

فالوصف الذي تركه لنا زولا عن فلاح قليل الكلام ، عفيف الطبع ، متأفف من نibir الضرائب والقرعة العسكرية قد يبدو قائماً اذا ما أطلقناه على هذه الفترة الواقعة بين ١٨٦٠ - ١٨٧٠ ، بينما يبدو مغالياً او مبالغاً فيه عندما يصورونه لا يلين ولا يستجيب للتطور ولا يأخذ بأسبابه ، يحمل في قلبه للارض التي هي بمنائته تعلقاً شديداً ، لين العريكة امام ممثل السلطة ، وذا طبع مستقل يجعل منه من مؤيدي السلطة المطلقة دون ان يدري . واذا كان عليه ان يخرج طوعاً واختياراً من عزلته وان ينزل للمدينة لبيئاع منها ما هو بحاجة اليه ، ساعده ذلك على اثارة الفضول فيه ، وراح يشمر ، ولو بصورة غامضة ، بالحاجة للتحوط ضد طوارئ الحياة^(١) .

(١) ما هي بالفعل نسبة ارتفاع الاجر لدى سكان الريف ؟ فالعامل في الزراعة كان يقبض في اواخر القرن الثامن عشر في انكلترا تسعة فرنكات في الاسبوع . و ١٢ فرنكاً حوالي ١٨٥٠ . و ١٥ فرنكاً حوالي ١٨٥٠ .

فبينما يرى البعض ان العامل في الارض هو من هذا الفريق الذي يسذهب فريسة القوي ، ويرى غيرهم بأنه حليف قوي في وجه الديماغوجيين، فهو ينظر نظرة تقدير للنظام التمثيلي ويؤمن بسحر ورقة الاقتراع التي يطرحها في صندوق الاقتراع. فاللمبة السياسية لم يمد في مكنتها تجامله قط .

١٨٨٠ . اما في فرنسا فكانت اجرته في السنة ٤٠٠ فرنك عام ١٨٤٠ و ٨٠٠ فرنك عام ١٨٨٠ . اما اجر خادم في مزرعة فكانت اقل اجرة العامل اليومي غير المكون او المكفى . فالاجر في الريف دون مسا هو عليه في المدينة ، ووصع المرأة في كلا الحالين مجحف جداً بحلقها ، اذ كان معدل الاجر الذي يدفع للعامل في الحقل ، عام ١٨٨٢ ، هو ٢٠٢٢ فرنك للرجال و ١٠٤٢ فرنك للنساء العاملات في الحقل ، بينما يدفع للعامل ٣٠٥٨ فرنكات وللعاملة ١٠٧٧ فرنك في المدينة . ومع ذلك فكانت القمح كان يساوي ثمنه معدل ١٦٠ ساعة عمل للعامل عام ١٨٤٠ ، بينما لم يكن يكلفه سوى ٧٠ ساعة عمل ، عام ١٩٠٠ .

الفصل الرابع

المدينة المنحرة بين القوى المحافظة والاشتراكية

« لا بد للحرية من العقل »
ادمون بينو - « مساوي، التربية والتعليم العام »
كاديس ١٨٦٧

الدول القومية وعبادة القومية
اوروبا في القرن التاسع عشر هي مجموعة من الدول تنهض كلها على اساس قومي وطني ، ولم يبق فيها سوى وضع جغرافي واحد اساسه اسرة وراثية تتعاقب على الحكم هي اسرة آل هابسبورغ ، التزمت لها سياسة قامت على التنازلات إرضاء للقوميات المختلفة التي تألفت منها . فأل رومانوف يتمدون بالاحرى الشعور القومي الروسي لتدعيم امبراطوريتهم بينما تنمي تركيا عجزها عن إضرام شعلة الوطنية الخافتة في البلاد . فقد تبدى لاحرار البورجوازيين ان الأمة هي مشاركة شعور ومصالح متبادلة واحترام حقوق الانسان والمواطن . ويقابل الانتساب الحر الى الأمة رابطة الدم الواحد والتفكير الواحد الذي يوجب على افراد المجتمع الواحد ان يعيشوا معاً . إن اقتطاع الالزاس وقسم من اللورين ، عام ١٨٧١ دليل كاف على بطلان الاحتجاج بالحق التاريخي دون ان يثير ذلك عاصفة من النقد والجدل .

كل شيء يدعو لبعث الشعور القومي بين افراد الشعب الواحد: المدرسة والتجنيد الاجباري وخدمة العلم وتطور طبيعة العلاقات التي تشد اجزاء الوطن الواحد بعضها الى بعض ، ووحدة النمط في العيش والنهج المشترك في الحياة . فمعظمة الوطن وجماله هما من هذه الموضوعات التي تهتم الشعراء وتهتم رجال الفن . فالقصص التاريخي الوطني ينشط ويروح الشعر يتغنى بهذه الاججاد والذكريات الوطنية المشتركة . والموسيقى تستاهم انغافها من هذا الادب الشعبي الذي

يلهب القلوب والمقول معاً ، ويصبح التاريخ معينا للتوكيد ان الماضي هسيء الحاضر ويبرز الايمان بطلوع مستقبل زاهر امام الامة . والروح القومية بفضل ما لها من شعبية تعمل على قتل الروح الاوروبية لما لها من طابع ارسوقراطي وبورجوازي . فهي اقل اخذاً بأسباب العقل ، وألصق بالشعور والماطفة .

الاقليات وحقوقها ضمن الامة
ذاب في هيكل الأمة ما فيها من فئات خاصة وطبقات ومجتمعات دينية أو مهنية . فالتسليم العام بالوضع القائم ليس سوى شيء فكري أو عقلي . فقانون الدولة اساسه ارادة الاكثرية . وقد يقوم احياناً وضع خاص نجم عن ضغط أو التزام ما .

والاقليات الدينية هي على الاجمال أكثر الفئات الخاصة رعاية واحتراماً . فمن مبدأ التساهل الذي طلع به القرن الثامن عشر ، طلع مبدأ الدولة العلمانية اي الحيدادية . فالروح الليبرالية بالاضافة الى عدم اللامبالاة الدينية من شأنها ان تجعل حياة الكاثوليك اسهل وأيسر في هذه البلاد التي تتألف اكثرية السكان فيها من البروتستانت ، والعكس بالعكس . ومع ذلك فالبرلمان الانكليزي لم يقر قانون فصل الدولة عن الكنيسة الا في عام ١٨٦٩ . وبفضل هذا القانون تم تحرير الايرلنديين الكاثوليك من تابعية الكنيسة الانكليكانية . وسياسة الفصل بين الكنيسة والدولة على مثال ما حققته اميركا لم تنتصر في فرنسا إلا في عام ١٩٠٥ .

وتحرير اليهود حركة لها مغزاها ومدلولها هي الاخرى . فقد جاءت نتيجة ، حتمية لهذا التطور الذي خضعت له فكرة المساواة ، في العالم ، وتقهقر روح العصبية الدينية ، كما ان هذه الحركة قابلت ، ارتفاع شأن الرأسمالية . فقد شهد عام ١٨٤٨ تحرير القوميات في اوروبا الوسطى ، وفي هذا الاتجاه سارت ايضاً كل من اسبانيا والبرتغال ، بينما حركة الاضطهاد الديني نشطت في الشرق من القارة الاوروبية . وحركة معاداة اليهودية السقي تعذنها هذه الاقليات القوية النفوذ في كل من اوروبا الغربية والوسطى ، وهذه الملايين من هؤلاء البؤساء التمسكين في اوروبا الوسطى ، لم ينجبُ ثارها في اي مكان . هنا دليل قوي على رسوخ بعض الاوهام في عقول الناس بالرغم من التطور الذي قطعه التحرر الفكري في العالم .

فقد عجزت لندن عن التوفيق بين وحدة امبراطوريتها وبين النزول عند مطالب الايرلنديين الحقة . فمن هذه المفارقات الصارخة ، مقاومة الشعب الايرلندي للضغط البريطاني اصبح رمزاً للتحرر بينما المضطهد المتعسف هو هذا البريطاني الذي يضرب المثل باحترامه للشخصية الانسانية . والقضية البولونية تشبه من وجوه عدة ، القضية الايرلندية : صراع دولة مستعبدة في سبيل تحرير ارضها ، وتأمين حريتها السياسية والدينية وتحقيق استقلالها السيامي ، يقابلها من الجانب الآخر مسائل تتعلق بأمن الدولة المسيطرة لتبرر موقفها المتصلب الذي لا ينهض على دليل تاريخي بل هو حجة القوي التي عرفوا ان يدعموه في الوقت اللازم ، والرايخ الذي اقتطع الازناس واللورين ، والذي رفض ان يعيد الى الداغمارك مقاطعة الشلسويغ ، والامبراطور الملك الذي راح من فيينا وبودابست

يستخدم القومية الألمانية والجرية لكبح جماح الاقليات الواقعة تحت سيطرته ، والقيصر الذي يرغب في لجم المقاطعات البلط ، والفنلنديين والبولونيين ، يمتنع بسلامة الدولة وامنها ، وهو عذر سهل يبرر كل قمع . فالتناقض يبرز بين حق الاكثورية ، وبين سوء استعمالها لهذا الحق . فالدولة التي تهب عليها روح الحرية تبدو عاجزة . فسويسرا وحدها وجدت الحل المرجحي من نظام الاقضية الذي ارتضته نهجاً سوياً لها .

ولهذه الاسباب التي ذكرنا لم ينتشر النظام الجمهوري . فقد شابهت
الابقاء على الوظيفة الملكية
وممارسة الارستوقراطيات
جمهورية الدوقات ، في فرنسا ، بصورة مدهشة ملكية برلمانية
والملكية في بريطانيا تستعيد قسماً من شعبيتها . وعلى شاكلة بلجيكا
ما كاد معظم الدول البلغانية تفوز باستقلالها حتى تولي رئاستها ملوك جاؤوا من الاسر المالكة
في اوروبا . وفي ايطاليا تم حركة التجمع والالتفاف حول الاسرة المالكة في السافوي ، كما تم
في المانيا حول اسرة هوهنزلرن . وما كادت النرويج تنفصل عن السويد حتى اقامت فيها
النظام الملكي .

فعهد المشاحنات السلالية ولي وأدبر . فالملوك الذين تشدهم بعضاً الى بعض وشائج وطيدة من
التزاوج والمصاهرة ، املكوا بحق الهي ، كما هي الحال في كل من بروسيا والنمسا ، او ملكوا بدون
ان يحكموا ، كما هي الحال في كل من لندن وبروكسل ، يؤلفون من بينهم عشيرة يسودها
التضامن والتعاقد ، وهي صفات تلمب دوراً رئيسياً في العلاقات الدولية .

والى كنف النظام الملكي تلجأ الكنائس التي تتمتع بامتيازات خاصة والارستوقراطيات
العلمانية . فالكاثوليكية والانكليكانية واللوثرية تحترم كالأرثوذكسية ، التقاليد التي تقول بعضد
العرش لليكل . وهذه البلاطات الملكية ، سواء اتسمت الحياة فيها بالبذخ او بالبساطة
تستمر حية ناشطة . فبعد ان وقفت في وجه تجاوزات السلطة الملكية ، راحت طبقات النبلاء
تطالب بقيام مؤسسة تقيها شر الديموقراطيات الساحلة . ويكفي ان نلقي نظرة عابرة الى هذا الفريق
السياسي لتبين الدور الكبير الذي تلعبه هذه الطبقات مناصفة مع كبار ممثلي البورجوازية
والعاملين في خدمتها ، امثال بسمارك وهوتلو ورفناؤهما في كل من انكلترا ، في شخص
دربي وسلسبري ، وفي فرنسا ، اقله الى بروز ممثلي « الطبقات الاجتماعية الحديثة » بطلوع غمبتا
ثم برويل وديكاز .

فالتبقة البورجوازية التي ثارت ، عام ١٧٨٩ ضد امتيازات العهد
تطور المصالح العامة الكبرى
القديم وضد الاستثناءات العديدة التي كان ينعم بها ، تصدت كذلك
لروح الفطرسه والاستبداد في الادارة ، هذه الروح التي لم تكن سوى اداة الدولة الحديثة في
تطورها الصاعد . ولذا راح غيزو يصرح قائلاً : « ان فرنسا دولة يوجهها الموظفون » . وفي المانيا
بين ١٨٨٠ - ١٩١٠ ، ارتفع عدد الموظفين العاملين في مصلحة البرق والبريد ومصالح الخطوط

الحديدية من ١٨٤٠ إلى ١٨٧٠. وراح فرنسوا جوزف يشجع بأنه الموظف النموذجي في الدولة. ومهما بلغ من تعلق انكلترا بسياسة الحكم الذاتي المحلي، فقد شعرت بشديس الحاجة الى موظفين يؤمنون خدمة المصلحة العامة.

هنالك مصالح تقليدية يتدبر امرها موظفو «السلك» من عسكريين ودبلوماسيين واداريين. فالسلك لا يدخله الا اصحاب الاستحقاق والاهلية، ويقتضي، الى جانب المؤهلات الشخصية شيئاً من اليسر المالي والثروة، يشد بين اعضائه روح من تضامن الزمالة، وهي روح تضمن الاستمرار، فيساقوم سر كل نجاح. ولذا راح الموظف الكبير يردف الرجل السياسي ويعمل بدبلا عنه على رأس وزارة حكومية او على رأس حكومة كلها دعت الى تأليفها مصلحة السلطة العليا.

فالعدالة في البلاد والشرطة هي من هذه المصالح التي تقع مسؤولياتها على كاهل الدولة التي يؤول اليها مهمة السهر على السلامة العامة وحفظ النظام في البلاد الذي يفترض فيه احترام الاشخاص والحفاظ على ممتلكاتهم. فاذا ما توفر للقاضي بعض الاستقلال في عمله، واذا ما تطور الاخذ بنظام المحكمين فقد كان لا بد من وجود هيئة عليا للامن العام يؤمن، تدخلها المكشوف او الخفي، الاستمرار للحكومة او سقوطها. فحوادث الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١، يجب اعتبارها، قبل كل شيء عملية بوليسية، في الدرجة الاولى، كما ان سقوط الامبراطورية في ٤ ايلول ١٨٧٠ جاء نتيجة لاقصاء البوليس من قصر البوربون. «فالنظام الادبي» يعتمد عليها قبل كل شيء، ومدير البوليس لا يبين يغذي علاقات طيبة مع هذه الجمهورية الراديكالية التي يتخدمها بكل اخلاص.

فالمصالح العامة في الدولة العصرية: كالبرق والبريد والخطوط الحديدية والتعليم، تتولاها هيئة من المواطنين ذات طابع ديموقراطي لا بل شعبي ولكنهم ليسوا عيالاً على الدولة اذ ان مقتضيات الاقتصاد الحر تستلزم عدم وضمهم على نفقة الجماعة.

ومع ان الامية لا تزال البلاء الاعظم الذي يعاني منه المجتمع، مشكلات التعليم العام والتعليم المهني فالتعليم الالزامي لم يدخل الا متأخراً جداً في التشريعات الحديثة التي لم تدخل حيز التنفيذ في كل مكان. فالتعليم الابتدائي سجل تطوراً كبيراً كما نلاحظ، في البلدان الشمالية والمانيا وفرنسا وسويسرا. ومع تفاوت الاعتمادات المرصدة له في موازنة الدولة العامة، فسبق هذه المخصصات دون الاعتمادات المخصصة لاغراض الدفاع بكثير.

ومها يكن فقد ارتفع حول المدرسة وقضايا التعليم جدل طويل وصراع مرير اوتسمت صورته في ذهنية الطبقات الادارية التي تعادفتها تيارات مختلفة كضرورة الاخذ بفكرة التطور والتمسك العريزي بالنظام. فبعد بستلوزي، راح فريق من امثال لانكاستر وفروبييل ومونترينو يبنذون بشدة

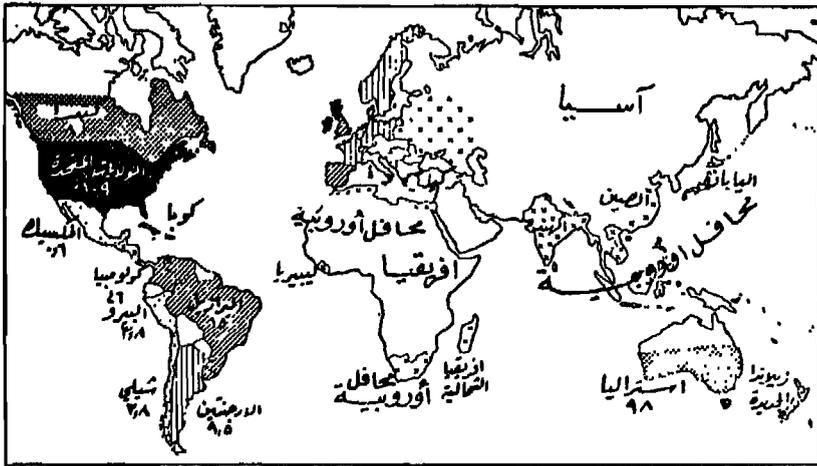
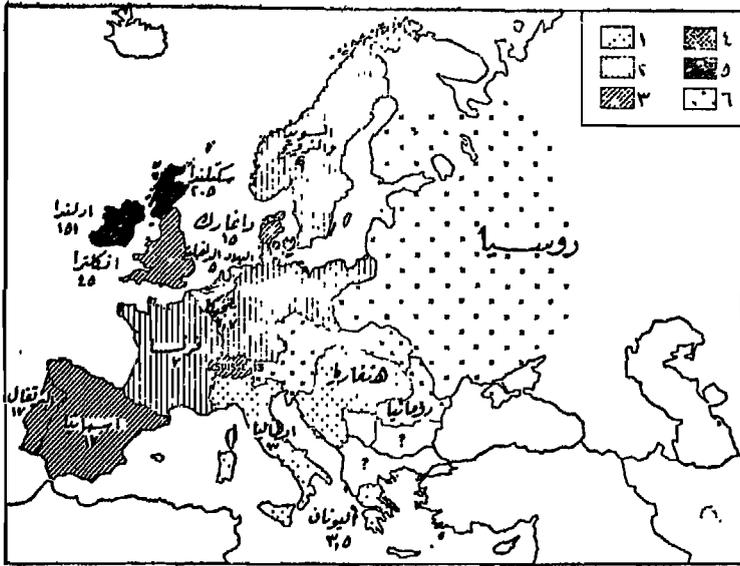
التقريبية او الجزمية . فالانتقائي فكتور كوزين ، اتخذ قاعدة عمل له المبدأ القائل : « ان كل المواطنين من ابناء البلاد ، مهما كان دينهم او مذهبهم ، لهم حق تلقي التعليم » . الا ان حق احتكار التعليم الجامعي الذي كان لا يزال يقول به ويبرر القيام به ، رفض الاحرار المتمتتون القبول به من حيث المبدأ ، كما ان الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن لها ان تسلم به . ومن جهة اخرى ، هل بالامكان تصور تعلم علماني يحترم في وقت واحد كل المعتقدات الدينية ، ويستطيع ان يؤمن الوحدة الفكرية في الوطن ؟ ثم هل من الموافق ومن الحكمة ، من وجهة المحافظة على المجتمع البشري ، ان يكون الله بالضرورة حاضراً في المدرسة ؟

سجلت فرنسا في هذا المجال حادناً تاريخياً يتمثل في قانون « فلتو » الصادر عام ١٨٥٠ ، هذا القانون الذي جاء يوفق بين نظريتين : النظرية المسيحية والنظرية الوطنية القومية . وفي بلجيكا تمكنت المدرسة الطائفية من تقرير مساواتها رسمياً بالمدرسة العلمانية اذ ان النسبة العالية من الطلاب الذين ينتمون اليها امت لها مساعدة السلطات العامة على قبم المساواة مع منافستها الاخرى . ففي الهين الذي راحت فيه الامبراطورية الالمانية تفرض وجوب التصريح عن الدين في التعليم الرسمي الوحيد ، قررت بريطانيا العظمى ، مراعاة لزاجها الخاص ، الوقوف بجانب التنوع دون ان تلغي التعليم الديني من مناهجها التربوية ، فالدول البروتستانتية تميل نحو التساهل المدني ، هذا التساهل الذي ينطبع ، من الوجهة المبدئية على الاقل ، بالفكرة المسيحية ، بينما تنتصب العلمانية في الدول الكاثوليكية في وجه المدرسة الطائفية .

فالجدل حول المدرسة ليس سوى مظهر من مظاهر الصراع الذي
مبول في الايمان التقليدي
احتمد بين الكنيسة والحركة العلمانية التي لا تعني بالضرورة ، مناهضة
رجال الاكليروس ، بينما تعلم الاخرى ان لا خلاص للجنس البشري

خسارج التعاليم الدينية الموحى بها .

ان انصراف العقول عن الدين وزهد الناس بالعبادات والطقوس التقليدية امر لا يختلف فيه اثنان . وقد اشتدت وطأة هذا التحول في المناطق الصناعية او في تلك المناطق التي اكتظت مدنها بالسكان دون ان نستطيع الجزم ما اذا كان اصاب البلدان الكاثوليكية اكثر من البلدان البروتستانتية ، الا اننا أبعد عن الارثوذكسية وعن الطقوس التقليدية المعمول بها جانباً كبيراً من العنصر الاسرائيلي . ويؤكد الاب بشرت ، عمام ١٨٥٦ . « ان المهمة الملقاة على عاتق عصرنا هذا هو إعادة الطبقات السفلية الى جادة الايمان . . . » . وقد خشى غليوم الثاني كثيراً من إغراض الناس المتزايد عن الدعوات الكهنوتية . ففي فرنسا كانت حوادث السيامات الكهنوتية ارتفع عددها ، عام ١٨١٥ ، لتنهط بعد حين ، ثم تعود فترتفع قليلاً بين ١٨٧٠ - ١٨٨٠ لتنهط من جديد . هنالك ١٢٠٠ راعوية ، حوالي ١٨٤٨ ، واكثر من ٤٠٠٠ حوالي عام ١٩٠٠ ليس من كاهن او قس يقوم على خدمتها . فالاكليروس الذي قلت بضاعته من العلم والثقافة ، ضؤل استمداده للقيام بالمهمة الملقاة عليه . وقد لاحظ لامنيه ، منذ عام ١٨٢٧ ، هذا الوضع المستحکم ،



شكل رقم ١٧ - توزيع أعضاء الماسونية في العالم بين ١٨٨٥ - ١٨٩٠

- ١ - ٥ أعضاء من ١٠٠٠٠٠ نسمة ؛ ٢ - من ٥ - ١٠ ؛ ٣ - من ١٠ - ٥٠ عضوا ؛ ٤ - من ٥٠ - ١٠٠ عضو ؛ ٥ - أكثر من ١٠٠ عضو ؛ ٦ - وجود أعضاء بدون تحديد عدد .

عندما يقول : « يجب رد قوة اعداء المسيحية ليس الى انهم يعرفون كثيراً، بل الى ما هم عليه من جهل الطبيعيين المدافعون عنها ، فلا الفنون التشكيلية، ولا الهندسة يتخذان بدأ من التقوى الدينية . « ففن السان سوليس ، يفترق اصلاً للانطلاق ، والموسيقى الكنسية اصيبت ، هي الاخرى بالحسف ، والموسيقار ليست عجز تماماً عن التعبير الصحيح للطقوس ، هذه الطقوس التي حاول غير انجييه ان يبعث فيها النشاط والتجدد .

وقد احندم الجسد والنقاش الديني بين البروتستانت . فالكنيسة الانكليكانية تجتاز ازمة حادة بعد ان هزتها اعادة السلطة الى الكنيسة الكاثوليكية ، في تلك البلاد وراحت المشاحنات تتجاوز الكنيسة العليا ، والكنيسة العريضة والكنيسة السفلى . والظاهر ان اليقظة استنفذت كل نتائجها ، وفي بروسييا والبلاد الرواطية ، احتدمت المعركة الدينية بين مستقيمي الرأي واصحاب الرأي الحربى حيث لم تلبث هذه المشاحنات ان امتدت الى الكنائس الانجيلية في كل من سويسرا وفرنسا . وحف الخطر من كل صوب بالطقوس التقليدية من جراء احتدام نقد الكتاب المقدس . والارثوذكسية اليهودية نفسها المعروف عنها تسكها الشديد بأسباب الدين تعرضت لهزات هدامة جاءت من هذه الحركة الاصلاحية، الموجبة ، ضد التلود، كما اصيب الولاء للغة العبرية بالتراخي والانحلال من جراء الانحطاط الذي استشرى بين هذه المجتمعات اليهودية في الغرب التي اخذت تعرض عن استعمال اللهجة اليبندية هذه اللهجة العبرية المهجين من الالمانية والسلافية : وبالمقابل ، فقد انتشرت اللائفريقية بمختلف الوانها فتغلغلت بين المؤمنين الذي انقطعوا عن ممارسة مراسم العبادة فاستحالوا جاحدين ملحدين . فسانت يوف يحدثنا عن : « هذه الابراشية الضخمة التي تغطي كل فرنسا والتي تمدد الواف الاتباع من هؤلاء القائلين بالربوبية وناكري الوحي ، او المنصرفين الى مخاطبة الارواح والاستسلام لمراسم العبادة الطبيعية ، والحلوليين الوضعيين .

من الصعب تحديد الدور الذي لعبته الماسونية . ففي عام ١٧٨٥ ، بلغ عدد المحافل الماسونية في العالم ١٧٠،٠٠٠ محفل ضمت أكثر من مليون من الاعضاء ، نصفهم في اميركا ، بينهم أكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من البريطانيين . فالجمعية ليست بثورية . فملوك البلدان البروتستانتية وانسباء هؤلاء الملوك من الأمراء يشرفون على مصير هذه الجمعية . ففي الدول الكاثوليكية عرفت هذه الجمعية ان تجتذب اليها عدداً كبيراً من موظفي الحكومات الذين يجذبون الروح الالمانية ويعملون على الترويج لها وعلى مناهضة رجال الدين . ويجهد خصومها على التشهير بها بشكل لا يخلو من المبالغة ، ويبينون للناس ما لها من قوة ونفوذ . ولكن ، أليست بعد هذا كله ، كما يقول فيها اتقول فرانس : « جمعية » .. تؤمن الترفيع المتبادل !

ومها وجدت نفسها مهددة ، فالاديان التقليدية عرفت ، مع ذلك ، مقاومة الكنائس لها
كيف تحتفظ بما لها من مواقع حصينة ، كما ان قدرتها على الكفاح
مصانعتها للدولة المتحررة
والنضال لم تن ولم تضعف .

فعندما وطدت البروتستانتية اقدمها ورسخت اصولها في بلد ما تعمل على انشاء علاقات

طيبة مع الدولة التي كثيراً ما تعرض مصالحها ، وتفتى بوصفها الحكم ، في هذه المنازعات التي كثيراً ما تنشأ بين النزعات المحافظة والنزعات المتحررة . ومع أن المعاهدة الدبلوماسية (الكونكورديا) المعقودة بين الدولة والكنيسة اعترفت بوضع الكلفينية في فرنسا ، فقد أثر اتباع هذه الكنيسة ان يعتمدوا على انفسهم ورضوا بفصل الكنيسة عن الدولة هذه السياسة التي اقترح فينه الأخذ بها والنهج عليها باعتبارها شرطاً أساسياً في عملية الإصلاح . وهذه الروح الإصلاحية التي كان بوسمها القيام بحركة تبشيرية واسعة النطاق ، لعبت دوراً بارزاً في اعداد هذه القوانين الانسانية وفي قضية التعليم العام واخذت تنزع للحوول دون تشتت الراءيات وتباين المذاهب العقائدية ، وذلك بالاتجاه نحو اعمال البر والاحسان ، منها مثلاً ، مؤسسة جيش الخلاص ، هذه المؤسسة التي تشكلت على غرار الرهبنة اليسوعية ، ولاقتي تأسيسها نجاحاً تاماً ، وقد غدت هذه الاعمال الايمان في النفوس ليتلام تماماً مع مجمع القوي . واستمرت الكنيسة الكاثوليكية تعطل النفس بمحشد القوي وجمع الطاقات الحيرة إلا ان النجاحات التي حققتها في كل من انكلترا والبلاد الواطية لم تقض قط الى وضع حد لهذه الانفصالات التي أدت اليها سياستها المثصلبة ، وهكذا أدت اعمال هرنالك الى توضيح وجهة النظر اللوثرية وجلاؤها ، بينا سياستها الرامية لتوطيد السلام تدور على نفسها فقد نجحت سياسة تأييد سيادة البابا . وبعبارة أخرى ، ففي الوقت الذي يتوسط فيه الشعور القومي وتوسخ الروح القومية بين الشعوب في المجال العلماني ، فقد نزع ، من جهة أخرى ، الى الهبوط في قلب الكنيسة . فعملية التوحيد تمت لمصلحة الليثورجية والفلسفة القومية ، التي عرفت رواجاً كبيراً وتجديداً جديدين ، قوت من امتيازات الكرسي الرسولي . ان اعلان عقيدة الجبل بلا دنس ، والوضوح الذي ميز فهرس الكتب والتعاليم المحررة *Syllabus* لدى الكنيسة الكاثوليكية ، هيا إعلان عقيدة عصمة البابا ، هذه العقيدة التي تم إعلانها في مجمع الفاتيكان عام ١٨٧٠ ، معلناً بذلك الراعي الدائم . وهكذا فالكنيسة الكاثوليكية في ردتها المعقوية في الدفاع عن النفس ، زادت مركزية وجملتها تنجعه بالتالي نحو الحكم المطلق . فأمام هذه الروح التحررية قامت روح مسكونية ، بعد أن استشرت الروح العلمانية بين الدول ، وادخال هذه الروح على وسائل المواصلات التي تعمل على حشد الخدمات في المدينة الحالدة .

فاذا ما زاد اعداد الكهنة العلمانيين صعوبة ، فقد عرفت المؤسسات الرهبانية من جهتها ازدهاراً أدى الى تأييد نفوذ الكرسي الرسولي . فقد أدى القرن التاسع عشر من هذه الناحية الى دمل أحد الجروح التي فتحها القرن الثامن عشر ، اذ ساعد على إعمار الاديار ، كما ادى الى تأسيس عدد من الرهبانيات الجديدة . وهذا التجدد والبعث للحياة الرهبانية ساعد كثيراً على القيام بحركة التبشير بين المشاقين من المسيحيين وفي هذه البلدان التي لا تزال على الوثنية ، بحيث اصبح من الممكن التحدث الآن عن حركة اصلاحية معاكسة ، في اوروبا نفسها ، الخصم فيها الملمعد الممطل أقل منه الهرطوقي . وتكاثرت المشاريع الدينية التي وضعت نصب اعينها تجديده الروح المسيحية عن طريق الهبة والكراسة والتبشر .

ابتعدت مظاهر العبادة عن المفهوم الجذسيني ، وهذه الروح الرمزية التي انطلقت من إيطاليا عمت الكتلركة جماء . وتجلت للناس عواطف تقوية تمثلت في هذه الاحتفالات والمظاهرات العبادية ، وتبلورت على اتمها في هذه الزياحات وهذه المزارات والحجيج الى الاماكن المقدسة . وقد اتجهت عواطف المؤمنين الى يسوع الرؤوف ، الرحيم . ولذا راح المطران هولست يتكلم عن « عصر القلب الاقدس » الذي تكبرست له الشعوب ، وعن مريم العذراء . والعبادة المريمية تألفت آنياً بهذه الظهورات المجائبة كما لـ *salette* ولبرناديت سوبيروس . وقد كان من سحر لورد المجائبي ان جذبت اليها وفوداً ضخمة من حججاج المسيحيين ، اذ ضم حج واحد اكثر من ١١٠ آلاف حاج عام ١٨٧٢ ، كما انه وفد على لورد من الحججاج بين ١٨٧٠ - ١٨٧٨ اكثر من ٦٦٠.٠٠٠ .

وقد ابت على البابا بيوس التاسع تقواه ونفسه البارة مصانعة العصر ، وأعرض عن الخدمات التي كان يمكن للدراسات اللاهوتية ان تؤديها مع دولنجر ، ووقف موقف المدافع عن العقيدة التقليدية ، في تشبهه لاضاليل العصر ، في البراءة البابوية *Quanta Cura* وفي دليل الكتب المحرمة *Syllabus* الذي اثار لهجة الصريحة وعبارته الشديدة ردود فعل عنيفة بين القراء الذين وقعوا مع الكرسي الرسولي مهادتات الكونكورداو بين الدولة والكنيسة . ولذا فقد تأزمت في اواخر حبرية البابا بيوس التاسع العلاقات بين الكرسي الرسولي والدول كما قامت صعوبات مع كل من اسبانيا والنمسا . ونهج بسمارك نحو الكتلركة سياسة عدائية تمثلت في منهج *Kulturkampf* (الصراع في سبيل الحضارة) ، كما ان غمبتا اعلان الحرب ضد « النظم الام الأدبي » عندما أخذ يصرح : « الروح الاكليريكية » هذا هو العدو بعينه . فاذا ما تسلم خلفه البابا لاون الثالث عشر بمرونة سياسية اكبر ، فلم يستطع الا انضي في موقف الكنيسة المتصلب من تعامل العصر ، كما حذر من المساوية والخازي التي يذهب اليها « العقل » عندما يشتط في مدهاناته وتديساته وتغذيته حب العظمة الفارغة ، وكلها أمور محببة لقلب الانسان .

وقد حدث مع ذلك ما نم عن بعض التحسن في الوضع . ففي البراءة التي نشرها بعنوان : *Immortale Dei* يصرح البابا قنلا ان الكنيسة لا يمكن ان تقف موقفاً معادياً من أي « تساهل تخاديل » ولا تبدي العدا للحرية المشروعة الحققة وهي محاذير أقل وطأة وأخف اثرأ . ويؤكد في براءته انه لا يمكن شجب اي شكل من اشكال الحكم ، اذا ما احترم حقوق المؤمنين ، وحقوق رجال الدين . وقد بدا طلوع عهد من التقارب الى انصار الجمهورية في فرنسا الذين ملقوا من انتشار الروح الاشتراكية ، وراحوا يتمنون لو يصار الى « هدنة » . ولذا راح البابا ليون الثالث عشر يوحي بوجود الولاء للانظمة الشرعية القائمة ، بينما رسم في براءته الجديدة برنامجاً خاصاً بطبقة العمال ، اطمان العمال الى مبادئه المعتدلة .

ولم تحل الفوارق والخصومات القائمة بين الكنائس والمجتمع العلماني من عقد هذه الاتفاقات والتنازلات التي لا بد منها . أفليست العبادة من هذه الخدمات العامة ؟

ومن ثم فهذا المجتمع العلماني ، في سعيه الحثيث لتأمين استقلاله عن السلطة الكنسية تردد كثيراً قبل ان يقطع صلته بالدين وشؤونه . ففرنسا لم تقرر الطلاق النهائي - مع ان مبدأ الطلاق اعترف به منذ عام ١٧٩٢ - الا عام ١٨٨٤ ، ثم ان الاقبال تدريجياً على الزواج المدني لم يلبث ان انتشر في البلدان الأخرى . والسويد لم تسلم به الا لغير اللوغيين كالبرتغال الذي أقره لغير الكاثوليك . والنمسا اجازت الطلاق لغير الكاثوليك ، ولم تسلم كإيطاليا ، إلا بانفصال الزوجين . فالبلدان البروتستانتية ، اختلف موقفها بنسبة تبان الروح التحررية فيها . فلنسمع ما يقوله هوغو هنا : « كل حضارة تبدأ بنظام ثيوقراطي وتنتهي الى نظام ديموقراطي » .

في براءته المعنونة *Diturnum* الصادرة عام ١٨٨١ ، يذكر البابا ليون الثالث عشر : « انه اذا ما اردنا ان نحدد مصدر السلطة في الدولة علينا ان نصفها الى ما تعلمه الكنيسة بهذا الصدد بوجود البحث عنه في الله » ، ثم يضيف قائلاً : « فاذا ما ربطنا هذه السلطة بارادة الشعب نكون استهدفنا للشطط ، من حيث الاساس ، ونكون أولينا السلطة اساساً وهدماً سريع العطب ، لا قوام له » .

من الاقتراح الضرائبي الى نظام
الاقتراع العام ومن حكم النبلاء
الى حكم الديموقراطية

وقد وضع العاملون على توطيد النظام التمثيلي نصب أعينهم ، ضمان الحريات الفردية . فقد كانت انكلترا ، في هذا المجال ، مثالاً يحتذى ، اذ ان سياسة الصراحة التي درجت عليها تلك البلاد العريقة في نظمها القانونية - بما فيها من ملاكين وذوي أهليات - امنت الاستقرار للحكومة والسير بمقدرات البلاد وتوجيهها التوجيه الصحيح . ان نظاماً من هذا الشكل كان من شأنه في نظر الأحرار ، ان يحول دون استثثار الفرد او قسوة معينة ، بالسلطة . ولكن هل كان بوسع مثل هذا النظام ان يبقى بعيداً عن السلطة الشخصية ، كما تستطيعه الديموقراطية ؟

فالنصوص الدستورية تفسح المجال ، عادة ، لمواجهة المجلس الأدنى المنتخب من قبل الشعب بمجلس اعلى تعينه السلطة التنفيذية او يجري انتخابه من قبل هيئة انتخابية مصفرة . ومع ذلك فهذا النظام - باستثناء فرنسا حيث كان يعمل به منذ عام ١٨٤٨ - مع العلم ان الامبراطورية الثانية عرفت ان تتلاعب به بما يتفق ومصحتها - لم يستقر في اوروبا إلا بصورة تدريجية . هنالك ، بالطبع بعض تغيير يطرأ على مفهوم الحسب والحزبية ، اذ اخذت قاعدته بالاتساع ، بحيث تمتع الشعب بأطر اتخذها من بين النبلاء والاعيان : حزب الطبقة الذي اخذت الاشتراكية تدعو الى قيامه ، لحزب الطبقة العمالية ، الامر الذي بعث الريبة والتشكيك في هذه المستجدات الخطرة .

هل يترتب علينا ان نرى في هذه الدولة الحديثة « وضعاً من الضرائب والموارد المالية في الدولة نسج الخيال ، كل واحد فيه يحاول ان يعيش على حساب الغير » ، كما كان يقول بستيا ، او « لجنة ادارية تتولى شؤون البورجوازية المشتركة » ، كما جاء على لسان ماركس ؟ كل هذا والنبلاء يعارضون ما وسعهم ، فرض الضرائب على الثروات التي جمعوها .

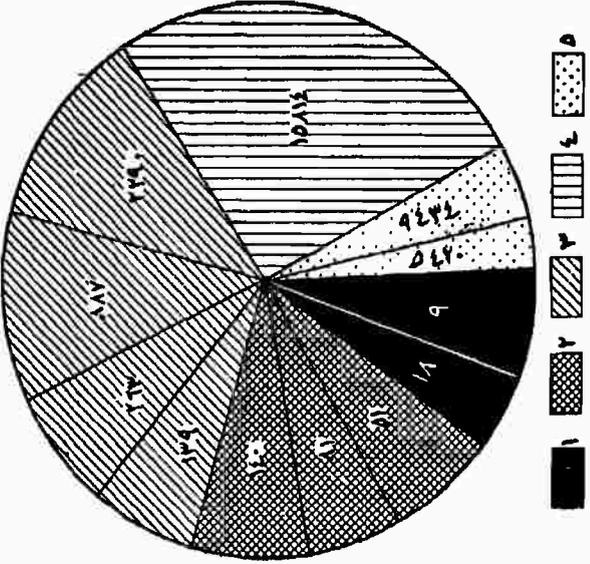
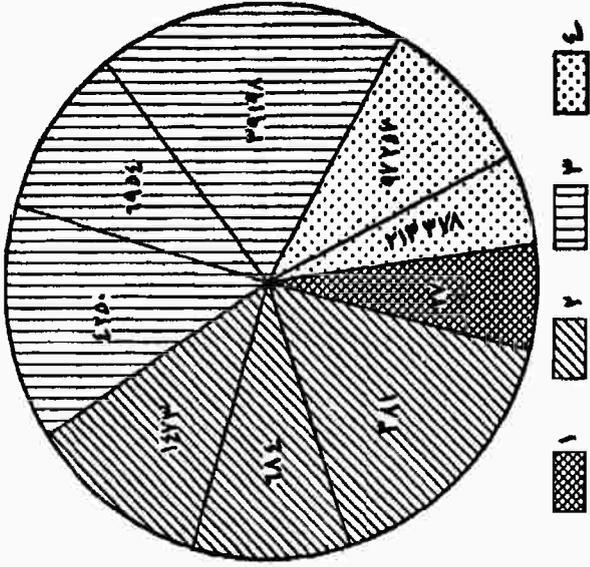
والحال ، فان تضخم موازنات الدول ، سنة بعد سنة ، اثار في صفوف الاحرار المتشددين موجة من الاستياء والتذمر ، فزاد من ضغط الحكومات على دافعي الضرائب ، وربطهم اكثر فاكثرا باصحاب رؤوس الاموال . فقد بلغت النفقات العامة في فرنسا المليار عام ١٨٣٠ ، ثم ارتفعت الى مليارين عام ١٨٦٩ لتصبح عام ١٩٠٠ اربعة مليارات بحيث ان مشروع موازنة جاءت تشكو العجز سنة بعد سنة عام ١٨٧٥ . فالدولة تفتي نفقاتها عادة بفرض الضرائب . الا ان الملاك واصحاب رؤوس الاموال كانوا دوماً يحاولون التخفيف من وطأة الضرائب المباشرة التي تكمل امر جبايتها الى ما مورين يعدونهم انفسهم جدول دافعي الضرائب في الوقت الذي نزام يمتدحون فيه منافع الضريبة غير المباشرة او غير الملحوظة التي تستند الى الاستهلاك المحلي . وكانت الضريبة الفردية التصاعدية على الدخل التي تبنت مبدأ الاخذ بها الحكومة البروسانية حيث للوظف هيبية وسطوة كبيرة ، كما تبنتها الحكومة الانكليزية ، كبديل عن تخفيض التعرفة الجركية ، وقد اثار في فرنسا ، صراعاً عنيفاً لم يخرج فيه الحزب الراديكالي منتصراً الا قبيل الحرب العالمية الاولى ، بمؤازرة الحزب الاشتراكي .

ولما كانت الضرائب التي تجبها الدولة لا تفي بالحاجة كان لا بد لها من الاستدانة والاستلاف وقد بلغت الديون المستحقة على الدول الاوروبية ما اربى على ١٣٦ مليار بحيث ان هذه الديون المتوجب وفاؤها ، لو وزعت على المواطنين لأصاب الفرد الواحد منها فرنكاً في سويسرا ، و ٢٣ فرنكاً في فرنسا ، عام ١٩٠٠ .

ازدياد حركة الغراء العام وتفاوت الثروات

حدد آدم سميث معنى الثروة في الشعب « حيازة كل الاشياء اللازمة للحياة والمسئلة لها . » ويلاحظ بعضهم عدم الدقة الملازم لهذا التعريف . ومع ذلك فتمو هذه الثروة المطرد ليس من ينكره ، اذا ما تمثلت هذه الثروة بنقد متداول لم تتغير قيمته خلال القرن . وعلى هذا الاساس فقد قدر سوتير ، ثروة بروسيا ٧٨٥٦ مليوناً عام ١٨٧٦ ، بينما ارتفعت الى ١٠٠٢٠٨ ملايين عام ١٨٩٠ ، وذلك على اساس ضريبة الدخل التي لم تكن تطال غير ٨٠٠٠٠٠ شخص من أصل ٢٢ مليون نسمة . ومنذ عام ١٨٩١ كانت حصيلة الضرائب التي تصيب مليونين ونصف من دافعي الضرائب ٥٨٦١ مليوناً ، عام ١٨٩٢ ، و ٨٨٥٤ عام ١٩٠١ . فالضريبة الموضوعة على التجارة والصناعة في انكلترا اعطت ١٠٦ ملايين ليرة انكليزية تقريباً عام ١٨٤٣ بينما اعطت ٣٢٠ مليون ليرة ، عام ١٨٨٠ ، والضريبة A (على رأس المال) اعطت تبعاً عام ١٨٨٤ ٤٠٧ ملايين ليرة ، بينما الضريبة B (الاجور) دوت ٩٣ و ١٧٧ مليون ليرة . وقد قدر بعض علماء الاقتصاد دخل كل من بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية ٤٠٠ ، و ٢٧ و ٦٠ ملياراً عام ١٨٩٥ ، لقاء ٧٥ و ٦ لالولي والثانية عام ١٨١٠ ، و ٣٥ لأمير كاعام ١٨٧٠ .

من العسير جداً التحديد بدقة ، توزيع هذه الثروة ، بين مختلف طبقات المجتمع او بسين الافراد . فالاحصاء الذي جرى في انكلترا ، عام ١٨٧٨-١٨٨٨ ، يشير الى ان ١٨ بريطانيا يحوز الواحد منهم اكثر من ٢٥ مليوناً (روتشيلد ٦٧ مليوناً ، وكل من بيرنغ وبورتلاند ٣٨ مليوناً) .



شكل رقم ١٨ - توزيع القوت في كل من فرنسا وانكلترا ، وفقا لتصاريح الارثية الى اليسار : بريطانيا العظمى (السنة المالية ١٩٠١ - ١٩٠٢ فيها نحو ٣٤٥٠٠ ترقة مجموع غناها معسا ١٠٤٠٠ مليون فونك تقريبا) .
 الى اليمين : فرنسا (السنة المالية ١٩٠٢ ، تضم ٣٦٠٠٠٠٠ ترقة مجموع غناها معسا ٤٧٠٠ مليون فونك) عن النشرة الاحصائية لوزارة المالية) .

ويبدل الكشف الموضوع للتركات المورثة على ان التفاوت يقل بالانتقال من انكلترا الى ايطاليا ، الى فرنسا وبروسيا . وهكذا نحصل على ٣٠,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ و ١٠ و ١١,٠٠٠ و ٥,٠٠٠ الى ١,٦٠٠ صاحب ثروة تزيد ثروة كل واحد بينهم على مليون . فالعالم الاقتصادي فوفيل ادخل منذ عام ١٨٨٣ ، في حسابه ٢٠,٠٠٠ عائلة من اصحاب الملايين توجد في انكلترا ، ثم اضاف قائلاً : « ان هذه ثروات تزيد بكثير على المعدل ، في بلاد لا يتجاوز عدد سكانها ٣٨ مليون نسمة . فليس في العالم كله على الاطلاق بلد يضم مثل هذا العدد من كبار الاغنياء اصحاب الثروات الطائلة » . ويمكن لنا ان نضيف هنا ان الفأ من كبار الملاكين يملكون ثلث مساحة البلاد او ان ٥٪ من سكان البلاد يجمعون في ايديهم نصف الثروة المنقولة ، وانه يوجد في خدمة الاسر الفنية مليون من الخدم والحشم ، وان ٢٠٠,٠٠٠ رأس من الخيل تدرب كل سنة على فنون الصيد في هذه الاطيان الضخمة .

ففي الحقبة الواقعة بين ١٨٤٣ - ١٨٨٠ ، ارتفع عدد البريطانيين المسجلة اسماؤهم في جدول فئة (D) من اصحاب ال ٥٠,٠٠٠ ليرة ، ثمانية اضعاف ونصف ، بينما معدل الزيادة في الفئات الاخرى تضاعفت ثلاث مرات لا غير . وفي بروسيا ، نقلت الزيادة في الحقبة الواقعة بين ١٨٩٦ - ١٩٠٢ ، وفقاً لجدول ضريبة الدخل ٧٣٤٤ بالمائة لدى من زاد دخلهم على ٩٠,٠٠٠ مارك ، و ٣٦ بالمائة لدى اصحاب الدخل الذي يتراوح بين ٣,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ مارك . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد ان تجميع الثروة تم في ايدي اقلية ضئيلة .

تفانم الاختلاف بين اصحاب رأس المال والمال في هذه الحقبة
اضرابات اليد العاملة وتطور الروح النقابية
الواقعة بين ١٨١٥ - ١٨٤٨ في الوقت الذي زاد حرجاً
وضع اصحاب الاجور ، كما لا بد من الملاحظة هنا ان
حوادث الاضرابات والبطالة اخذت تتناقص بعد عام ١٨٥٠ ، وهو هدوء يمكن رده الى عوامل عديدة ، منها فشل الثورات والفتن التي نشبت والضغط السياسي وعودة النشاط الى الحركة الاقتصادية ، والتخفيف من اسباب البطالة والارتفاع الاسمي ، ان لم يكن الفعلي للاجور . فبعد ان خابت آمال هذه الطبقة واتمظت بمحوادث الدهر ، اخذت تفكر بتنظيم نفسها لتحصل على ما ترضى عنه من الوجهة المسلكية فتصبح بالتالي ، اكثر تحمناً ضد النظريات الثورية التي تتملقها .

وقد شهدت انكلترا ازدهار الروح النقابية عقب عهد الوثنية التي تآدى بها بعض المصلحين الاجتماعيين من انكلترا التي جاءت رومنطيقية اكثر منها سياسية حرفية ، عهد النقابية العمالية . وبذلك اخذ اوين ثاره . غير ان هذه الاتحادات لم تضم في صفوفها سوى نخبة ممتازة من العمال اصحاب التخصص الاعلى مرتباً . ومع ذلك ، وبالرغم من حظر الاتحاد لم يتم في فرنسا روح المقاومة وبقيت خافتة تحت الرماد تترتت سنوح الظروف المناسبة ، للظهور والانطلاق من جديد .

ان ارتفاع تكاليف الحياة والتعقيدات التي جرت اليها حرب الانفصال (في الولايات المتحدة) في صناعة النسيج كانت السانعة لانطلاق الهيجان منذ عام ١٨٦٠ وعلى غرار النقابات العمالية ظهرت حركة نقابية لا طابع سياسي لها في المانيا . وراحت حكومات فرنسا وبروسيا وساكس ، حرصاً منها على ارضاء العمال واستمالتهم ، تمنحهم حق تشكيل النقابات عمالية ، وهو حق جاء في الوقت الذي طلعت فيه علينا الدولية الاولى التي تبنت ما تخفيه الحركة النقابية من شأن وقوة وما يمكن ان تقدمه من فوائد جمه ، فراح اعضاؤها يستميلونها للعمل الثوري . وعقدت الحركة النقابية العمالية في انكلترا مؤتمرها العام الاول وراحت تشجب فيه اعمال العنف التي وقعت في مدينة شفيلد ، كما اعربت عن ارتياحها لاصلاح قانون الانتخاب عام ١٨٦٧ . واذا ذلك ، اخذ العمال في المناجم وصناعة التعدين يتحركون ، فتكاوت الاضرابات العمالية في الروهر وسيليزيا والهاينو وسورانغ وأترن وريكاميري واوبين والكروزو . واخذ الاضطراب يمتد ويشد الى ان ظهرت فتنة الكومون في باريس ، وهذا الحادث يؤلف تاريخاً بارزاً في حركة البروليتاريا مع ان الباعث الاول والوحيد لهذه الفتنة الشعبية التصيم هو الوقوف في وجه الرأسمالية . وامكن قمع اعتصاب ثان في سيليزيا العليا حين ظهر فجأة قانون يعترف ببعض حقوق العمال النقابية .

وقد اتضح الآن ان الازمات تزيد من ضنك وبؤس صاحب الأجر المحدود وتحمله على الثورة . فهي تتركه في وضع يبقى فيه عرضة أكبر للمخاطر ؛ إلا ان موقفه يصبح أقوى مع رجوع الازدهار مع انه لا يفكر بالمطالبة بحقوقه . فاذا ما راح يطالب بزيادة في الأجور فجهوده تنحصر في تخفيض ساعات العمل والشغل لمدة ثمان ساعات ، وهذا أقصى ما يحلم به .

وقد اثارت أزمة ١٨٧٣ موجة جديدة من الاضرابات والاعتصابات في انكلترا اشترك فيها العمال العاملون في القطاع الزراعي . إلا ان القانون المعروف بقانون رب العمال والعامل الذي صدر عام ١٨٧٥ أدى الى شيء من التهذنة ؛ فالظروف المتحكمة اذ ذلك توضح لنا صعوبة نهوض المنظمات العمالية في فرنسا وتبين لنا سلسلة حوادث الفشل الذريع الذي اصيبت به الحركة العمالية في المانيا والولايات المتحدة الاميركية .

ففي الوقت الذي تزداد فيه الهوة عمقاً ، نيل موازنة العامل الى تحقيق التوازن بسهولة أكبر حتى ان الأجر أخذ احياناً بالارتفاح ، على شريطة أن تكون حركة تشغيل العمال مرضية . فالاضرابات تخف حوادثها بينما تزداد الحركة النقابية قوة وبأساً في فرنسا ، وتأخذ بتنظيم نفسها في المانيا ، وتتكاثر في بريطانيا حيث قامت النقابات عمالية جديدة فتحت صفوفها لعمال غير متخصصين . واليد العاملة في كل مكان في الريف تتامل وتمتدح دون أن يطرأ أي تحسين على دخلها بل انه مال الى الهبوط احياناً ، وراح الجمهوريون في فرنسا يعترفون للعمال بحق تأليف نقابات لهم ، كما راح يساهرك ، من جهته ، يجري تغييراً في الصورة بوضعه خطة للضمان الاجتماعي . وحدث اثر تحسن وقتي في الاسعار ، عام ١٨٨٦ ، سلسلة من الاضرابات العنيفة ولا سيما في

مقاطعات الهاينو وليياج ، وفي بريطانيا العظمى والمانيا . وقامت موجة شديدة من هذه الاضرابات ، عام ١٨٨٩ ، وعطل عمال الارصفة في الجزيرة كل نشاط في موانئ انكلترا لمدة خمسة اسابيع متوالية ، وفازوا بمطالبهم بفضل ما لقيت حركتهم هذه من عطف عليهم لدى الرأي العام ولتضامن العمال الاستراليين معهم . وقال عمال المناجم في منطقة الروهر من الامبراطور غليوم الثاني ، بعد ان تحلى عن بيسارك وصرفه ، وعداً بتطبيق مبدأ العمل لمدة ثمانى ساعات في اليوم . وعلى أثر الحوادث الدامية التي وقعت في ديكازفيل ، يحاول عُسُد ، على غرار هندمان عبر المانش ، ان ينقل الحركة العمالية النقابية ، الى الماركسية ، كما ان البلاد الواقعة في الجنوب شهدت ، هي الأخرى ، حوادث دامية عديدة .

واخذت اسعار الحاجيات تهبط ، بعد عام ١٨٩٠ ، وتميزت سنوات ١٨٩١ و ١٨٩٣ بالازمات الشديدة التي شهدتها . وقد قابل هذه الحركات تصلب من قبل أرباب العمل في مواقعهم ، في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، لا سيما وقد اخذت الحكومات تجزء شديداً لحوادث القتل والاعتبالات ، بعد ان سادت الفوضى نتيجة لردة فعل قوية فسالت الدماء غزيرة في مدينة فورمي ، كما ان المرضين حققوا لهم بعض النجاح المحلي في مدينو كارمو . وقد تغلب عمال المناجم على أمرم في مقاطعة السار والروهر ، وتحول قسم من نشاط المحاد العمال الى الجمعية الفايسانية عدوة العنف والضغط ، كما انهج بلوتيه نحو العمل السياسي البرلماني ، واستطاع ان يثير بنجاح كلي ، في بورصات العمل ، فكرة انشاء نقابة ضخمة مستقلة تماماً عن الاحزاب السياسية ، عرفت بالتحالف المالي العالي . وتم شئ من هذا الانقسام بين اعضاء الحركة المالية في ايطاليا نفسها ، وفي اسبانيا ايضاً . اما العمال في المانيا فقد وضعوا ثقتهم بالحركة الديمقراطية الاجتماعية التي راحت تظعن بقدرة الحركة النقابية .

وضع رايبو ، عام ١٨٥٢ ، بحثاً نشره في « موسوعة الاقتصاد السياسي » جاء فيه : « ان الحديث عن الاشتراكية يكاد يعني نعيماً لهذه الحركة والقائه رثاء فيها . فالجهد المبذول للنشر الاشتراكية انقطع ، ومدلولها غمض وجف . فاذا ما استمر

الحركات الاشتراكية والفوضوية
عام ١٨٦٠ الدولية الاولى
ركرمون عام ١٨٧١

الشغف لهذه الحركة ، فتحت ستار آخر وتحمت تفريرات أخرى . وبالفعل ، فهذه الحركة الثورية التي اصيبت في الصميم والتي تلبس نشاطها الواناً واشكالاً شتى : كالأميرات والجمعيات السرية ، واقامة الحواجز في الشوارع والأزقة ، اقتضى لها عشر سنوات لتميد تنظيمها ولتتخذ لها عبرة وعظلة من تجربتها الأولى .

والساعة الحاسمة في نظر ماركس هي فترة التريث والانتظار الجاهدة ، انتظار الحادث الاغراضم «الرأسمال» الذي انصب على وضعه ونشره فاصدر منه الجزء الأول . وقد كرسه لتحديد خصائص الرأسمالية وتوضيح ميزاتهما بدقة ، فكلمات السر والشمارات التي جاش بها « البيان » هي التي شقت طريقها وتبدأ والحق يقال ، الى العقول والنفوس . فال مفهوم الرومنطريقي عند المهذبين

للانقلاب بالقررة يُعد سراً وفي الخفاء، وتقوم بتنفيذه أقلية حازمة صلبة العود والرأي، يتمثل على الاخص، في تلاميذ بلانكي « الشيخ » و « السجين » . وقد اصطدم نفوذ ماركس بالدعوة للاشتراكية على الطريقة اللاسالية، وبالروح الفوضوية. ولاسال الذي رضخ لاحكام قانون الاجور الشديد، أزم نفسه بعدم الدفاع عن المطالب التي تقدم بها العمال، كما رأى نفسه مضطراً للتفاوض مع بسبارك حول الشروط التي قد تؤول الى الاتفاق بين الدولة المشبعة بروح العطف الابوي وبين الطبقة العمالية، وهو وضع يعيد الى الذاكرة التنازلات التي قام بها برودون الطاغية في الثاني من شهر كانون الاول، بحيث ان انصاره زرعوا في قلب الحركة الاشتراكية الديموقراطية، جرثومة الاتفاقات التي يمكن التوصل اليها في مفاوضة زعماء الرايخ. وما هو اوسع من هذه الحركة وأرحب، النظرية الفوضوية؛ فالروح التحررية المطلقة تكسح فرنسا وسويسرا وقسم كبير من البلاد الى الجنوب، وتتغلغل بين العمال وبين فريق من طبقة البروليتاريا من انصاف سكان الريف وأنصاف سكان المدن، الذين لا يرون في جماهير الثورة الاجتماعية غير بغض السلطة وكرهها، والرغبة في التحرر منها. وها هو ماركس يلتقي مع برودون، برودون هذا الذي نشر على الملأ شعارات هزت كل شيء في طريقها، منها مثلاً تصريحه: « ان الاشتراكية ليست بشيء، ولم تكن شيئاً لأن ولن تصبح شيئاً في المستقبل، » و كلمته المأثورة الأخرى: « من المستحيل ان لا تقضي الاضرابات التي تعقبها زيادة الأجور الا الى التشديد بالمطالبة بأكثر، وهذا شيء واضح وضوح ٢ + ٢ يعملان ٤ ». وقد رد ماركس على ذلك قائلاً: « نحن ننكر هذه التأكيدات في الاساس باستثناء القول ان ٢ زائد ٢ يعملان ٤ »، ماركس هذا الذي رأى في كل تنازل تقوم به الرأسمالية تنازلاً يفضى بالتالي الى اضعافها واهانتها.

والحال فالنظرية الفوضوية (على مذهب برودون) التبادلية، الفدرالية، المضادة للاكليروس، اذا ما التقت بالبلانكية في شعارها: « لا إله ولا رب عمل »، ليست ببعيدة قط عن الجماعية الفدرالية المضادة لكل سلطة، هذه النظرية التي راح باكونين يحاول نشرها في جميع انحاء اوروبا. « انا أمقت الشيوعية - راح ينادي هذا البوهيمي في مؤتمر السلام والحرية المعهود عام ١٨٦٩، لانها تؤلف نقيضاً للحرية، اولا، ولأنه يستحيل علي ان اتصور شيئاً بشرياً يفتقر كلياً للحرية ». وباكونين الذي يُسلم بقانون الأجور الحديدي يرفض رفضاً باتاً دكتاتورية البروليتاريا ويقف بجانب البؤساء، بجانب الفلاح الرومي الموجيك. وقد رفض ماركس الدعوة الى ثورة اشتراكية اوروبية تقتصر على عالم الزراعة وتنحصر في هذه الاقوام الروسية والسلافية العاملة في مجالاتها. ففي زعمه ان البروليتاريا الواعية القائمة في فلك دولة رأسمالية هي وحدها تستطيع ان تفعل وتعمل بنجاح، كما راح يحذر من هؤلاء الذين لا طبقة لهم في *Lumpenproletariat* الذين ليس بوسع الفوضوية تفاديهم. أهو احتقار الالمانى للسلافي - هذا السلافي الذي يبحث صدره بكره بفيض للمزاج اليهودي؟ أهو احتقار هذا البورجوازي الصغير المستكين، في قلب الفرنسي برودون؟ هنالك من ظن ذلك وقال به. الا ان تشابه هذه النزعات وتعارضها أمر واقعي،

قائم بالفعل . فهو ينعص العيش على الحياة الدولية .

وفي عام ١٨٨٤ ، جرى عماد الجمعية العمالية الدولية على يد النقابات العمالية والعمال المتخصصين في فرنسا الذين وقّعوا المنشور المعروف بـ « بيان الستين » الذين كانوا تعاونيين اكثر منهم نقابيين . ومع ذلك ، فقد تولى ماركس نفسه إعداد خطبة الافتتاح ، وأخذ بمناهضة كل من البرودونية والباكونينية ، وراحت منذ ذلك الحين ، الاختلافات والشقاكات الداخلية تعمل على ايمانها ، مع انها بقيت توحى الرعب وتسمر الخوف في قلب الحكومات . وامتدت مظاهراتها الى كل مكان ، حتى الى الولايات المتحدة واميركا اللاتيلية . الا انها عجزت كلياً عن قطع الطريق على الحرب ، وعن انقاذ الكومون في باريس عن طريق إثارة ثورة شاملة في اوروبا ضد المجتمع البورجوازي .

وما هي الكومون ، يا ترى ؟ فتنة طارئة قام بها سكان باريس ، بعد ان اتزل بهم الحصار الطويل الذي تعرضوا له ما اتزل من آلام وعذابات وحرمان ، وبعد ان شاهدوا هول الهزيمة التي أصيبت بها فرنسا في الحرب ، وعملية استسلامها ، والفوز الانتخابي الذي حققه النبلاء « الريفيون » . وقد تسربلت سربال سلطة بروليتارية ، وهي سلطة وهنة لعمرى ، محصورة في مدينة ضخمة منزلة ، محدودة الموارد ، والتي رفعت ، بالرغم مما انتهت من انقاسامات ، العلم الاحمر ، وأقرت فصل الدولة عن الكنيسة ، وألغت العمل ليلاً في الافران والمحاجر ، وشجعت قيام « جمعيات تعاونية ذات رأس مال مشترك لا يمكن التصرف به او مسه » ، واقترحت وضع منهج فدرالي ، شعوبي لدولية ، له اتجاهان رئيسيان يمكن لهما ان يتلاقيا . فبعد ان غلّبت على أمرها في معركة طاحنة ، دونها بكثير أهوال ثورة ١٨٤٨ ، فقد خلفت وراءها دويماً مجاوبت اصدائه بعيداً . وأدت هزيمتها الى هزيمة الشيوعية الدولية الأولى ، الأمر الذي اتاح لتبير ان يلاحظ معقباً : « لم يعودوا يتحدثون عن الاشتراكية ، وحسناً فعلوا ، فقد تخلصنا منها » .

حدثت انطلاقة جديدة عندما راح تلاميذ لاسال وماركس الامارت
نشأة الاحزاب الاشتراكية
يشكلون عام ١٨٦٩ ، الحزب الذي عُرف بالحزب الاشتراكي
رتاليف الدولية الثانية
الديموقراطي . صحيح ان مؤتمر غونا وضع برنامجاً معتدل اللمجة ، خصه
ماركس بنقد لم ينشر الا سنة ١٨٩١ . وقد عد هذا الحزب اذ ذاك ، مليوناً ونصف مليون من
الاعضاء ، كما انه تمثل في مجلس النواب بـ ٣٥ نائباً . وقد استمد هذا الحزب ما عُرف به من روح
الصراع والمقاومة من هذا الاضطهاد الذي اصطلاه به بسبارك اكثر من إرداتسه الثورية ، واذ
اصبح بعد وقت قصير من الزمن القوة الصناعية الاكثر والاحسن تنظيمياً في اوروبا جمعاء ، فقد
قدمت المانيا للعالم اجمع نموذجاً للاشتراكية النيابية حسنة التنظيم والانضباط عُرفت بالحدرد
والحسبان .

وهذا النموذج الجديد للاشتراكية برز كثير التعميد والتشعب في البلدان الاوروبية الأخرى .

ان تطور المؤسسات والنظم التمثيلية ، وتوسيع القاعدة الشعبية للانتخابات ، وقصور المكاسب التي حققها النقابيون ، والنتائج الضئيلة التي أدت اليها الاضطرابات ، كل هذا ومسا اليه ، ساعد على ظهور الاحزاب الاشتراكية على المسرح السيامي بعد ان تقاسمتها فئات المطالبين بالحرية المطلقة ، والحزب الاصلاحى والحزب الماركسي ، وهي احزاب أخذت توهي بمجابهة الاحزاب البورجوازية ، على اساس من المعارضة المنهجية . اما الحزب الاصلاحى فقد تعرض للغوص في الوحل ، في تعاونه مع السوسيال ديموقراط الذين يكرهون الجماعة . وقد أطل علينا من جهة أخرى ، في الاطار الوطني ، بصورة اوضح ، مزاج خاص يؤدي حركة يجب ان تتصف بروح دولية . وهكذا طلع علينا عدد لا يحصى من الفئات والاحزاب السياسية ، اخذت لها لبوساً شتى : إصلاحياً (المستطاعية في فرنسا ؛ النزعة الشرعية او التطورية في ايطاليا) ، بينا لبس الآخرون لباس الماركسية (هذا وضع حزب العمال في غسد) وحزب العمال في بلجيكا الذي اتخذ قاعدة شعبية له التعاونيات ، ووطد نفسه حزبياً بلدياً وفقاً للتقاليد البلدية المرعية في البلاد الواطية ، ومن الوان الحزب العمالي الثوروي الحزب المعروف بـ *Communallisme* الذي كان يرمي الى اقامة سلطة بلدية فوضوية او شيوعية الذي ابتعد بدوره عن اتحاد العمال الاشتراكيين في فرنسا ؛ كما ابتعد عن مذهب الاستطاعية *Possibilisme* الذي هدف الى السيطرة على المصالح العامة بينا تألف المذهب الفسدي مع بلانكية اللجنة المركزية الثورية . فقد أوجد له انصاراً في الشمال ، وفي الوسط حيث تقوم صناعات التعدين بينا تعتمد الاستطاعية على منطقة باريس .

وخلافاً لما يجري على القارة ، بقيت بريطانيا المظمى مستمكة بالنشاط النقابي ، اذ آثرت المنظمات العمالية ان تؤثر على الحزبين التقليديين معاً في البلاد دون ان تلحسق أي ثشوش أو اضطراب باللعبة البرلمانية المعمول بها . فقد انتخبت ، عام ١٨٧٤ ، عاملين اعضاء في مجلس العموم ، و ١١ نائباً من « العمال الاحرار » الذين اعطوا اصواتهم لغلادستون ، كما ان حزب الاصلاح الاشتراكي ، راح على مثال رسكين ، يحلم بالمدن ذات الحدائق ، وبمناهج تربوية كالجمعية الفابية ، مثلاً (انشئت عام ١٨٨٤) . وعندما رأى حزب العمال المستقل النور عام ١٨٩٣ ، فقط كان ظهوره دعماً قوياً للنظام البرلماني .

وعندما توفي ماركس ، عام ١٨٨٣ ، بدا للناس وكأنه اعظم بكثير مما كان في حياته . والجزء الاول من كتابه : « رأس المال » صدر عام ١٨٦٧ ، وترجم من بعد ، الى الفرنسية فالانكليزية وعرف عدة طبعات له بالالمانية . وقد تابح المجلس رسالة المعلم والحز العمال العظيم . كذلك ترجم « البيان » الى عدة لغات ، والدعاء الذي وجهه الى انشاء البروليتاريا بالاتحاد والالتفاف حول العلم الاحمر ، تجاوزت اصدأؤه في جميع اطراف العالم . وقد كتب فيه ادوار فيان قائلاً : « ان منزلة ماركس من هذا العصر ، بالنسبة للمعوم التاريخية والاجتماعية ، هي منزلة دارون من المعوم الطبيعية . هذان الاسمان يبرزان فوق العلم الحديث . فاما احد سام

مثلها على تسليح العقل البشري وتحريره كما فعلا .

هنالك جهود يبذل لتنظيم الشيوعية الدولية وجعلها فوق كل النزعات الاشتراكية وخلال المرض الدولي في باريس عام ١٨٨٩ ، عقد مؤتمر سيطر عليه الماركسيون اتخذت فيه توصية بهذا المعنى وفيه اتخذ القرار يجعل اليوم الاول من ايار في كل سنة يوم مظاهرات عامة في جميع انحاء العالم ، بحيث يطالب العمال في كل صقع ومصر ومدينة ، السلطات العامة بجعل ساعات العمل في اليوم ثماني . وقد تميز اول ايار عام ١٨٨٦ ، في مدينة شيكاغو بفتنة لاهبة ، أخمدت بالدم .

وقد نبذ انصار الحرية المطلقة الماركسية والمذهب الاصلاحى ، على عهد الاغتيالات الفوضوية السواء لشجبتها كل دعاوة ذات طابع انتخابي ، وقد هبت على روسيا منذ عام ١٨٧٠ موجة جارفة من الارهاب . وعقد المذهب الفوضوي ، في لندن ، عام ١٨٨١ ، مؤتمراً كان من بعض مقرراته اللجوء الى «اعمال العنف» ، ورفع العلم الاسود . وستصبح الولايات المتحدة من جهة ، واروبا الغربية من جهة ثانية ، مسرحاً لحوادث الاغتيال توجه ضد الافراد وضد المقتنيات . وحركة الاضطرابات هذه اشتدت في كل من فرنسا وبلجيكا ودول جنوبي اوروبا ، دون ان تستثنى دول اوروبا الشمالية . وقد نهض الابرلنديون بهذه الحركة في الجزر البريطانية قاصرين دعوتها للاضراب على بعض الاوساط التي اظهرت بعض الاستعداد لتقبل نظريات برودون وباكونين الهدامة . وعملت هذه الحركة في كل من ايطاليا واسبانيا ودول اميركا اللاتينية ، على إثارة الفتن وحرضت على القيام بها . ووقعت محاولات اغتيال عديدة ضد الملوك ورؤساء الحكومات في الوقت الذي استهدفت فيه حركة القمع توجيه ضربة شديدة ضد الاشتراكية . وتحت مكافحة الاعمال الموجهة ضد الروح المسكوية اخذت الحركة المطالبة بالحرية المطلقة تتغلغل بشدة بين النقابات وتوجهها نحو نهج سياسة مستقلة عن الاضراب وخاصة نحو المطالب التي تهدف صراحة الى الثورة .

« الارض منقطعة يبحث القلى . ففي هذا المشهد المريع الصراع المفتوح ضد الاضرابات العمالية
درس وعظة » (تبير - ٢٢ ايار ١٨٧١) .
ضد الاشتراكية

وراقت المحاكم تصدر احكامها تباعاً ضد هذه النظريات وضد الرجال الذين يقفون في وجه النظام الرسالي ، واخذوا يصورونهم ، بالكلام والكتابة ، اعداء السلطة الشرعية والحريات . فيهم الخطر كل الخطر على الامة وعلى السلام الدولي . فانضمت الكنائس الى العلمانيين للتدليل على ما هو عليه هذا الفريق الآثم من شر خبيث . وراح البابا بيوس التاسع يشجب بقوة هذه التعاليم التي ينعوتها شيوعية « وهذه الانظمة الممنوعة ، وهذه الاضطرابات التي تهدف الى مخالفة الشرائع للساوية والارضية » ، كما ان البابا ليون الثالث عشر . هاجم بمثل هذا العنف والشدة « هذه الطائفة » التي ترمي الى هدم حق التملك ، هذا الحق الذي هو من حقوق الانسان

الطبيعية ، والتي تغذي في النفوس ، « حقد الفقراء على اصحاب الاملاك » .

وارباب الاعمال يلجأون الى السلطات العامة عندما يرون انفسهم مهددين بالخطر ، وكثيراً ما يأخذون المبادرة بأنفسهم . « فأنا حر باستخدام من ارغب باستخدامه في معاملي ومصانعي » ، كان يصرح شنيدر لوفد من العمال جاء لمقابلته في كانون الثاني (يناير عام ١٨٧٠) ؛ « وفضل الف مرة ان تحمد النار في مسابك معاملي وتنطفئ الى الابد ، على ان انصاع تحت الضغط والتهديد » . وفضل جواب وانجع رد على محالفات العمال هو الطرد من الخدمة وهي طريقة كثيراً ما اعتمدها ارباب العمل من الانكليز ، منذ عام ١٨١٥ . وقامت بين ارباب العمل اتفاقات بالتراضي ، فتألفت في ايطاليا محالفات ليس بين ارباب الصناعة فحسب ، بل ايضاً بين الملاكين واصحاب الاقطان الضخمة الذين اخذوا ينظمون حركة المقاومة في وجه المطالب التي يتقدم بها المربعون والعمال المياومون .

العاملة الابوية والتشريع الاجتماعي
حدد الخبير الاقتصادي المتحرر لاروا بوليو الاشتراكية بانها « حالة مرضية » . فكيف يمكن ، يا ترى ، معالجة هذا

المرض ومداواته ؟

بلغ من حدة القضية العمالية بحيث لم يعد من المستطاع تجاهلها ولا مواجهة حلها بالبطش والعنف . وراح المعينون بالامر يقلبون الرأي ويمعدون الابحاث والتحقيقات حول هذه المشكلة الاجتماعية ، موجهين الاضواء الكشافة لاكتناها على الوجه الصحيح ، معربة عن حقيقة العذابات والضنك الذي يكتنف وضع العمال ، والذي راح كل من ميلرميه وفيلنوف بارحوننت يميطن اللثام عنها ، قبل عام ١٨٤٨ . فقد ارتسمت ، من جهة ، حركة ، تعاطف اشتراكية من وحي مسيحي ، قابلها من جهة اخرى ، بين احرار البورجوازيين ، حركة ، انسانية علمانية ، وحدت بينها رغبة مشتركة في تخفيف ، ان لم يكن في ازالة ، هذه المساويء والشورور التي تكتنف الطبقة البروليتارية ، وذلك عن طريق الاخذ باصلاحات لا تتعرض ، من قريب او من بعيد ، لمبادئ الملكية الخاصة ، ولا تضر قط بجزية العمل ، فعلى الطبقات الموجهة ان تفهم الوجبات المترتبة عليها ، كما على الطبقات المرهقة ان تعترف باخلاص ونزاهة ، بالانجازات الاجتماعية التي تحققت لخيرها ونفعها .

وقامت البروتستانتية هنا بحركة اجتماعية شديدة جاءت تتجه لهذا العمل الاجتماعي الطيب الذي قامت به بعض الطوائف ، ووفقاً للبدا الذي قال به وعلم بنتهام . فقد خطر لذرائلي نظام ملكي يستن له سياسة ابوية نحو العمال ، ولم يبد قط ان عضو المحافظين هذا كان بعيداً عن بسشارك في النظرية التي قال بها للضهان الاجتماعي . وقد خيم على النقابية العمالية جوديني بعث الدفء في الجمعية القابليانية ، ودفعت نحو حزب العمال العصبية المسيحية الاشتراكية وفي المانيا كانت فلسفة فخت والفلسفة الهيغلية قد مهدتا الطريق امام نظرية الدولة الابوية او الدولة العطوف .

ومن جهة اخرى ، فقد وجدت النقابات في المنهجية التاريخية عذرا لها وتبريراً لفوائدها ، هذه المنهجية التي انبثقت منها مدرسة روشير وهيلبراند وبرنتانو ، التي كانت تدعي بأنها تنبثق من الواقع وبأنها تحسب حساباً للتطور سيراً منها مع مذهب التقليدية الذي قال به الفقيه سافيني . ومهما يكن ، فقد أطلقت علينا حركة اشتراكية طموحة تبنتها الدولة في إثر روبرتوس بعد ان تشبع لاسال من كتابه : « مسائل اجتماعية » وكذلك شمولر وادولف وغنر . والمنهاج الذي وضعه أيزيناخ هو بمثابة اعلان حرب حقيقي ضد مذهب كويدن الذي كان من بعض تأثيره على بسمارك ان غرس فيه اليقين ووطد فيه الاعتقاد بان الامبراطورية الالمانية ستعرف كيف تصبح ، بمد لأي قصر ، نموذجاً يحتذى للدول الابوية .

وقد قام بين البروتستانتية الفرنسية والفلسفة الوضعية اكثر من نقطة اتصال استطاع رينان ، في اعقاب حرب ١٨٧٠ ان ينتقد « حب الذات » مصدر الاشتراكية ، والحسد مصدر الديمقراطية ، كما اعجب تين بالروح التجريبية التي تمت للبريطانيين اعداء التجريد الكاسح . فهم يتمنون ، على شاكلة ليطريه ، حكومة رائدها العقل ، إصلاحية بحكمة وتعقل . فمقلية هؤلاء الجمهوريين الذين يشكلون الدولية الثالثة ويوجهونها تبرز ايضاً في هذه المحافل الماسونية حيث تدرس الموضوعات الانسانية الطابع وتناقش . فهي مدينة بعض الشيء لهذه الفلسفة التي قال بها رينوفيه الذي بعد ان شدد على ما للانسان من منزلة وكرامة ، وعلى فكرة العدالة ، راح يوصي بفكرة التضامن والتعاقد التي تلقى على الدولة الديمقراطية واجبات شديدة من المتوجب عليها القيام بها في جو مشبع بالحرية . وها هو السيد له بلاي الذي عرف ان يربط بإحكام بين الفلسفة الوضعية والكاثوليكية الاجتماعية ، راح هذا الباحث القدير يشيد بفضائل الاسرة ويعتمد على الاخلاق اكثر من اعتماد على التشريع في سبيل تحسين العلاقات بين العامل ورب العمل ، ويرجو ان يعامل هذا ذلك كما يعامل الاب ابنه . ولكن كيف السبيل لتجمل من المعمل او المصنع شيئاً اشبه بالاسرة ؟ اليس بالعمل على إعادة الروح النقاوية ؟

هنالك فريق من الكاثوليك المحافظين يتطلعون الى النظام القديم بما تحلّى به من مراتب مسلسلة ومن طابع مسيحي ، ونذر كل من المركز دي لاتور والكونت دي مون-وكلاهما من ضباط الجيش المحترفين اعجباً وما في الاسر في المانيا ، بالانجازات العظيمة التي حققها المطران كلير ، نفسها لتأسيس نواد للمسال الكاثوليك . وراح الاتحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية واتحاد فريبورغ الذي يمت فيه المطران فرميلود النشاط ، يسلقان بالسنة حداد النظام الرأسمالي و « عبادة العجل الذهبي » وتجلت فعلاً عام ١٨٨٦ الديمقراطية المسيحية بظهور الجمعية الكاثوليكية للشبيبة الفرنسية . وراح ليون هارمل من جهته يقوم بعمل رسولي خليق بكل تقدير في اوساط اصحاب المعامل الكبرى . واخذت هذه الارادات الطيبة تتوقع صدور إشارة مامن قداسة البابا . وتردد البابا ليون الثالث عشر في الامر ، وشجب النشاط الذي كان يقوم به فرسان المعمل في الولايات المتحدة الاميركية ، وابى على نفسه ان يؤازر هذا الفريق

من إنشاء فرنسا الذين لا كلمة مسموعة لهم عند الزعماء الجمهوريين . ومع ذلك فرؤساء الاساقفة غيمونز وايرلند اخذا يعطفان على التقابيين الاميركيين ، كما ان رئيس الاساقفة مانتغ راح يبذل وساطته لصالح عمال الارصفة المضربين في لندن . وثناء « الالتفاف » او التجمع حول الجمهورية الفرنسية الذي توقع الفاتيكان منه ان يعمل «التهدئة» الى البلاد، قد يعني ايضا اتفاقاً ضد الاشتراكية، من هنا تبدو اهمية البراءة البابوية التي يمكن اعتبارها البراءة الكاثوليكية الاولى للحركة الاشتراكية . وفي خطابه للحجاج الفرنسيين الذين قابلوهم برئاسة دي مون ، راح البابا يؤكد بأن « القضية العمالية والاجتماعية لا يمكن لها ان تلاقى حلها المرجحى والعمل في الشرائع المدنية الصرفة حتى في افضلها . فالحل الامثل يتوقف كثيراً على الضمير والوجدان » .

كان من المفروض على السلطات المدنية والكنيسة ان تتعاون معاً وفقاً لتقاليدهما لتأمين القيام باعمال الاسعاف والوقاية. الا ان اعمال المؤسسة كانت تروح بالاحصاء الى المرضى والمشمولين والاولاد الذين تخلى عنهم والدوم، وقليل جداً الى الاسر المستورة. وقد جاء في تقرير وضع عام ١٨٧٤ : « التشريعات الفرنسية التي تنظم الاحسان اساسها المبدأ القائل ان واجبات المجتمع الادبية ان لا يترك متألماً ما دونها علاج. فالاحسان الموجه للمعوزين لا يمكن المطالبة به كواجب مفروض » .

شهدت المانيا اول ما شهدت طلوع الدولة الالمانية ، وذلك عندما صدر فيها اول تشريع يحمل الضمان الاجتماعي إلزامياً . وقد تبلور مفهوم هذا الضمان ، شيئاً فشيئاً ونجلى على أتمه بإنشاء تعاونية وصندوق نقابي . ثم صدر قانون آخر اولى الحكومة صلاحية تشكيل ادارة خاصة أنيطت بها مهمة مراقبة النقابات المهنية التي تنشأ فيها صناديق اسعاف . ومع ذلك فبسمارك يتردد كثيراً قبل ان يخطو الخطوة الحاسمة وذلك لارتباطه باتفاق مع حزب الاحرار . وراح الكاثوليك في المانيا والحزب الانجيلي يطالبون بتسريع سيج حول العمل والعمال بحيث يقطع الطريق على الدعاية الاشتراكية . وفي بيان له منشور ، راح الحزب الوسط في الرايشتاخ يعرب عن تمنياته باستصدار قانون خاص ينظم العمل والعمال . وبعد ان اعتمد مستشار المانيا على حزب المحافظين والحزب الكاثوليكي ، فاز بالتصويت على الضمانات الثلاث : ضمان الحوادث ، ضمان المرض وضمان الشيخوخة والمعجز عن العمل . إلا انه رفض ضمان البطالة والاضراب . وبعد ان راح يستشهد بفكرة الطمانينة ، دعا أرباب العمل والعمال للتعاون معاً تحت رعاية الرايخ كما عزم عزمياً أكيداً على تنظيم العمل بما يضمن ازدهار الاقتصاد الالمانى . ولما كانت الامبراطور مشعباً بروح السلطة ، دعا غليوم الثاني الى مؤتمر دولي للنظر بامور العمل يعقد في برلين عام ١٨٨٩ ، راح فيه يمثله الشخصي يؤكد قائلاً : « لما كان العمال لا ثقة لهم باخلاق البورجوازية ، فهم يتوجهون بمطالبهم نحو التشريع الرسمي » .

وقد اعترف للعامل بجزية تشكيل الاتحادات العمالية مع حق تأليف الجمعيات ، وهي تنازلات محسوسة نعم بها العامل . كان ذلك ضربة شديدة توجه للروح التحررية الفردية بنوع

خاص كما تؤلف الى حد ما عودة الى فكرة التجمع المهني والمسلكي . ولما كانت هذه الحركة الاصلاحية لا تطبق على الموظفين والعمال العاملين في خدمة الدولة ، كان باستطاعة ارباب العمل ان يستفيدوا منها فائدة كبرى . ولما كان القانون الفرنسي الصادر عام ١٨٨٤ يخضع النقابات للتفتيش ويقصر نشاطاتها على الدرس وعلى الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والصناعية والتجارية والزراعية ، كان المطلوب ، حسب رأي غسد ، تطبيق قانون لوشابليه على « مقتضيات الرأسمالية المستجدة » وبدرجة اقل إلغاء هذا القانون . ومهما كان من الامر ، فالاعتراف للطبقات المتنافسة بحق تنظيم صفوفها ، لا يساعد على التهدئة والمسالة ، الامر الذي اولى النقابة المختلطة هذا الحق الذي تتمتع به في بعض الاوساط الكاثوليكية . والحال ، لم نر في اي محل كان ، طريق التوفيق والتهدئة تعمل بصورة فعالة (من ذلك مثلاً الطريقة الفرنسية التي توصي بتأليف لجنة محكمين اعضاؤها منتخبون بين العمال وارباب العمل او لجنة من المحكمين ، كما هي الحال في كل من المانيا وانكلترا)

والتشريع الذي صدر بشأن «العمل:مداه وظروفه» ، كان هو الآخر كردة فعل ضد النظرية التحررية^(١) . تاريخ معقد ومتشعب تألف من توصيات واحكام عديدة ، تطرح دوماً من جديد على بساط البحث امام الشارع الذي يرغب في وضعها موضع التنفيذ .

قليلة جداً هذه القوانين التي تعرضت لسكن العمال . فالقوانين التي حددت في انكلترا نماذج في بيوت السكن في المدن ، توجب على المالك القيام بالاصلاحات التي تقتضيها اوضاع البيوت . وراحت بعض المدن الانكليزية ، كمدينة برمنغهام مثلاً ، باقتراح من تشمبرلان ، تدرج في التصميمات التي تضعها لتحسين المدن ، مساكن العمال . وفي المانيا كانت الدولة توزع مساعدات للمدن ولارباب العمل تعطى للشركات وتعاونيات البناء . وهكذا تصرف اصحاب معامل كروب وغيرهم من ارباب العمل . الا ان المتبع ، على الاجمال هو ان هذه النزعة الابوية والرأسمالية كانت تؤثر تشييد ابنية خاصة للايجار تؤمن لاصحابها دخلاً في السنة . فالمستخدم قلما يتمكن ، بالنظر للأجر الضئيل الذي يتناوله ، ان يستمتع بمنزل لائق مستوف لجميع الشروط .

آمال وحدود الحركة النقابية
عندما يتعاون الناس ويشاركون في انتاج بعض السلع او في تنفيذها ، لا يفعلون ذلك بالضرورة بدافع منهم للربح والإثراء ، وهي فكرة كثيراً ما راودت خواطر اعضاء الجمعيات الراغبة في الوصول الى طريقة

(١) بقيت هذه الظروف قاسية على الاجمال . فالعامل في المنجم بقي . كالسابق عرضة لامراض عدة كذات الرئة والسل ، كما ان العمل في معامل الكبريت وعيدان النعاب كان يعرض العامل للتسمم وبالتالي للموت ، وكذلك العمل بالقصدير في معامل القصدير ، وصانع السكاكين عرضة للوب لعدم استعمال ما يقبه لفتح النار ، وكذلك الزجاج الذي ينفخ بواسطة انبوب الحديد ، وهو عمل يسبب تشقق الشفاه وانتفاخ الوجنات وظهور بثور في مجرى اللعاب ، ويعرض صاحبه للفتق ولانتفاخ حويصلات الرئة .

كاملة للتنظيم او للتجديد الاجتماعي عن طريق الحرية الشخصية وفي حدودها . و فالمهدوت العدل ، الذين قامو في روشدايل ، عمدوا ، بادىء الامر ، الى تشكيل تعاونية للاستهلاك ، الغاية منها بيع حاجيات ذات منفعة عامة يشتد عليها الطلب ، بادنى سعر ممكن ، مع حسم صغير على الربح يكون بنسبة الكمية التي يشتريها الزبون الذين هم بالضرورة من حملة الاسهم في التعاونية . وقد انتقلت المدوى والعمل بهذا النظام الى حرف اخرى ، كالحبازين مثلاً . وهكذا استطاع مخزن روشدايل ان يقترح على زبائنه تنفيق بعض الحاجيات التي تولى صنعها . ولما رأى الشارع بكل ارتياح هذا المشروع ينمو ويتطور ، فلم يلبث ان اضفى عليه وجوداً شرعياً وصفة قانونية . وحدث بعد ذلك ان بعض المحلات التجارية التي تباع بالجملة ، في منشتر وفي غلاسكو ، وسعت في نشاطها التجاري بحيث امتد الى اطراف العالم ؛ وقد بلغ من إقدامهم وجراهم ان اشترى بعض مزدروعات الشاي في سيلان وارضى زراعية واسعة في كندا وحقوق النخيل في سيراليون ، حتى ان بعض هذه المحلات استحال مصارف تعاونية ، واقبلت على صناعة البسكوت ومعلبات اللحم والالبسة والمفروشات حتى والتبغ ، بعد ان كانت مثل مكسويل وامثالهم روح النشاط والحركة فيها .

وهذه التعاونيات الانتاجية بدت مغرية جذابة في نظر بوشير ولويس بلان في فرنسا . الا ان الشركاء في مشروع الاستثار هذا صعب عليهم ان يدركوا ان مصلحتهم تقوم في استثمار ارباحهم في مشروعات تتيح لهم التوسع تدريجياً في الاعمال . وكان جواب تيير لاعضاء المجلس التأسيسي الذين راحوا يطالبون ، عام ١٨٤٨ ، باعتمادات خاصة : « ليس بثلاثة ملايين يجب ان تطالبو ، بل بمشرين مليوناً . فانا على اعتماد كلي لمنحك اياماً ، اذ ليس بكثير قط ان ارفع مثل هذا المبلغ لأثبت لكم خواء هذه الشركة وعدم كفاءتها » ، ومع ذلك فقد جرت بعض التجارب في باريس . فقد عهدت الكومون الى بعض اللجان الخاصة بمهمة ادارة بعض المصانع التي تخلى عنها اصحابها ، كما ان مؤتمرات العمال التي تم عقدها بعد عام ١٨٧٠ اخذت بمناقشة الموضوع . الا ان الاشتراكيين بقوا متحفظين حيال هذه القضايا . ورأى غسد ، على غرار بلانكي ان هذا النوع من التعاونيات لن يلبث ان يحمل البروليتاريا على النعاس . حقق المشروع بعض التقدم حوالي ١٩٠٠ . اما عند البريطانيين ، فبالرغم من الدعاية التي قام بها القسيسان موريس وكنفلسي والمحاميان لدلو وفانسيارت نيل ، فقد دام إعراض الحركة النقابية والرأي العام طويلاً ، ولم تسجل القضية اي تقدم الا عام ١٨٨٤ ، مع ظهور جمعية العمل التعاونية .

اما خطة إشراك اصحاب الاجور بالارباح ، فقد جاءت اقل توفيقاً ورواجاً . فقد راح عامل رستام يؤسس عام ١٨٢٧ لحسابه الخاص محلاً استطاع ان يقنع بعض العمال بمشاركته والمساهمة به . الا ان مشروعه هذا لم يلبث ان اصبح برمه بين ايديهم . وراح المدعو غودين ينظم هو الآخر ، في مدينة غيز ، مشروع استثمار عائلي ، الا انه اضطر بعد قليل للتخلي عن مشروعه

لعمال العاملين فيه . وهناك بعض المشاريع من هذا النوع قامت على هذا الأساس ، بينها مطابع ، و *Bon Marché* ومناجم بريفز - في يوركشير ، وشركة الغاز في مدينة لندن ، ومعامل الجعة البرلينية لصاحبها بروسرت . فقد تعرضت كلها لهذه الخصومات والمنافسات التي وقعت بين الاشتراكيين واصحاب العمل .

الا ان التسليف الزراعي سار بنجاح . ومثل هذا المشروع قلما يخدم مصلحة طبقة البروليتاريا الذين لا تتوفر لهم الامكانيات والطاقت المالية ، مثلما يخدم مجموعة من صغار الملاكين الفلاحين الذين يحتاجون في اعمالهم ومشروعاتهم لعملية تسليف طويلة الاجل . فقد وضع برودون اصبعه على الجرح وحاول وصف العلاج اللازم لبرئه عندما اخذ يفكر بإنشاء مصرف شعبي . الا ان النجاح اصاب هذه المشاريع التي قامت في المانيا ، كالمشاريع التي تمت على يد رايفيزن وشولز ، فخصص اولها في الامور الزراعية كما اتجه الثاني للجميع من سكان المدن والريف على السواء . وقد فتحت مصارف من هذا النوع في جميع البلاد .

والازمة التي آلت بالريف ، في ذلك الوقت ، ساعدت كثيراً على نشر نظام التعاونيات الزراعية التي تعاطت على السواء ، الشراء او البيع او الاثني معاً . ومثل هذه المشاريع تروق للفلاح الذي يتمكن ، بمثل هذه الطريقة ، من ان يؤمن له ، كل ما يحتاج اليه من الادوات الزراعية والأسمدة ويحدد اسواقاً لتتفق محاصيله . وهكذا قامت في الدانمارك وازدهرت تعاونيات الزبدة ، كما قامت في مقاطعة الجورا ، تعاونيات للاجبان والفاكحة .

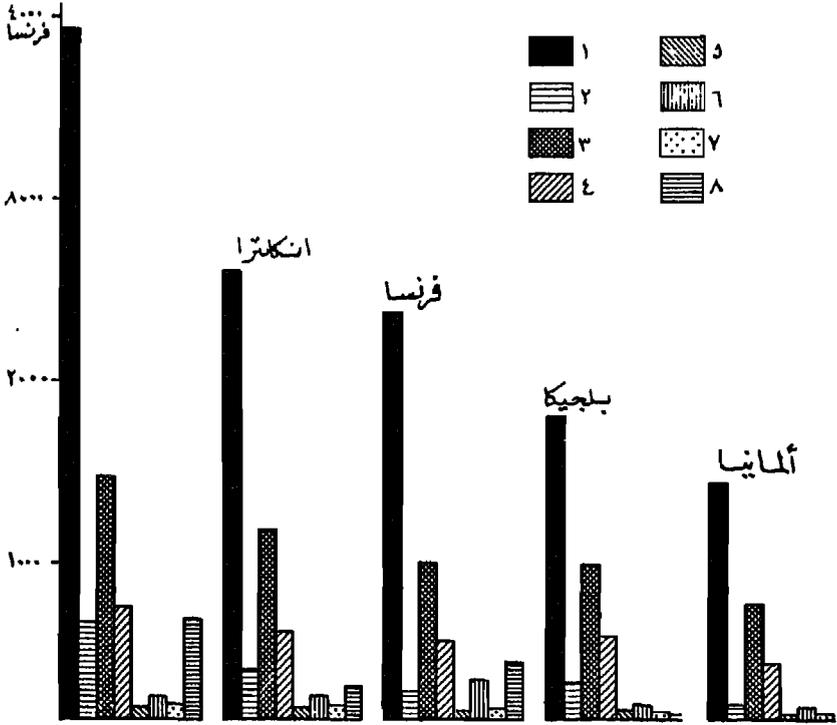
فالتعاونية ، على هذا الشكل تصبح طريقة سهلة من مصالح المهنة . فكل مهم ان تحصل تخفيضاً محسوساً لاجزائها في اسعار الكلفة وزيادة في ارباحهم ، مع العلم ان اعضاء المجتمع لا يفيدون منها بالضرورة .

وفكرة تعاونية التوزيع التي تتجه من المستهلكين عرفت الازدهار والرواج بفضل هذه الازمات الاقتصادية التي وقعت بين ١٨٧٥ - ١٨٩٥ . وراح بعض رجال الاقتصاد « العلماء » ، امثال والراس ومنجر ييثون بين الناس فكرة تقديم الاستهلاك على الانتاج ، وهي فكرة تبنتها مدرسة نيم بعد ان بحث فيها شارل جيد النشاط . وفي السويد وبلجيكا عن طريق فورويت ، وفي انكلترا بواسطة كتابات ويب ، وراح الناس يحملون بجمهورية اشتراكية لها القدرة على إشباع احتياجات الناس دون إلحاق الضرر بأجور يحمل فيها الحسم المضاف الى الراسمال محل الربح .

ويرى معارضو هذه الحركة وشاغبوها ان النظام التعاوني الذي فشل في اجتذاب رؤوس الاموال اللازمة ، عجز كذلك عن فرض نفسه في قلب النظام الرأسمالي ، واذ لم يكن في وسعه ان يبيع بالدين ، كان لا بد من ان يفشل في تقيير او تعديل الظروف التي تكتنف حياة البروليتاريا .

هنالك ولا شك فريق من اصحاب الاجور حسنت اوضاعهم
 المادية من جراء التحسن الفعلي الذي طرأ على مرتباتهم بقطع
 النظر عن التحسن الاسمي . الا ان التحسن المادي في بعض
 اوساط البروليتاريا على الاجمال هو اقل ظهوراً للعيان منه لدى البورجوازية . هل نحن يا ترى

الطبقة العمالية تحت وطأة مرض
 اجتماعي مزمن : الفقر



شكل رقم ١٩ - الاجور والنفقات السنوية . مقارنة بين ٦٢٣ أسرة عمالية

في صناعة الحديد ، موزعة بين ٥ بلدان

١ - المرتب ؛ ٢ - الايجار ؛ ٣ - العذاء ؛ ٤ - اللباس ؛ ٥ - القراءة والمطالعة ؛ ٦ - المشروبات (بينهما
 الكحول) ؛ ٧ - التبغ ؛ ٨ - الوفر .
 (تحقيق قامت به وزارة العمل الاميركية ، منقول عن غولد : الوضع الاجتماعي للعمل ، ١٨٩٣) .

امام حركة افتقار تصاعدي ؟ ان عملية مقارنة بين النفقات التي يستطيع رب عمل ، من جهة .
 تحملها ، ومن جهة اخرى ، عامل يعمل في المشروع ذاته ، تستطيع وحدها ان توفر لنا عناصر
 الجواب عن هذا السؤال . فالاحصاءات التي تمت في هذه الناحية المحصرت كلها في موازنة
 العامل .

من هذه الابحاث والتحقيقات التي قام بها مكتب العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، يتضح لنا ان العامل في الصناعة المعدنية ، مثلاً، تستهلك اعاشته نصف مرتبه تقريباً او اكثر من ذلك بقليل ، ولا يبقى له بالتالي الا القليل لايجار منزله ولباسه وتغطية نفقات نثرية اخرى كالشروبات والقراءة والتدخين ، اما السكن فيعود على الانكليزي والبلجيكي اغلى مما يعود على الفرنسي والالمانى ، او انهم يكرسون له مبلغاً اعلى نسبياً . فالالمانى يكتسي بتياب اقل جودة وأرخص بالطبع . واذا كان معروفاً عن الفرنسي انه اكثر تماطياً للشرب ، فلأن النبيذ قد عد بين المشروبات الكحولية . فالتوفير يكاد لا يظهر على البلجيكي وعلى الالمانى ، ويصبح محسوساً عند الانكليزي ولا سيما عند الفرنسي .

فاذا ما قارنا بين وضع العمال الاوروبيين والاميركيين لاتفصح لنا جليا انخفاض الوضع عند الآخرين^(١) . ومن ثم فالتوازن لا يمكن تأمينه الا بعمل المرأة ، ان الرجل ، انكليزياً كان أو فرنسياً ، لا يحصل الا $\frac{3}{4}$ موازنة اسرته والبلجيكي $\frac{3}{5}$ ، والالمانى $\frac{1}{7}$ ، والاميركي $\frac{1}{10}$ موازنته السنوية .

ان معظم الاسر العمالية التي قام بدراسة عنها في الحي الثالث عشر من احياء باريس كل من درمنبل ومنجنو ، تخصص لايجار سكنها من سدس الى نصف دخلها . وبعد حسم نفقة الايجار هذه ، لم يبق لـ ١٣٤ اسرة من اصل ١٨٦٦ اسرة جرى درسها سوى ٤٠٠ فرنك يجب ان تكفيها للسنة كلها . فالبعض من هذه الاسر يخصص من ١٥-٢٠ سنتيماً للفرد الواحد كمصروف يومي لغذائه ولباسه ، مع العلم أن كيلو الخبز يساوي ٢٥ سنتيماً ، وكيло اللحم فرنك ونصف ، والسكر ٧٥ سنتيماً . فما من احد ينفق فرنكاً في اليوم على فرد واحد . وفي بروسيما حوالي عام ١٨٦٠ . كانت الفئات الاكثر فقراً تخصص من ٦٠-٦٦ من دخلها لتأمين حاجتها من المواد الغذائية ، بينما أحسنهم وضعاً كان يخصص من ٨-١٠٪ من دخلهم . وكان العامل الالمانى في برلين الذي يشتغل في مصنع الابنوس او في ادارة سكة الحديد يقبض ، عام ١٨٨٨ نحواً من ١٠٢٤ ماركا ، يدفع منها ١٦٨ ماركا اجرة غرفة مع مطبخها (المطبخ دون نافذة) وكان ينفق على طعامه ٥٧٤ ماركا ، ويفادر مسكنه صباحاً بعد ان يكون تناول في الصباح كوباً من جريش القمح (بمثابة قهوة) مع حليب وسكر وينتقل على نفقته حاملاً معه من المقاتق ما ثمنه ١٠ Pfennigs ، ويتناول في المساء حساء من الخضار والبطاطا . والعائلة تنفق من ٢-٤ ليبرات من اللحم في الاسبوع ، ولا تخصص اكثر من ٤٢ ماركا لللبوس . وكتب المدرسة ثمنها ٩ ماركات ، كما كان عليها ان تخصص ٧ ماركات ثمن الصابون لاعمال التنظيفات . الا ان وضع الاسرة لا يسمح لها بشراء جريدة .

فالضنك والعموز هما ابدأ ضيقان ثقيلان يجلان على الاسرة بقطع النظر من هبوط الاسعار .

دليلان على تحسن الوضع الاجتماعي صحة احسن واخلاق انم
ولكن أكان من حق الناس في اوروبا ان يستسلموا لليأس ؟ ان
مدى الحياة يستطيل على الاجمال . فمعدل الحياة ارتفع ، في فرنسا ،
بين ١٨٢٠ - ١٨٣٠ ، من ٣٨ الى ٤٦ ، والشيفوخة بين الناس
خففت من تقهقر معدل المواليد في البلاد . فاذا كان هذا الانكفاء او الانحسار الذي يمكن رده
الى تناقص البؤس والشقاء لا يزال يقلق بعض المواطنين ، فتناقص معدل الوفيات يجب ان
يدخل خانة حسنات الحضارة . فقد كان معدل الوفيات ٣٦ بالآلاف في اوروبا ، عام ١٨٥٠ ،
فهبط الى ٢٦٪ خلال الفترة الواقعة بين ١٨٩٦ - ١٩٠٠ .

وطال امد الحياة لدى الانسان لان الاسباب التي كانت تعجل من وفاته اخذت بالزوال الآن
(كالحرب) او ان تأثيرها ضَمَف وخف . وبفضل التحسين العام الذي طرأ على وسائل التغذية
سجلت مكافحة المرض تطورا ملحوظا ، تبان الشعوبها ، في اوروبا ، باختلاف البلدان
والطبقات الاجتماعية ، وهو تقدم لا يمكن لاحد نكرانه . وهذه الامراض التي تسير دوماً في
ركاب الحرب كالوباء والتيفوس اصبحت الآن في خبر كان (مع أن الأول زرع الرعب بين الناس
في سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٧ ، وفي سنة ١٨٩٢ ، والثاني انتشر في جنوبي فرنسا عام ١٨٩٩ -
١٩٠٠) . ومعظم الامراض السارية ، تناقص عدد ضحاياها ؛ فالامراض الزهرية تحسنت كثيراً
وسائل معالجتها^(١) . وقد تراجع ايضاً مرض التدرن الرئوي في بعض البلدان ، كإنكلترا مثلاً ،
بينما فتنك فتنكاً ذريعاً في فرنسا . كذلك تعاطي المسكرات الكحولية التي جرت مكافحتها
بنجاح في إنكلترا والتي أقت مكافحتها بنتائج طيبة في البلدان السكندنافية وفي هولندا ، عد
من الاوبئة الجديدة التي اشتدت وطأتها في بعض البلدان ، من بينها فرنسا ، حيث ارتفع معدل
استهلاك الخمر والمشروبات الكحولية ، كما ازداد عدد محلات بيع هذه المشروبات بكثرة . كذلك
نلاحظ ارتفاع معدل الذين يدخلون مستشفيات الامراض العقلية ، ومعدل حوادث الانتحار .
ومع ذلك فحوادث الاجرام هبط معدلها .

ولما كانت غريزة الكبح في الانسان وعقيدة التكفير اخذت ترجح تسديرياً على فكرة
التخويف وعلى الامل المعقود على التأديب الاصلاحى ، فقد اخذت الشرائع الجنائية تفقد شيئاً

(١) ففي ايطاليا حيث الوفيات كانت تعد بالملايين ، هبط معدلها بين ١٨٨٧ - ١٩٠٧ من ٥٣٤ الى ١٣ في مرض
الجدري ، ومن ٨٨٢ الى ٢٢٥ في مرض التيفويد ، ومن ٥٩٥ الى ٢٥ للسلاريا ، ومن ١١٥ الى ٤٨ في
مرض الحصاف او البلاغرا . اما في إنكلترا ، فقد احصوا ، للفترتين الواقعتين بين ١٨٧٦ - ١٨٧٠ و ١٨٧٠ -
١٩٠٥ ما معدله ٩٥٩ و ١٢٥ لضحايا الحمى القرمزية ، و ٨٤٩ و ١١٦ لضحايا التيفويد ، و ٥٣٥
و ٣٠٠ لمرض الواق (الشفة) ؛ و ٢٠٨ و ١٦ لضحايا الخناق ؛ و ٢٤٤٧ و ٢١٥ لضحايا التدرن الرئوي
وهبط معدل الرجال المصابين بمرض الزهري من ٥٤ بالالف الى ٢١ بالالف في الجيش البروسيانى ، بين ١٨٦٧
و ١٩١٣ ، كما هبط من ٩٥ بالالف الى ٥٩ بالالف في الجيش الايطالى بين ١٨٦٧ - ١٩٠٥ ، وهبط من
٧٦ بالالف الى ٥٥ بالالف في الجيش النمساوي الهنغارى ، بين ١٨٧٠ - ١٩١١ ، ومن ٥٤ بالالف الى ١٧
بالالف في الجيش الفرنسى بين ١٨٧٦ و ١٩١٣ ، ومن ٢٢٤ بالالف الى ٥٢ بالالف في الجيش الانكليزي في
إنكلترا بين ١٨٨٥ - ١٩١٣ ، كما ارتفع هذا المعدل في كل حرب استعمارية (تونس - الحيشة التونسية) .

فشيئا من قوتها . ولم تطبق انكلترا منذ عام ١٨٢٣ ، وبلجيكا منذ عام ١٨٦٧ ، الا بصورة استثنائية ، عقوبة الاعدام ، بينما قررت البرتغال والبلاد الواطية ، وابطاليا فيما بعد ، إلغاء هذه العقوبة . وفي فرنسا اخذوا يواجهون تعديل احكام القانون الجنائي بقصد التخفيف من هذه العقوبة تدريجياً منذ عام ١٨٣٢ ، وبعد أن راح كل من بكاريا وهوارد ، ومن بعدها بنتام ، بمهاجمة عقوبة النفي والابعاد ، اصبحت هذه العقوبة مثالا للجدل والنقاش الطويلين في البلاد ، فقد اتجهت الافكار الى الجزائر ثم وقع الاختيار على الفويان الى ان استقر في نهاية المطاف على كاليدونيا الجديدة . وهكذا احتفظوا بعقوبة اللومان او السجن المؤبد ليس فقط عند استبدال عقوبة الموت بالسجن المؤبد ، بل ايضا لمن يحاول التعرض لحق التملك (ان شخصية جان فالجان مجرد شخصية خيالية او روائية او من مهدد امن الدولة وسلامتها) فالحكم على الضابط دريفوس كان له دويًا عظيمًا ، وقد زالت بالتالي العقوبات الجسدية من نظام السجون ، بينما رأى فيها البعض تدبيراً تأديبياً لا غبار عليه قط .

أما المرأة العاورة فقد بقي مصيرها مؤلماً للغاية . وبالرغم من الدعوة لادخالها احدى دور الرعاية او ملجأً خاصاً فقد اخضعت لمراقبة شديدة محطة وغير ناجمة من قبل شرطة الأخلاق التي لم تستطع أو لم ترد ان تضع حداً للنخاسة بين البيض ، كما ان اغلاق بيوت الدعارة في كل من برلين وفي انكلترا لم يضع حداً للبقاء . وقد تبدى للمراقبين بأن هذا التشوز يجب رده الى اليأس اكثر منه الى حب الرذيلة ، والى تحلي المضل عن ضحيته بعد ان يكون غرر بها ، والى عمل القوادين او المستثمرين للنساء والى فرض الاقامة على بنات الهوى . وكان من تأثير الاعراف والمادات المعمول بها ان كثيراً ما أدت الى اقدام الفتاة التي تضع سفاحاً على قتل طفلها كما ان الولد غير الشرعي يبقى منبوذاً في المجتمع .

وبدون أن تصبح مساوية للرجل في الحقوق اخذت رفيقته مع ذلك تتحرر شيئاً فشيئاً من هذه المقدمات التي تحط من شأنها . فباستثناء فرنسا حيث الطلاق اصبح مشروعاً ، هنالك بعض البلدان ، ممظماً على البروتستانتية ، أبحاث للمرأة قطع الرباط الزوجي كلما كانت الزوجة في وضع يجلب لها الذل وتعرض فيه للمهانة . وخلافاً لبرودون الذي لم يرَ في المرأة غير ربة منزل او خلية ، فقد استطاعت المرأة على اقدار متفاوتة من النجاح ان تفتح أمامها أبواب الجامعة والمهاند الثانوية ، كما فتحت أمامها ابواب المهن الحرة والوظائف العامة . فاذا ما أثارت حركة تحرير المرأة التي قامت في فرنسا بعض النساء امثال جورج صاند وفلورا تريستان وپولين رولان ، الحذر والتحرز اكثر من التعاطف والتشجيع ، فالدعاية التي قامت بها الآنسة فولستون كرافت ومطالبة جون ستيوارت مل بالاقتراع العام لم تذهب سدى . فقد اعترفت كل من انكلترا والسويد بهذا الحق ولو حصرته الاخيرة منها بالانتخابات البلدية . ومساهمة المرأة في تولى ادارة الشؤون العامة ، امر لا يثير ابي اعتراض من قبل الذين لا يعترفون لها بحق المساواة المدنية فحسب ، بل أيضاً يقرون بمقدرتها في كل ما يتعلق بشؤون التعليم والصحة .

فاسمع ما كان يصرح به الاب فنتوراه بهذا الصدد : « الحضارة هي قبل كل شيء احترام المرأة » .

كان اميل جيران دين يردد : « المدنية هي السلام » ثم يضيف قائلا : « الضمانة الوحيدة ضد القوي هي الوضع الذي تكون عليه المدنية » . في هذا يكمن الالتباس الخفيف . فقبل عام ١٨٤٨ كان الحلف المقدس يتحكم بالدول الصغيرة أكثر مما كان يشر كها في الحكم . ومع ذلك ، فاذا ما راح بعض المفكرين امثال جوزف دي مستر وفخت وهينغل يعتقدون بأن لا مندوحة عن الحرب ، فقد راح كثيرون غيرهم كالكويكرز واتباع بنتام ، والسان سيمونيين ، وتلاميذ فوربيه ومازيني وبرودون يجذبون تأليف بعض تشكيلات فدرالية من شأنها ، في نظرم ، ان تضع حداً للعروب . وراح المطالبون باطلاق حرية التبادل التجاري ، في كل من انكلترا وفرنسا يدلون بدلائهم في هذا الاتجاه . فاجتمع في باريس ، عام ١٨٤٩ ، مؤتمر للسلام دُعي هوغو لثروسه وأسندت نيابة الرئاسة فيه الى كويدين ، وخرج المؤثرون بالشعار التالي : « الولايات المتحدة الاميركية » ، وهذا الشعار نفسه كان شعار الجريدة التي اصدرتها عصبة السلام والحرية في اعقاب مؤتمر عقد في ما بعد ، في جنيف عام ١٨٦٧ .

وعادت الحروب للظهور من جديد ، ولم تلبث اوروبا ان عاشت في ظل سلام مسلح الحكم فيه ألمانيا البساركية ، اذ راح المنتصرون في حرب ١٨٧٠ يدعون لانفسهم انهم حماة النظام الجديد في اوروبا ، بينما الفتوحات التي حققوها ، والقوة العسكرية التي تمت لهم ، أولتهم السيطرة على اوروبا ، هذه السيطرة التي رفض البعض الاعتراف بها بينما خضع لها البعض الآخر ، وشجعت السباق الى التسلح ، وهو سباق كان يكلف اوروبا من خمسة الى عشرة مليارات فرنك كل سنة وكان يستدعي للخدمة العسكرية الفعلية من اربعة الى خمسة ملايين جندي بصورة مستمرة . وقد رضي بعضهم بهذا الوضع معترفين مع سبنسر بأن السلم المسلح هو شر اخف وله بعض الحظ بالاستمرار والديمومة ، مها بهزت تكاليفه ومهما بدا سريع الزوال ، في الظاهر .

وفكرة اوروبا واحدة موحدة ، مسيحية ، ملكية كما تمنوها في بدء الامر ، عاد لتبنيها دونما نجاح يذكر ، انصار الجمهورية واصحاب حرية الفكر الذين انضم اليهم ، فيما بعد المطالبون بحرية التبادل التجاري . وفي اعقاب حرب ١٨٧٠ ، اخذت الحركة الاشتراكية تدعو الشعوب للوقوف في وجه مستثمريهم من اصحاب رؤوس الاموال ، وان يضعوا فوق كل اعتبار ، تضامن العمال العام وتأزرهم ، بينما مضت الكنائس والنفوس المؤمنة تبتسمل وقضرن الى رب السلام ، لاشاعة السلام على الارض . وراح الفقهاء المتشرعون والدبلوماسيون يبسطون للناس مفهوم الحق العام ويعملون على توطيده . وتألفت جمعية تتولى ابراز هذا الحق والتشريع له والتسييج حوله ، كما ان اعضاء المعهد الدولي للقانون ، اخذوا بعقد مؤتمرات عامة سنة بعد سنة ، وراح مفكرون امثال لوريمر وبلونتشي ومارتنز وفيدور يطيلون النظر فيما عسى ان تكون عليه

المنظمات الفدرالية او الكونفدرالية ، كما رفع ايزمبير بذلك تقريراً عاماً رفعه الى مؤتمر الملوم السياسية عند انعقاده في باريس عام ١٩٠٠ .

وقد أثار فكرة التحكيم الدولي مخاوف وظنون الدول التي كانت تخشى ان تفقد ما هذه المنظمة شيئاً من حقوق السيادة والاستقلال . وعيناً راح مؤتمر باريس المعقود عام ١٨٥٦ يوحى بالرجوع الى وساطة او تحكيم دولة صديقة ، قبل اللجوء الى السيف . وعيناً ذهبت النتائج - ج الطيبة التي أسفر عنها مؤتمر جنيف المعقود عام ١٨٧٣ للنظر في الاختلاف الناشب بين انكلترا والولايات المتحدة الاميركية بخصوص مقاطعة ألاباما ، فأثبتت هذه القضية ان الحكم الصادر عن مجلس العدل الدولي يمكن تطبيقه . ولعل اهم القرارات التي صدرت عن محكمة العدل هي تلك القرارات التي رمت الى تحسين اوضاع الحروب والتخفيف من ظروفها وويلاتها ، من ذلك مثلاً مؤتمر جنيف الذي عقد عام ١٨٦٤ ، والذي دول الخدمات التي توفرها مؤسسة إسعاف عرفت بالصليب الاحمر الدولي ، والخدمات الصحية في الجيش ، واخيراً التوصية التي اتخذها مؤتمر بطرسبورغ عام ١٨٦٨ ، بعدم استخدام رصاص دمدم .

نتائج حقيرة جداً بالنسبة لهذه المخاطر التي هددت المجتمع الاوروي المنقسم الى دول وطنية تحافظ جهودها على ما يشبه ان يكون هدنة ، بينما تنهياً بجمرة واندفاع وبدون انقطاع للمعركة الفاصلة. هناك خطر كبير دائم يتهدد هذه المدنية التي تعمل باستمرار على تحسين وسائل التخريب والدمار ، كما تعنى من جهة اخرى ، بأسباب إطالة الحياة .

الفصل الخامس

بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط الدول الأوروبية

« قوام القومية لا يقوم على العرق ولا على اللغة »
(فوستيل دي كولانج - إلى ميم - ١٨٧٠)

وجه بارز القسما تافر التقاطع ، هكذا تبدو أوروبا في ديمومتها . فبالرغم من يسر المواصلات وسهولتها ، والكاسب التي حققها هذا الطراز السوي ذو الطابع المدني والصناعي ، فقد عرفت غرائز الدول القومية فيها كيف تحافظ على سماتها وكيف تتحامي . وقد شهدت أوروبا عمليات تجمع جغرافي وتركيز قومي . قامت على اعتبارات قومية ، ان لم تقض الى فك اوصال الملكيات الداوية والروسية ، ساعدت على التجمع الالماني والاطالي ، الا ان تفهقر تركيا وسيرها من سيء الى أسوأ فتح المجال امام « بلقنة » ، شبه الجزيرة الواقعة جنوبي شرقي أوروبا . وقد برزت بعد هذا كله ، مقلبات عدة ، تمركزت في المنطقة الشمالية الغربية المتطور ، وفي المنطقة القلبية الشمالية ، والمنطقة الواقعة الى الجنوب والى الشرق ، المتميزة بضعف حيويتها وقلة نشاطها ؛ وفي قلب معظم هذه البلدان ، بين اوفرها انتاجاً صناعياً ونشاطاً تجارياً وبين هذه المناطق الريفية الطابع والمتأخرة في تطورها ، ومن هذا التنوع والتباين العظيم في التفاصيل والجزئيات ، تبرز هذه الفوارق الكبرى التي تطبع كل عضو من اعضاء الاسرة الأوروبية .

في عام ١٨٣٨ دشنت الملكة الفتاة فكتوريا عهدا المديد الذي
بريطانيا المظى الشديدة البأس انتهى عام ١٩٠١ . اسم سعيد على ما يبدو . فقد بدأ العهد
في عهد الملكة فيكتوريا
الفكتوري كأيمن عهد في التاريخ الانكليزي ، فيه كاد يتحقق
سلطان بريطانيا الاكبر ، وسناؤها الاغر .

ومها بلغ من نشاط انكلترا ، قبل عام ١٨٠٠ ، فلطالما ارتفع صوتها بالشكوى من قلة السكان فيها بينما تجارها الواسعة واستثمار مستمراتها الشاسعة عبر البحار امنت لها ارباحاً مالية ضخمة ، بينما شكلت اطيانها الضخمة قاعدة متينة لمجتمع عقاري وارشوقراطي . والحال فقد رأت انكلترا عدد سكانها يقفز بين ١٨٠١ - ١٩٠١ من ١٠ ملايين الى ٣٧ مليون نسمة . فاسمع هتاف كبلنغ المدوي : « بني ، حملت كثيراً من البنين ولا يزال ثدياي ابعده من ان يحف حليبها » ؛ هذا هو الحصب الذي استشره ملطوس بخوف ورعدة . فقد هاجر عدد كبير منهم ! اما الآخرون ؟ هذا النسخ الحصب فرض عليها في الوقت ذاته ، تحدياً اكبر وجراًة اشد ، فاستخدمت بجرماً ما لم تستطع ارض بريطانيا وما تحت الارض فيها توفيره وتأمينه لهذا الشعب المتزايد .

فالمصير الفاشم وضعها طوعاً أو قسراً امام حتمية الاختيار : بين التجارة او الزوال من الوجود . وامام هذه الحشود المحتشدة في المدن التي توفرت لها كل ما قطع به وتريد : من اساطيل ورؤوس اموال وتقدم تقني منقطع النظير ، وامبراطورية استعمارية ولا اكبر ، عرفت بوجوازية مدينة منشتر ان تقبض بقوة على دفة السفينة وراحت تطلب الخلاص والازدهار عن طريق التبادل التجاري الحر . وهكذا فقد ضمنت الفوز والاستقرار لفترة نصف قرن ، على الاقل .

وهكذا استمرت انكلترا الشاغخة ، القديمة العهد ، في تطورها الصاعد نحو الذروة ، امام مرأى ومشهد اوروبا التي تهاز وتضطرب تحت الهزات التي تنهال عليها ، وقد قامت فيها ملكية شعبية ونظام تمثيلي مستقر ، وحكومة قادرة على تأمين الديمومة والاستمرار مع محافظتها على الحرية . وبفضل ما عرفت به من احترام عميق للتقاليد المرعية ، استمرت ادارة المنافع العامة في البلاد بيد فريق من سراة القوم آمن لهم ما كانوا عليه من غنى ورفاه ، الاختصاص واوقات الفراغ . وعرفوا بوصفهم من اصحاب الاقطان الضخمة كيف يتكيفون ، ما وسعتهم الحيلة ، مع تطور الاقتصاد الزراعي المعمول به منذ القديم ، وتعاونوا ، على اقدار متفاوتة ، مع كبار البورجوازيين الذين يوجهون اللعبة . وقد توفر للبلاد ؛ رأس مال حكيم ، فطن ، وعرف كيف يناور ويحشد ويستثمر ، ليجمع من بريطانيا العظمى ، اكبر سوق تجاري في العالم واغنى بلد دخلاً وطنياً في العالم . وهذا المجتمع البريطاني الثقيف ، المهذب الذي توفر له الى حد بعيد ، السكن المريح والاثاث والباس ، والذي صقلته الرياضة البدنية ونشطته ، والذي تذوق الاسفار ، وتعشق اللعب في الهواء الطلق ، يرى ان ثقته بالله وايمانه به لا حد لها ، تركيبها وتبرها فلسفة إنتفاعية لا ينكرها إلا كل متعنت مكابر . وهذا الاشعاع العظيم الذي عرفته البلاد في الشعر والقصة والنقد ، وهذه الاصلالة التي عرف الفنان الانكليزي ان يكتبها ، كل ذلك دل بوضوح ، على ما ركز في الطبع الانكليزي ، من شعور صادق بالواقع ، وما أوتيت من قوة التحليل ، وما طبع عليه من ميل فطري الى مباحث الطبيعة وما فيها من فنتنة وسحر ، كما ان إشرافة من الالهام تملت ثانياً الهندسة والموسيقى عند هذا الشعب .

اما المفارقات المتضادة فتطالبك عند كل مآتى عين وعط بصر . فالجغرافية منها تتمثل على أصحها في هذه البقاع السوداء وهذا الريف الخضيل المورق ، في هذه المدن التي غشاهما السواد وجلببها السخام والتي كبرت وتضخمت بسرعة فائقة ، وفي هذه المدن الغافية التي شابت وهي بعد فتاة في شرخ شبهاها . ما الاجتماعية من هذه المفارقات فاملها هذه الفروق الصاعدة الصارخة في تفاوت الثروة والغنى مما لا يتوفر بمضه في اي بلد من بلدان اوروبا الغربية ، مع العلم ان الانسان لا يتمتع في اي بلد كان ، بما يتمتع به الانسان البريطاني من ضمانات عدلية وقضائية . وهذا المشهد بالذات اوحى لماركس ببعض الاحكام النيرة : « ان العبودية التي يرسف فيها المجتمع البورجوازي ، هي على ما يبدو لنا ، الحرية الكبرى ، لانها تمثل ، على ما يظهر ، استقلال الفرد التاجز » . ومنها ايضا هذه الفكرة : « اية حرية ؟ وحرية من ؟ هي هذه الحرية التي في وسعها سحق العامل ؟ » . وهذا الوضع هو الذي اوحى لصاحبه عنوان كتابه : « حول المحطات انكلترا » الذي اخذ فيه مؤلفه لودرو - رولن ان يتلأ بسقوط بلد تقوده أقلية من هذا الطراز . ومع ذلك ان ايلاء العمال حق الاقتراع العام ، هؤلاء العمال الذين ينعمون ببعض اليسر ، والأخذ بسياسة نقابية حكيمة ، فطنة ، بتكفلان وحدهما بكبح شعب لم تستهوه يوماً الافكار الثوروية . صحيح ان الازدهار الذي حققته سياسة التبادل التجاري الحر ، لعب دوراً بارزاً في العزوف عن مسالك الوثيقية . فقد عرف كويدن وييل ان يؤمنا السلام الاجتماعي لجيل كامل ، عبر الازمات الحانقة التي ميزت الحقبة الواقعة بين ١٨٧٣ - ١٨٩٥ ، الخوف في النفوس . فالى القلق الذي استحوذ على الريف يجب ان نضيف هنا الصعوبات التي اعترضت الصناعة البريطانية ، في كفاحها المرير ، احتفاظاً منها بزائنها . ففي وجه طبقة من العمال متصلة في مطالبها ، وفي وجه المنافسة الاجنبية المنيفة ، كان لا بد من التريث والتخفيف من سرعة السير امام إمارات من عسر التنفس ظهرت على البلاد . والقضية الارلندية الحادة اقتضت حلولاً سريعة . وهذه الامبراطورية التي رحبت اطرافها واتسعت جنباتها ، أخذت تتطور كما راحت ادارتها تبحث عن صيغة استعمارية جديدة في وقت اظلم الأفق واكفر .

في قلب المملكة المتحدة التي نودي بها عام ١٨٠١ ، وقعت الامة كفاح الشعب الايرلندي الايرلندية فريسة امة اخرى ظلمت لها واخذتها بالعنف والشدّة . وبما انها بلد زراعي يقوم اقتصاده على الأرض ، فقد طلبت ان تنعم بارضها وارزاقها ، وبوصفها بلداً كاثوليكياً ، فقد راحت تطالب بتحررها الديني ، وبما انها ضمت الى بريطانيا العظمى قسراً وكرهاً منها فقد راحت تطالب بالغاء قانون الاتحاد هذا . فجل ما حقه اوكنيل هو الحصول على المساواة في الحقوق للكاثوليك . الا ان ايرلندا الفتاة هذه ، الرومنطيقية تجسوزته مبيداً في مطالبتها ، الشديدة بتشكيل دولة ايرلندية مستقلة من ضمنها الاقلية البروتستانتية في مقاطعة الاولستر ، وهو مصير رفضته الاقلية . وبعد لأي قصر وقعت الجائحة الغذائية عام ١٨٤٧ ،

وعقبها حركة نزوح عارمة جرّفت بسكان الجزيرة خارج البلاد. والمهاج الذي سببه حزب الفانسان السياسي .

أخذت الجزيرة بالانحطاط والتدهور . فقد هبط سكانها من ٨ ملايين الى خمسة فهي تعاني كثيراً من الأمية وتلكم في البؤس والشقاء ، وهو وضع حرص كبار الملاكين على إبقائها فيه . أوتى شطب هذه الجزيرة خيالاً مجنحاً وذلاقة في اللسان وعرف باستمساكه بدينه وأرضه ، وبفنى أدبه الشعبي الغاليكي ، وقد تخلت طوعاً واختياراً عن لغتها الام لتقتبس لغة المفتصب ، فانزوت الروح الكلتية في هذه المقاطعات المستوحشة في الغرب التي قسا عليها القدر الفاشم .

وبواد النفضة يجب ردما اصلا الى هذا التحول الذي طرأ على الارض التي تزرع حبوباً فحولت الى اراض للراعي والكلأ . وقد انتزعت من ايدي الوف الفلاحين الاراضي التي كانت في حيازتهم . غير ان القوانين الزراعية التي اخذ غلادستون المبادرة الى وضعها (بعد ان رضي من قبل بفضل الكنيسة الانكليكانية عن الدولة ، وبإلغاء العشر المترتب على الكاثوليك دفعه للكنيسة الانكليكانية هذه) ، جعل من المتمد الزراعي شبه شريك للمالك ، ومن جهة اخرى ، فالجهود التي بذلها بارنيل لحل البرلمان ، في لندن على قرار فصل في امر سياسة الوحدة ، والمطالبة « بوطن قومي » ادخلت الرعب في قلوب البريطانيين ، فسقط المشروع في المجلس ، عام ١٨٩٥ . واذا كانت ايرلندا عاجزة بعد عن تحقيق استقلالها فقد صرفت جهودها لتحسين تربية الماشية على ارضها وطورت صناعتها وسهلت اسباب التعليم لمن يرغب فيها من ابنائها ، وراحت تمني الروح والاعراف الكلتية في ابنائها ورفعت من مستوى الحياة فيها ، وايقظت فيهم الشعور بقواها الروحية . وهكذا ، فساعة الحرية لم تكن لتتأخر فتدق منذرة بالتحرر والاستقلال .

الازدهار يعم سكندينايا ^{بالشفقة بالنسبة لصير هذه المنطقة المجاورة لبريطانيا في الشمال . في} امام هذا التطور العظيم الذي حققه البريطانيون ، يبدو هزيبا وحريرا ^{بالشفقة بالنسبة لصير هذه المنطقة المرتفعة من خط العرض ذات التربة المسكة المفتقرة للحمم ، وصاحبة الدور الثانوي} المتواضع على المسرح الاوروبي منذ القرن الثامن عشر . فالدانمارك والسويد والنرويج التي تنقسم الجزر واشباه الجزر المتناثرة بين المحيط الاطلسي والبحر البلطقي ، عجزت تماماً عن ان تبعث الى الوجود هذا الاتحاد القديم الذي رأى النور في كلار . فشب الجزيرة السكنديناوية الكبيرة هذه ، تم توحيدها مؤقتاً بالرغم من النرويج ، ولصالح السويد . وهذه المملكة السويدية النرويجية لا يتعدى سكانها ٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ومليون دانماركي . فمتدل الوفيات فيها حال جداً وكذلك المهجرة لاشتداد الفقر فيها ، الامر الذي جعل اكثر من ٨ ملايين سكنديناويا على النزوح تباعاً عن بلادهم الى اميركا ، خلال القرن التاسع عشر .

ليس في وسعنا هنا التنبسط طويلا حول الاعجوبة السكنديناوية . فبفضل عهد من السلام استتب طويلا (اذ ان الحرب الدانماركية الالمانية عام ١٨٦٤ ليست سوى مرحلة قصيرة

اضطرب فيها الامن) ، بفضل ما تفتحت عنه هذه البلاد من نشاط جم وبعيد نظر حكيم . فقد سقطت شعوب هذه البلاد درجة من اليسر والازدهار حسدتها عليها شعوب الجزر الواقعة الى الجنوب من البحر الابيض المتوسط . فنمر سريعاً بظاهرة تكاثر السكان في هذه البلاد . فالثمانية ملايين التي ضمتها عام ١٨٥٠ وال ١١ مليون التي بلغت عام ١٩٠٠ ، بقيت ارقاماً متواضعة . وهذه الزيادة الملحوظة في السكان يمكن ردها بالاكثر الى هبوط قوي في معدل الوفيات منها الى ارتفاع نسبة المواليد .

وبخلاف البريطانيين لم ينزح السكندينافيون عن مواطنهم في الريف اسوة منهم بالارلنديين . فلم يزد عدد السكان في كل من كوينهاغن وستوكهولم على ٤٠٠ الف نسمة ، عام ١٨٩٠ . اما كريستيانيا (اوسلو اليوم) فلم يزد عدد سكانها على ١٥٠,٠٠٠ ، ولعل ابرز حادث ميز تاريخ هذه البلاد الحديث ، فهو الثورة الريفية . صحيح ان جبال النرويج الشرقية اقتصر نشاط سكانها على مقايضة محاصيلهم الزراعية . فالاسر القديمة فيها لا تزال تتمتع بالسيطرة على مقاطعات غودبرنسدال واوستردال . فالمنازل هناك معتمة ، والبياضات او الملابس الداخلية فادرة والجرب متفش ، الا ان زراعة البطاطا اتسعت وعمت اطراف البلاد ، كما اخذ الناس يعملون في غذائهم على السمك المملح . وقد جرت في الوقت ذاته ، حركة تجميع بين القطع الزراعية الصغيرة بينما انصرفت حركة عارمة من الاصلاح الزراعي الى توزيع الاملاك الضخمة فنشطت في البلاد طبقة من الفلاحين انصرفت لاستغلال مزارعها المشتتة التي كان لها من الاتساع مع ذلك ، ما جعل منها وحدة استثمار مستقلة اخذت تزدهر ، محولة في طورها الى اراض زراعية او صالحة لتربية الماشية ، الكشبان الرملية والبطائح التي تكونت بفعل الانهر والجليد . وحرية التبادل التجاري وجهت اقتصاد البلاد نحو تنقيح المحاصيل والبيس ، وفتحت امام محاصيلها من الخنطة واللحوم والبيض والزبدة الاسواق البريطانية ، كما شجعت تصدير خشب الشوح . واذ كانت السويد عاجزة عن منافسة الدول الكبرى الصناعية ، كما كان شأنها في السابق ، فقد اخذت ليس في بيع ما لديها - من فلز الحديد العالي القيمة فعسب ، بل ايضا اخذت في صنع ادوات وآليات تقنية متطورة - ازدادت نشاطاً فيها بعد بفضل الشلات ومساقط المياه وكلها قوات محرقة نذكرنا من قريب بهذه الطاقات الضخمة التي تتوفر لكندا .

والدنمارك الواقع عند مداخل البلطيق والذي ضمف مركزه ووهن شأنه راج بقوي مز قاعدته الزراعية . فقد ساعدت حركة التطور التي اخذ باطرافها على التخفيف من حدة معارضة التاج والانتها ، كما خففت مسن معارضة النبلاء والاكليروس اللوثري . وبعد ان فقد ذوقية شلسويغ هولشتاين ، اضطرب الملك كريستيان التاسع للرضوخ لمطالب الاحرار في الوقت الذي دعم فيه سلطته ونفوذه بهذه المصاهرات التي عقدها مع العائلات الملكية . الاخرى وقامت في البلاد ، حركة ادبية وفنية وعلمية حملت بعيد شهرة عاصمة السويد الجميلة .

وعلى غرار السويد فقد بقيت بعيدة عن لعب اي دور بارز . ولما كان هم الدنماركيين الاكبر صوت

مكانتهم رهبتهم الدنمارك ، فقد كان بإمكان ابناء وحفدة برنادوت ان يتولوا ادارة الاتحاد السكندينافي . ولكن الحركة السكنديناوية التي صاغتها الاوساط العلمية في البلاد ، جاءت على شاكلة الحركة الجرمانية والسلافية . كان اوسكار الاول مختصاً بالقضايا الجنائية ، فقد صرف همه الى مد البلاد بشبكة من الخطوط الحديدية وباصلاح قوانين البلاد ومكافحة المسكرات وفي عهد الملك شارل الخامس عشر ، خلعت السويد طابعها الارستوقراطي لترتدي طابعاً متحرراً تقدماً فأنشأ في البلاد مجلساً نيابياً حديثاً ، حل محل « طبقات » النظام القديم ، وعارض بشدة الاعتمادات الحربية ، وتجمعت ستوكهولم وخيم على هذه السويد النشيطة التي اطلمت اركسون ونوبل ، جو من الاحترام والتقدير العالميين . ان ادخال الخط الحديدي على البلاد والتلغراف لم يقتل فيهم ذوق *Stamning* الذي عرف ان يؤمن الانسجام بين الكائنات والاشياء . واقصر الملك اوسكار الثاني حتى الاقتراع العام ، كما كان عليه ان يواجه بفتنة ، الحركة القومية التي هزت النرويج .

اما النرويج فلم تكن تشعر قوياً بهذه الروابط التي شدتها للعرش في السويد ، وذلك لما بين البلدين من تباين في الامزجة وفي المصالح . والمجتمع النرويجي الديموقراطي القاعدة تألف اصلاً من اقوام احترفوا الصيد وعلولوا في معاشهم على البحر ، فابعدوا عنهم المواطنين الدنماركين كما قضوا على كل نفوذ بينهم لطبقة النبلاء ، عيونهم وولأهم هي باتجاه مجلسهم التمثيلي . شواطئهم المفتوحة بطولها على البحر ، واستثمارهم لمطارح السمك الغزيرة الواقعة على مقربة منهم ، ونشاطهم كساسة نقل بحري ، كل ذلك مكنهم من تقادي الفقر والموز . فقد كان لديهم عام ١٩٠٠ اسطول تجاري حل في المرتبة الرابعة بين اساطيل العالم التجارية الكبرى ، وبرر الاسطول الفرنسي من هذه الناحية . وبحق تفاخرت الامة النرويجية بنوابغ رجالها المشهورين امثال غريغ في الموسيقى وإيسن في الادب وفانسن في كشف القطب . فاشرايت نفسها للاستقلال . وحققته دونها صعوبة او هدر دم ، عام ١٩٠٥ ، وأولت العرش اميراً دانماركياً ، اتخذ له اسم هاكون السابع حكم بمساعدة مجلس تمثيلي .

والنخبة الفكرية في السويد التي كانت دوماً تنزع للفكر والادب الفرنسيين ، لم تلبث ان وقعت تحت تأثير المانيا القوي واقامت معها علائق وطيدة ، مع بقاء بريطانيا العظمى مسيطرة من جهة العلاقات الاقتصادية .

سجل القرن الثامن عشر فترة تقهر والمحطات لهذا المفترق الجغرافي الذي تألف من البلاد الواطية ، اذ ان بروز بريطانيا العظمى من جهة ، وركود النشاط في منطقة الرين من جهة اخرى ، ألحق الخسف بهذه المقاطعات المتحدة ؛ وبلجيكا التي وقعت قباعاً تحت حكم النمسا ثم فرنسا ، لم تحسن النهوض برفاقها الزراعية والصناعية فحسب بل لم تأت شيئاً لتشجيع وتنشيط الحركة التجارية في مرفأ انفرس .

ولقد شاهدنا ريسا من النشاط خلال عهد اورانج - ناسو وملكها على البلاد . الا ان الشراكة بين الشعبين عرفت اياما صعبة بمد ان غلب على البلجيكين الشعور بأنهم راحوا ضحية مؤامرة سياسية . وقد تركت هذه الملائق المسمومة شيئا من اثرها الوخيم عالقاً في الاذهان طبع بالعنف الحركات التي ادت الى شطرها شطرين متميزين مستقلين .

الا ان وقوع هاتين المملكتين في صميم اكثر بلدان اوربا اكتظاظا بالسكان ، اذ زاد عدد سكان بلجيكيا على ٦ ملايين نسمة بحيث بلغ معدل الكثافة ٢٠٠ شخص في الكيلومتر المربع الواحد ، كما ان سكان هولندا زاد على خمسة ملايين بمعدل ١٥٠ نسمة للكيلومتر المربع الواحد ، مكنها من الافادة الى اقصى حد من مركزها الممتاز ولوقوعها بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا مواجهة هذا السهل الممتد طولانيا على سيف البحر ، عند مصب ثلاثة انهر كبيرة ، وتحت تناولها مقادير ضخمة من الفحم ، مما يبعث الهمم والنشاط في هذه الحيوية التي جاشت في صدر هذه العرق الذي جاءت ازمة ١٨٤٧ - ١٨٥٤ امتحاناً جديداً له . ان التحسينات ادخلت على التقنيات الزراعية ، واستخلاص اراض جديدة من البحر ومن الرمول ، وهذه الاعمال الضخمة التي اقتضاها إستصلاح المسالك والاقنية النهرية ، والمرافىء وانشاء شبكة محكمة من الخطوط الحديدية والاقبال على التصنيع الآلي ، واعتماد سياسة التبادل التجاري الحر والمشاركة في الحركة الاستعمارية الضخمة واستثمار رؤوس الاموال المتوفرة في كثير من بلدان العالم ، كل هذه العوامل كانت اساساً لهذه النهضة ، المادة التي أملت بمرافق البلاد المختلفة . فالوسط البشري يحمل الكثير من سمات البيئة البشرية في الارخبيل الانكليزي المجاور ، وبما توفر له من اخلاقية تميزت بالفطنة والدراية والارادة الصادقة والاقبال على ما يؤمن الراحة مع العلم ان هذه الشعوب اصبحت اقل قدرة على الخلق والابداع في امور الفكر والفن مما عرف عنها في الماضي ، فانقطعت بكليتها الى عمل دؤوب ، صبور وتمتعت بسلم طويل بفضل ما نعمت به من نعمة الحياض السياسي ان لم يكن قانوناً فبالفعل .

والتطور العظيم الذي اخذت هاتان الدولتان باطرافه وجاء متوازياً بعيداً عن كل اضطرابات مقلقة موجهاً لها وجهة النظام التمثيلي ، شدما شداً قوياً الى بريطانيا العظمى . من جهة عرش تناوب عليه تارة آل اورانج وطوراً الى ساكس كوبورج ، تشبع عميقاً من هذه الامتيازات التي تمت له ، غير انه اضطر لمصانعة التمثيل الوطني والتواري امامه ؛ وبورجوازية رشيده ، حكيمة حريصة عرفت ان تحتفظ طويلاً بنظام انتخابي اساسه النسبة الضرائبية ، تنكرت للحركة الاشتراكية واخذت باسباب سياسية ابوية متحفظة ؛ هنا في بلجيكيا شعب كاثوليكي نشيط متحمس ، وهناك في البلاد الواطية ، كنيسة كلفينية ، متحفظة ، جفول ، يتعاونان في مناهضة الحركة العلمانية التي جاشت في صدر احرار الفكر من البورجوازيين . وقد تمع عهد التحرر الترضيات والتنازلات المتبادلة بين الاحزاب الدينية التي زادت نشاطاً وحيوية في توسيع قاعدة الاقتراع العام . وبعد ان انصرفت الطبقة العمالية فيها على تنظيم نفسها واكثرت من انشاء ما

ترغب فيه من نقابات وتعاونيات واستجابات لنداء التشكيلات السياسية التي تتلامم معها، راحت تناهض الامتيازات التي يتمتع بها اصحاب الاملاك العريضة .

ومن مشاكل بلجيكا المعقدة الخاصة بها ، انقسام الشعب فيها الى شطرين متباينين لغة وحضارة : شطر فرنسي الطابع والميزة اخذ بالتوسع منذ عام ١٨٣٠ ، وشرط فلمنكي راج يعرض مجاس مطالبه . أفيندو غربياً ان تفكر بروكسل ، مثلاً ، بانتهاج سياسة اقليمية تذكرنا بالسياسة المحلية الاخرى التي سارت عليها سويسرا .

هل بإمكان الجغرافيا ان تفسر وان تملل لنا كيف قامت في قلب الديرقرطية الجبلية في سويسرا جبال الألب ، دولة مستقلة ، مع انه لم يسبق ان حدث شيء مماثل لهذا ، لا في شرقي اوروبا ولا في غربها ؟ استطاعت اقالم السهل السويسري ان تستقطب حولها الاقوام التي تقور في جبال الألب وجبال الجورا ، فالقت من مجموعها حمى او ملجأ كانت خيراً من هذه الوديان المعزولة عند اطرافها ، معاوناً لها لتقي نفسها من تعديت الدول المجاورة لها .

وبعد ان تعرضت لغزو عابر طارىء من قبل الفرنسيين ، استطاعت سويسرا بعد ان بعثتها معاهدة فيينا الى الوجود ثانية وسيجت عليها بالحياذ، عرفت كيف تتفادى الحروب التي استهدفت لها واستطاعت رفع مستوى العيش بين سكانها الآخذ عددم بالنمو والتكاثر .

فمن مليون نسمة عام ١٨٠٠، ارتفع عددم عام ١٩٠٠ الى اكثر من ثلاثة ملايين. وبلغ من شدة كثافة السكان فيها ان قام ٨٠ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد، وهي كثافة جد مرتفعة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان ثلثي عدد السكان يتركزون اليوم في مساحة من الارض مرفقة على الاجمال . وهذا العدد الضخم من السكان الذي طبع البلاد من عهد بعيد ، كان معينا لا ينضب من المهاجرين واليد العاملة في الصناعة . صحيح ان المدينة فيها جاءت صغيرة على نسبة الناحية او المقاطعة ، مع ان سكان كل من زوريخ وبل في سنة ١٩٠٠ تجاوز ١٠٠,٠٠٠ في كل منها ، الا ان الحرفة المسيطرة على الاسرة فرض قيامها في المناطق الجبلية ، كما ان النشاط الزيفي تأخر بمبدأ بالحركة التجارية . وهكذا لم تلبث سويسرا ان اصبحت بلداً تدر الحليب واللبن او تضاعف الماشية فيها بين ١٨٥٠ - ١٩٠٠ ، وعرفت ان تكتسب لها شهرة عالمية بأجبانها الدسمة وسكاكرها من الشوكولا . واذ كانت تفتقر اصلاً للفحم الحجري فقد التهمت الصناعة فيها الى المصنوعات الدقيقة ، فاستمرت فيها صناعة النسيج القديمة على ازدهارها المعروف ، بينما خلقت المصنوعات الميكانيكية الدقيقة ، عند هذا الشعب الذي توفرت له تربية مهنية قوية ومراس مهني ، طبقة من الصنعة المهرة . واستثاراً منها لموقعها ولطبيعتها الجغرافية ، عرفت هذه البلاد ان تجتذب الى خطوطها الحديدية ، الشبكة الاوروبية، للمواصلات الحديدية فأوجدت لها مركزاً ممتازاً في المجال السياحي . ولم تلبث ان افافت على عهد من الفحم الابيض بعد ان عرفت كيف

تسخر ما لديها من مساقط المياه والشلالات لتوليد الطاقة الكهربائية . فراحت البلاد تستثمر ثروتها الطائلة في اعمال التأمين وفي مشاريع انشائية كبرى في الخارج .

وهكذا ازدادت شراكة المصالح وثوقاً وترابطاً وأدت بالتسالي الى تقوية الشعور القومي والرغبة المشتركة في العيش معاً في رفقة . وهذا التكتل الذي تألف من هيئات ارسوقراطية وتعارفية من اعيان المدينة ومن مجتمعات ريفية ، هو الاتحاد الفدرالي السويسري ، تبدى لنا ، عام ١٨١٥ وكانه حلف بسيط ضم الاقاليم بعضها الى بعض . فالتمسك الشديد بأعراف الجدود ، ابقى حياً قوياً ، نفوذ الأسر القديمة . ومع ذلك فموجب الديموقراطية يسير دوماً الى الامام ، يصدق وعزم وعزيمة ، بشيء ملحوظ في التحفظ والاعتدال . ولذا فلا عجب ان تتضح حركة التطور هذه ضد الأقليات والمجتمعات الريفية صاحبة الاطيان ، ضد « اسيايد » برن ، وضد المقاطعات الكاثوليكية في الوسط ، بدافع من بعض الفئات الرأسمالية ولا سيما البروتستانتية ، في كل من زوريخ ، وبال ، وجنيف ولوزان . إلا ان هزيمة *Sonderbund* جاءت قدشربندو أجل *Staatenbund* وبقرّب ظهور *Bundestaat* (١) ، مع دستور سنة ١٨٤٨ الذي جاء اكثر اخذاً بالنظام الرئاسي الاميركي منه بالنظام الفرنسي ، واستمر الصراع قائماً بين السلطة الفدرالية والمقاطعات . وفي اعقاب حرب القوميات أدى تعديل الدستور ، عام ١٨٧٤ الى تقوية الطابع الاتحادي والملماني للكونفدراسيون الذي تولى توجيهها الحزب الراديكالي الديموقراطي البورجوازي المحبذ لتطوير الخدمات العامة والتوسع فيها ، والمعادي لكل تشريع اشتراكي الطابع او النزعة ، وتحافظ كل مقاطعة بمنتهى الفيرة على حقوقها بتنظيم العمل وتنظيم التعليم فيها كما ترغب وترى ، ومساهمة الشعب بالحكم مباشرة تشدد باللجوء الى عملية الاستفتاء العام في كل مرة بتوجب فيها إقرار او التقدم بمشروع قانون هام .

يتمتع السويسري على العموم ، بأخلاق رضية . فقد اشتهر بثقافة فنية وبالعباية بالصحة ، لا يبالي كثيراً بالدراسات الادبية والفنون . وهو رصين ، مرح ، عملي التفكير ، ذو طبيعة فياضة .

لم يتغير وجه فرنسا جغرافياً . هنالك حادث توسع من جهة الألب ، وقع بين الديمقراطية الفرنسية عام ١٨٦١ ، وعملية اقتطاع من جهة الرين بعد ذلك بعشر سنين . أما التوسع والامتداد فيقع خارج فرنسا ، وعدد السكان فيها يبقى كما هو تقريباً ويؤمن للبلاد كثافة متوسطة ، وهذه ظاهرة تفسر لنا اشياء كثيرة عن الحياة الفرنسية . هل اشتط بريفو - برادول الرأي وذهب بعمداً في تشاؤمه عندما راح يؤكد « نحن الفرنسيين ، سيكون لنا من الوزن - بالنسبة للعالم الانكلوسكسوني - مع الاحتفاظ بكل نسبة ، ما كان منه لأثينا

(١) انتقال البلاد من نظام الكونفدراسيون الى نظام الفدراسيون ، مع بقاء الاصلاح سارياً على الشفاه .

قديماً بالنسبة للعالم الروماني . فالغارة بين فرنسا والمانيا ليست قط في مصلحة الأولى . فلم يكن عدد الالمان ، عام ١٨٧٠ ، يزيد كثيراً عدد الفرنسيين ، بينما بلغ عدد الالمان ، عام ١٨٩٠ خمسين مليوناً (اي ما نسبته ٩١ نسمة للكيلومتر المربع الواحد) . بينما كان عدد الفرنسيين ، في السنة ذاتها ٣٨ مليوناً (اي ٧٥ للكيلومتر المربع الواحد) . فرنسا هي الدولة الكبرى في أوروبا التي فتحت أبوابها على مصراعها امام الهجرة .

وقد ألفت قواعد شعبية ريفية جذور هذه الأمة التي لم تشمر بأي ضغط ديموغرافي . ومع ان المدن الفرنسية تضخمت واتسعت ، فان معظم الفرنسيين فضلوا السكنى في مدن صغيرة نسبياً قامت في محيط ريفي ، واذا ما احتلت باريس محلاً لا يضارها فيه أحد ، فهذا مرده أصلاً الى ان المركزية الادارية والأدبية تضخمت في الوقت الذي تضخمت فيه مراكز النشاطات الاقتصادية . فبالنسبة للجنوب ، أخذ الشمال ينمو أكثر وكذلك الشرق بالنسبة للغرب . وتلاحظ حركة جذب واستقطاب باتجاه المراكز الصناعية الانكلو جرمانية دون ان يطرأ أي ضعف أو وهن على الروابط الوثيقة التي تشدها الى البحر الابيض المتوسط . وبدون ان نلاحظ أي قطيعة في التقاليد الريفية الفرنسية نرى تحولاً أو بالأحرى إنصرافاً بطيئاً عن بعض الاقاليم ، يفرغها من سكانها ، لا سيما في الوسط وفي الجنوب الغربي . فالزراع الذي هو في الغالب صاحب الارض أو مستأجر لها ، لا تتوفر له الادوات والعمدة الحرفية اللازمة لارضه ، كما انه لا يستأنس كثيراً لحركات التجدد ويمتول كثيراً على النائب ممثله في المجلس النيابي ليتولى الدفاع عن مصالحه ، ولذا نراه يستمسك بشدة بالنظام التمثيلي ، ويرجو من الطبيعة الحليمة التي يعيش في ظلها ومن نظام تمثيلي يرضى عنه ، بتوفير غدير له يطمئن اليه ويألف مع اطماعه المحدودة . وهذا العامل الذي يعمل في الصناعة الضخمة أو في المنجم ، في هذه المناطق الصناعية الرئيسية ، يؤلف طبقة بروتينارية أخذت تعي مصالحها الطبقية بينما عرف ان يحافظ على هذه الذهنية الفردية التي هي من مميزات العرق الفرنسي . واكثر من هؤلاء ، الصناعيون واصحاب الحرف الذين يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب هذه البيوتات التجارية الكبرى ، وهم متشبعون بفكرة الاستقلال أو نتراعون الى الاضرابات . فالحرف الحرة أو العامة التي يختلف الناس رأياً فيها والتي تتفاوت بينها الاجور ، تستقطب نسبة كبيرة من المواطنين في بلد شفتت فيه البورجوازية طريقها الى الوظيفة ، بينما ظل صغار القوم فيها يجاهدون في سبيل البروز والظهور والتقدم . اما هؤلاء الاعيان من اصحاب الاطيان والعقارات الضخمة ، أو من رجال الاعمال أو من رجال الصناعة ، فحبهم للنظام ، والحذر الذي يقابلون به الافكار والنظريات الجديدة ، يمازجه كره لا يُغلب لهذه التدابير وهذه الاجراءات المالية التي من شأنها أن تمس دخلهم ، كما يفتنون تدخل النقابة في تحديد عقود العمل . فبالرغم من اختلافاتهم على الصعيد الفكري وبنأى من كل عقيدة ، فهم لا يرغبون بوساطة الكنيسة الكاثوليكية وبمساعدها ، الا بالقدر الذي ترمي معه للدفاع عن المجتمع . فلا عجب ان تتأثر الحياة العامة عميقاً بمثل هذا الوضع .

هنالك من يدعي ان فرنسا ، في ظل النظام التمثيلي ، كانت دوماً تتردد بين النظام والحركة ، هاتان النزعتان اللتان تتقاسماتها اجتماعياً وجغرافياً بحيث ان أقل بادرة تأرجح تبدو على الهزاز الانتخابي تكفي لترجيح هذه الكفة او تلك . والواقع ان جمهرة الفرنسيين لا تنزع الى « ردة فعل » ، تؤمن الغلبة للعناصر المحافظة وسلطة البوليس ، كما انها لا تميل الى التعاليم والنظريات الجريئة التي تقول بالتجدد الاجتماعي . يجب على اية خطة عامة او اي برنامج عمل عام ألا يحدث الأخذ به تغييراً كبيراً في الوضع السائد . هي ذهنية صغار البورجوازيين وصفار الملاكين التي تسيطر حتى على طبقة البروليتاريا .

بعد الهلع العام الذي استحوذ على الناس ، سنة ١٨٤٨ ، جاء الحكم الامبراطوري تدبيراً اعتباطياً سارت معه البلاد من سيء الى اسوأ ، اذ راح يعرض النظام للاعيان وللفاعلين ، والعمل لمن يرغب فيه ، ويحاول التسوية بين مبادئ عام ١٧٨٩ والسلطة . ولكن ما ان سنحت الظروف المؤاتية وتوفرت الوسائل ، حتى راح اعيان البلاد يعملون على اقامة حكومة تقدمية متحررة ، فجاءت كارثة عام ١٨٧٠ وسهلت لهم الأمر . وفي اعقاب الكومون ، كانت المطالبة بالعودة الى النظام البرلماني مطلب الأعيان من نصراء الملكية والاعيان من نصراء الجمهورية . إلا أن الفشل الذي اصيب به النظام الادبي ، أدى الى طلوع جمهورية معادية لروح الدين ولرجالها ، قنعت من الأمر بدستور عام ١٨٧٥ ، الذي جاء نتيجة اتفاق تراض بين النزعتين . وموجز القول ان الجمهورية الثالثة جاءت وليدة ارادة أكثرية الشعب الفرنسي وكرساة انقاذ او خلاص طالما تمتوا الوصول اليه منذ عهد بيميد ، ربما منذ عام ١٧٨٩ ، وهو نظام سيكتب له البقاء لأن باستطاعته ان يفرض احترام النظام القائم ، وان يهد السبيل امام بعض اصلاحات ، بأقل قدر من حكم الجمهورية ، كما يشير الى ذلك ، اناول فرانس في كتابه : « التاريخ المعاصر » . هي اعجز من ان تحقق « المشروعات الكبرى » ، وقد تكشفت عن كونها انتهازية ، « فُرصية » ، تقدمية معتدلة ؛ وقد خففت من عدائها لرجال الدين ، وتقوم « بتهدئة » ، وتسلك في سياستها الخارجية ، وفقاً لتقاليدها الدبلوماسية ، وتتحالف مع الامبراطورية الروسية وتكشف عن روحها الاستعمارية او الاستثنائية ، كما انها خففت من الهزات السياسية تحت ستار عدم الاستقرار الوزاري في الحكم ، وتغلّبت بقدرة فائقة ، على عدة ازمات ، وراعت بفنها الناعم ، الاعراف المرسومة ، وبشدد منها الساعد على مرور الزمن والمراس الموصول . وطبيعتهما الديموقراطية المعلننة لا تعيشها قط ، للسبب نفسه ، من وضع منهاج اشتراكي ، حتى ولا راديكالي . وقد عرّفت فترات كمن الخطر عليها « في اليسار » ، وعرفت جيداً ، مع ذلك ، كيف تدافع عن مكاسب الاعيان . وقد يفوتها القطار احياناً . فالمحطات والاماكن العامة الأخرى تفقتر كليباً اللذوق ، والسكن لا يتطور بالقدر الذي تم لمانيا وسويسرا . اما المطبخ الفرنسي فهو اطيب المطابخ والذمها ، والمناخ بعد هذا كله لطيف ، حلیم .

وقد عرف الفرنسي ، بأقل سرعة من غيره في مجال انتاج المواد الاستهلاكية ، كيف يحافظ على

تفوقه الادبي والفني بسرعة الحياطر عنده ، وذوقه الرفيع وقدرته على التحليل والنقد ، كل ذلك جملة يبرز في مجال الفلسفة التجريدية والنقد التحليلي . ومع انه أقل إقبالا من جيرانه في الشمال على الاعمال الكبرى ، فهو لا يزال يفيض إلهاماً ووحياً ، في مجالات العلم والفن ، كما انه لم يعرض قط عن ملذات الميش الرضي .

لعل فرنسا هي البلد الوحيد الذي يستمد الدفاء معاً من اوربا المتوسطة ومميزاتها الفارقة
المراكز الصناعية في المنطقة الفحمية ومن شمس البحر الابيض المتوسط . فهي تشارك ، عن طريق اللانفدوق والبروفانس ، بهذه الحياة الساطعة التي تنعم بها البلدان المطلة على هذا البحر ، وتأخذ كثيراً من طبائع واخلاق هذه الاقوام المرححة الفرحة ، الطيبة القلب ، التي عرفت ان تقيم لها اسماً بعيد وشهرة عالية في عالم التجارة وفي عالمي الادب والفن .

ويرزح الوضع الاقتصادي في بلدان البحر الابيض المتوسط تحت ثقل الركود والجود المتداول . فالتيارات التجارية الكبرى غابت عن ساحته وانتفت عن شواطئه حيث تطالملك انماط من النشاط الصناعي والزراعي ، على الطريقة القديمة ؛ هنالك لقاءات مدهشة يتناوب فيها الروض والبحر . فالصحراء تقف مارداً في وجه الحقل الزراعي ، كما يطرد الببدو الحضرمي ويخنت الجبل الارض القابلية للحرث ، فالاقليم يفتقر اصلاً للفهم فيضعف النشاط في الصناعات المعدنية كما ان المنطقة تقتصر جذرياً لرؤوس الاموال .

وتطل علينا ، مع ذلك ، طلائع نهضة ثقف وتطوير الخط الحديدي كما ان السفن البخارية اخذت تعول ، اكثر فاكثر ، على هذا البحر الذي يتمتع بوضع جغرافي عظيم الاهمية لا سيما ، بعد ان تم شق قناة السويس ، فالآمال التي عقدها ميشال له شغاليه لن تلبث ان تتحقق . فمئذ عام ١٨٨٠ ، اخذ ربع اساطيل العالم يتردد على مرافئ البحر المتوسط ، موزعة في كل مكان ، الفحم والآلة والمنسوجات وتعود منها محملة الحنور والفاكهة والزيت وفلزات المعادن مؤمنة الاتصال بين اوربا وآسيا ، ثم ان استيطان الاوروبيين مناطق افريقيا الشمالية ومصر عاد بالنشاط على الحركة التجارية في هذه الاقطار ، كما نشطت بالتالي حركة الحج الى الاماكن المقدسة المسيحية والمناطق الاثرية القديمة . وأطل علينا عالم اليونان اولاً ثم عالم ايطاليا ، بعد ان زحزحت الأولى عنها ، على غرار اسبانيا والبرتغال ، نير الاسلام ، كما زحزحت الثانية ، ظل الدولة البابوية ، بعد ثورة عارمة ، جامعة ، بقيادة دولة قارية ، شبيهة بقشتالة وليون ، هي دولة البيامونت .

مهما بدا الوضع الجغرافي للدول الايبيرية عظيماً فلم يعد يخولها تأخر اسبانيا والبرتغال عن الركب
مع ذلك ، اية ميزة قط . فيها ابدأ في تأخر وتقهقر واصبحتا في عداد الدول الثانوية ، فاسبانيا لا تفتقر الرجال ، اذ كان عدد سكانها عام ١٨٠٠ يربو على عدد سكان انكلترا ، وقد اوشك هذا العدد ان يرتفع الى الضعفين ، عام ١٩٠١ وهي زيادة

بزّت نسبياً الزيادة التي حققتها فرنسا من هذه الناحية . اما البرتغال التي ارتفع عدد سكانها من ٣ ملايين الى ستة ، فستوى العيش فيها بقي متديناً . مما يلفت النظر عندها ، هذا التفاوت العظيم في توزيع السكان . فبينما كانت نسبة تكاثف السكان في البرتغال ٥٠ نسمة للكيلومتر المربع ، عام ١٩٠٠ ، كان معدل هذه الكثافة ، في مقاطعة بورتو ٢٢٠ نسمة وفي منطقة بيجه في اقليم غلمتيخو ١٤ نسمة لاغير . كذلك قام في قلب اسبانيا منطقة مرتفعة تكاد تكون خالية من السكان تتكون من هذا الصيد الجبلي الوسيط ، كما ان اسبانيا الساحلية تنص بالسكان من جهتها . وهذا التوزع الى جيوب او خلايا ، المتحصل عن طبيعة البلاد الجبلية ، من شأنه ان يخلق شيئاً من العزلة بين هذه المناطق فيغذي فيها النزعات والمطالب الاقليمية ، كما كان من شأنه ان يمرقل ، الى حد بعيد ، استثمار الاراض . فاذا ما شكت اسبانيا دوماً من تصور شبكة مواصلاتها البرية فخطوطها الحديدية التي انشئت متأخرة وكلفت غالباً والتي تم انشاؤها بفضل رؤوس اموال فرنسية ومهندسين فرنسيين ، فقد كانت طاقتها ، من هذه الناحية محدودة للغاية . اما اسطول اسبانيا التجاري فلم يكن بوسعه ان ينقل اكثر من ثلث بضائعها . فالانكليز لا يزالون يسيطرون تماماً على الشواطئ ولهم حوطيء قدم وطيد جداً في لشبونة .

اما مواردها المعدنية ، فمعظمها بيد الاجانب والصناعة الاستخراجية تبعث بها الى الخارج (ان ٦٠ ٪ من الاسهم والاعتمادات التجارية في اسبانيا ، سنة ١٩١٢ كانت للفرنسيين) . وهذا الماضي الزامي الذي عرفته الصناعات المعدنية ، في شبه الجزيرة الايبيرية لم يبق منه غير الذكر الحميد ؛ وهذه الافران والمسابك الكبيرة التي قامت في مقاطعة كتالوني انطلقاً الواحد منها بعد الآخر واصبحت أثراً بعد عتي . وستظل على البلاد حركة بعث جديدة ، عام ١٨٨٠ تتركز في مقاطعات استوريا وبلبارو حيث يتوفر بكثرة العاملان الانسانيان لكل صناعة : الحديد والفحم . وبالإضافة الى صناعة النسيج التي نشطت في هذه المقاطعات ، هنالك صناعات عديدة أمنت للمنطقة برمتها ، سقماً ملحوظاً في هذا المضمار ، لعبت معه اسبانيا دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبته المنطقة البدوانية في ايطاليا ، مما ادى بالنهاية الى تقوية النزعة الفردية في المنطقة .

تعبّر الجماهير عن رضاها وعن ارتياحها عندما تشع بطونها . كانت البلاد تصدر في مطلع القرن الحبوب الامر الذي يحرم المزارعين من هذه المواد الضرورية ، فتضطّر الحكومة بالتالي لاستيراد حاجاتها من الخارج لقاء بيعها الخمر والفاكهة . فقد تباينت طبيعة الاقليم فيها ومناطق البلاد . فالمنطقة الشمالية الغربية الواقعة على المحيط الاطلسي امتازت بمطارها الغزيرة ، الفارف والاندلس التي يبدو عليها شيء من الطابع الافريقي ، تؤلف ، في مجموعها ، صعيداً متوسطاً قاسياً ، تليّن لزراعة الحبوب والمزروعات في هذه الاماكن المطلة على البحر المتوسط . واستطاعت بعض المناطق المشهورة بزراعتها الكرم والحضروات والاشجار المثمرة ان تزيد من انتاجها بفضل تصديرها هذه المحاصيل الى الخارج ، الا ان التطور العمام في الريف اصيب بالشلل لفرط اهمال الارض ، وعدم العناية بالاملاك واستثمارها كما يجب . وهذا العصر الذي تميز

بكثرة اضطرابات وهزاته الاجتماعية وانتفاضاته السياسية ، حال دون قيام اصلاح زراعي عام ، كما حال دون تطور التعليم وزيادة المدارس لمكافحة الامية التي يتسع فيها الفلاح وابناء الريف بالخاص .

استهلت اسبانيا القرن بحرب مريرة طويلة ضد الفنزو الافرنسي والفتح النابوليوني ارزحت البلاد وافقرتها . والحزب التقليدي المعروف في البلاد والذي تألف من كبار الملاكين ومن الكنيسة ورجال الدين اخذ بصراع طويل مع الحزب الدستوري الحر الذي يسانده الجيش والماوسية والعناصر البورجوازية ؛ كل شيء يقوم على الجيش ويتوقف عليه . فالانقلابات العسكرية المتكررة في البلاد تقيم الحكومة وتقدمها ، وتعلو بها وتنزلها ، وراحت الحزبية العسكرية تتأرجح بين هذا الجانب وذلك ، كما ان النظام التمثيلي اصبح بعد تبنيه ، مجرد واجهة لا غير . والى هذا الوضع يمكن ان نرد بقاء هذه الاضطرابات قائمة في المناطق الشمالية لتغذي الحرب التي اثارها قضية الملك كارلوس وتآليف الكيانات الاقليمية التي تسن القوانين التي تؤمن مصالحها ، والتي تنزع الى السيطرة على سياسة البلاد وتوجيهها ، والى قيام هذه الفتن المتكررة في الجنوب ، بين اصحاب الاملاك . والجمهورية التي اعلنت في البلاد ، عام ١٨٧٣ ، لم تكن موحدة الاهداف ، ولا متجانسة ، بل كانت فسدالية ، ولذا سهل على الجيش امر تصفيتا . وعندما طلعت على البلاد الحركة العمالية ، نزعنا منذ اللحظة الاولى الى الفوضوية فسمرت الحزف في قلب البورجوازية واصحاب الامتيازات القديمة دون ان تستطيع اخضاعهم . وجاءت الحركة الاصلاحية التي قام بها الملك الفونس ، الذي اعلن « تمسكه كاسلافه بالكنائس » ، كما اعلان نفسه من جماعة الاحرار المخلصين باعتباره احد ابناء العصر . فلم يتغير شيء ، وهدأت الحرب الكارلوسية الا ان السلطة المركزية لم تتوطد قط في البلاد . فالجبالس النيابية لا شأن لها والمرتببات الضخمة أجزلت لكبار ضباط الجيش على حساب موازنة وزارتي التعليم والزراعة ، كما بقيت ناشطة ، جياشة الحركة القومية بين اقوام البشر ، وانحذت الحركة الكتلانية ، هي الاخرى ، بالاتساع والامتداد ، وتآزمت القضية العمالية . وبالرغم من هذه الامور ، فقد امكن للوحدات الدستورية ان تعمل وتنشط ، خلال نصف قرن ، اقله في الظاهر ، بحيث نشط للعمل في ظلها ، المجتمع القديم الذي بقي حياً وسط مجتمع رأسمالي اكثر حيوية . وحصلت فترة شبيهة من الهدوء في البرتغال في عهد الملك الفنان لويس الاول . وفي احتياجها الشديد للنقد راحت حكومتا مدريد ولسبونة تسنان القوانين دونما طائل . والمشكلة الاساسية المتمثلة بالاصلاح المادي كانت في نظر المفكرين واصحاب الحزب في البلاد ، مرتبطة الى حد بعيد ، باصلاح عام يتناول الاخلاق . وراحت الحركة الادبية الطالعة في اسبانيا تحاول الكشف عن طاقاتها القومية . كما ان الكارثة التي نزلت باسبانيا عام ١٨٩٨ ، وافقدتها القسم الاكبر من مستعمراتها اظهرت للملا قسوة الجهد ومرارة السعي اللازمين لمقاومة التيار السريع الانحدار . وبدت في البرتغال محاولة لاحلال النظام الجمهوري محل اسرة براغرانس الملكية التي عجزت كلياً عن

اخراج ولاية لوزيتانيا من الورطة التي تمانىها .

مشكلات المملكة الايطالية اللغنية
نقاط التشابه والتماثل كثيرة بين شبه الجزيرة الايبيرية
والايطالية . فالنمو الديموغرافي اكبر وانشط هنا منه
هناك ، اذ ان عدد السكان فيها قفز من ١٨ مليوناً عام ١٨٠٠ الى ٣٢ مليوناً عام ١٩٠١ ، وبذلك
بلغ معدل كثافة السكان ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد ، في سهل البو واودية توسكانا
ومقاطعة كومبانيا وعلى سواحل صقلية ، بينما بقيت مناطقها الجبلية وسهولها الجافة التي تركيبها
الحيات ، قليلة السكان ، تردف بقوة حركة الهجرة الى الخارج والاعتراب . نرى من جهة
تقاليد صناعية تحافظ على ما لها من شهرة واسعة . كما نرى من جهة أخرى افتقار البلاد للوقود
والمعادن . في البلاد طبقة فقيرة من الفلاحين معدمة ترسف في الجهل والامية وقمت فريسة
الملكيات الضخمة ، كما تقتفر البلاد الى رؤوس الأموال . وقد مزقتها نزعات اقليمية غماتها عهد
طويل من التقاطع والتناوب ، وحياة عارمة في المدن ضيقة الأفق ، معدودة الرمي والهدف .
وقامت بين الشمال والجنوب منافسة حادة ومعارضة شديدة ، اذ كان الاول اكثر ارتباطاً بأوروبا
الوسطى وبالتالي اكثر التصاقاً بالقارة الأوروبية ، شبه نشيط ، دؤوب على العمل والصناعة ،
بينما لا يزال الثاني يحمل سمات القدم والعهد السحق يتسكع في مساوىء الملكيات الضخمة .
فالشمال هو الذي أعطى الوجود السياسي للبلاد وأمن كيان دولة قنية ، قوية عرفت ان تفرض
نفسها بمساعدة أجنبية ، مع ان الجنوب كان أقل انقساماً سياسياً من الشمال . الا ان عملية
التوحيد بين المقاطعات والافراغ السياسي الجديد للبلاد التي تمت على عجل ، لم تحل كل
المشكلات التي اعترضت سير الدولة الجديدة . فالهمة بدت شاقة ، مرزحة لهذه الدولة الحديثة
ذات الامكانيات الضيقة بالنسبة لدولة يتكاثر سكانها بسرعة ، كثيرة الاحتياجات .

طلعت عليها هذه الصعوبات في الوقت الذي تمت فيه وحدة البلاد . فالجنوب لم يكن
ليرتاح كثيراً للتقاليد الادارية والعسكرية المرعية في تورينو . واسرة آل سافوى التي كانت
تتمتع بالمطف والرضى في المناطق الشمالية لجمال الابنين ، كانت ، في الجنوب ، موضوع تشكك
وتذمر . وقام في وجه حزب اليمين الناصر للملكية والمضاد للاكليروس في البيامونت ، رجال
الاكليروس واصحاب النزعات الاقليمية في شبه الجزيرة الايطالية ، والحزب البيماري الذي ، بالرغم
من نزعه المضادة للدين ، كان بشوبه شيء من النمرة المزيّنية لم تكن باشتراكية ، وكان يحدد
العديد من الانصار ، بين هؤلاء الغاضبين في مملكة نابولي القديمة . وراح سكان البيامونت
يهاجون بعزم وصلابة أقوى مما تم لهذه الهيئات المباردية والتوسكانية المتحالفة ، الامتيازات
التي تنعم بها الرهبانيات والجمعيات الدينية في هذه المقاطعات التي تم توحيدها ، كما راحت
تهاجم حروب المناوشات في الجنوب ، محارلين تأمين التوازن في موازنة الدولة وتوجيه ايطاليا
للعمل والانتاج . وقد جاءت الاستجابة ضعيفة جداً ، لهذه الحركة الاصلاحية في هذه المناطق
التي لا نفوذ فيها للبورجوازية وحيث تسيطر الملكية الضخمة ورجال الدين على الجماهير

الشمعية التي تتسكع في مهاوي الأمية والجهل المدقع . ومع فوز اليسار سيطر على شؤون الحكم في البلاد ، سكان صقلية . فوسموا على ضوء مصلحتهم ، قاعدة التمثيل القائم على نظام الضرائب ومارسوا إفساد الضائر على نطاق واسع ، وقمعوا هذه الانتفاضات والفتن التي سببتها المجاعة بين صفوف العمال ، وراحوا يمللون الآمال الكبيرة في الخارج ، وهكذا رأينا كريسي هذا الماسوني الجمهوري القديم ينهج سياسة التسلط والتحكم بدون ان يتوفر له المال ، ملوحاً بعظمة الرومانيين وحقوق هذا الشعب البائس . وبالرغم من هذا البطء ومن هذا التفاوت الذي ميز التطورات التي اخذها الشمال ومقاطعة توسكانا ، فقد أمن ، مع ذلك ، استخلاص الكثير من الاراضي وتوصل لانتاج ٢٤ هكتوليتراً من القمح في الهكتار الواحد مقابل عشرة هكتو لترات في الجنوب ، كما تطورت فيما بعد كثيراً زراعة الشمندر السكري والحدائق وتربية الماشية . وهكذا زادت بروزاً المفارقات بين الشمال والجنوب ، هذا الجنوب الذي نراه يتذمر باستمرار مدعياً انه مرزح ، مثقل كما ان الثؤس الذي يخيم على الجماهير الريفية فيه حملها على المهاجرة بأعداد كبيرة . ان توفر اليد العاملة الصالحة في الشمال واستثمار رؤوس اموال كثيرة معظمها اجنبية ، وروح الاقدام والمبادرة في المجال الصناعي هي من خصائص الشمال الذي عرف كيف يفيد كذلك من القوة الكهربائية مع العلم ان النظام المصري فيه كان ضعيفاً وسريع المعطب وان سياسة الحماية الجمركية التي سارت عليها البلاد التقدمية لم تقف كثيراً ، وانه الى جانب بؤس الفلاحين والقضية الزراعية يجب ان نحسب حساباً لبؤس الطبقة العمالية ومشكلاتها الحادة

ايطاليا تمتاز فيها تيارات اجتماعية عميقة النور . وكان من العسير جدا على طبقاتها الحاكمة ان تبني لها قصوراً في الهواء على نفع او جدوى سياسة كبرى تدير عليها ، تكلفها نفقات عسكرية مرزحة ولا على موازنة تشكو دوماً المعجز وعدم التوازن . وهذه الطبقات التي تتحلل بالفطنة تولى عنايتها المحاصيل الزراعية والصناعية التي يؤمن بيع انتاجها تأمين ميزان المدفوعات . الا ان ذكريات الماضي الحية في النفوس ، وموقع البلاد الجغرافي حملها على الاهتمام بأسطولها التجاري ، الامر الذي ساعدها على اقامة علاقات واسعة مع دول كثيرة : هذه العلاقات التي ساعدت على استغلال ثروة اخرى تكمن على الاخص في هذه المناظر الطبيعية البديعة والآثار الخالدة الجديرة بكل احترام وثناء ، وقيام الكرسي الرسولي فيها .

اوربا الوسطى تحت سيطرة
المانيا البيساركية

بعد ان خطت خطواتها الاولى نحو الوحدة بمساعدة فرنسا، راحت ايطاليا تتابع طريقها بمساعدة بروسيا مستغلة الى اقصى حد حرب عام ١٨٧٠ . فقد بقيت انظارها مسمرة نحو برلين. وجاءت قضية تونس تشدها اكثر فاكثرت بالدول الجرمانية . فشق طريق سان غوتار ثم في الوقت الذي عقد فيه الحلف الثلاثي الذي رموا منه الى عزل فرنسا ووضع روسيا تحت المراقبة .

واوروبا الوسطى التي كانت لاجيال عديدة ساحة حرب ومعارك طاحنة ، اخذت هي

الآخري ، بالتجمع ، فتقاسمت بلدانها ، منذ الآن فصاعداً بملكتان : هما الامبراطورية النمساوية المجرية التي سيطرت على حوض الدانوب ، والريخ الذي وحد بين المانيا الشمالية و المانيا الجنوبية تحت سيطرة بروسيا ، وقامت بين الامبراطوريتين منافسة حادة وخصوصة عنيفة انتهت بينها الى شيء من المصالحة تمت معها السيطرة الامبراطورية الالمانية .

الريخ الالمانى مجال لتطورات عظيمة في هذه الحدود الجغرافية التي تمت لالمانيا عام ١٨٧١ وهي تكاد لا تزيد كثيراً عما تم من امثالها لفرنسا ، جاءت المانيا

الجنوبية ذات النزعة الاقليمية الخاصة والطابع الزراعي ، و المانيا الوسطى ، الجبلية الطابع ، المتجزئة ، الكثيرة المعادن والاحراج ، و المانيا الريفية التي احتلت منذ عهد قريب مرتبة صناعية وتجارية من الدرجة الاولى ، وساكنس الوافرة الغنى بمواردها الزراعية والصناعية ، والسهل الشمالي المتزامي الاطراف المعروف بفقره ، الواقع سواده الاكبر في بروسيا والمطل على بحرين ، فالغرب والجنوب مناطق كاثوليكية ، بينما الشمال والوسط مناطق بروتستانتية ، في هذه البلاد ثلاثة اقاليم رئيسية : بولونية كاثوليكية الى شرق ، وأزاسية لورينية الى الغرب ، معظمها من الكاثوليك ، ودانمركية الى الشمال ، سيطرت في الشمال منها منطقة تميزت باصحاب الاملاك الضخمة ، كما قام في الجنوب والغرب منطقة اخرى ، اصحاب الارض فيها من متوسطي الاملاك وصغارهم . الى هذا كله تنوع كبير : كثير من العادات القديمة واحترام البزة الرسمية والوظيفة في الدولة ، والسلطة على الاجمال ، والرضوخ لابوية فعالة والاعتداد بالعمل الذي انجز بالتعاون المشترك والرغبة في المضي بمجهود جماعي موصول . فلسنا هنا امام المحاد كنفدرالي كما هي الحال في سويسرا ، ولنا كذلك امام اتحاد دولي كما كان الوضع من قبل في الاتحاد الالمانى . فلبروسيا السيطرة السياسية وملكها هو الامبراطور ، كما انه من المتوجب على حكومة الريخ ان تقيم الحدود مع الدويلات التي تسهم في تشكيل *Bundesrath* والرايشتاخ المنتخبين من قبل الامة جماء ، كما انه يترتب عليها تأمين الخدمات والمصالح الفدرالية بمواردها الخاصة .

وهذه الوحدة التي تمت في غمرة الانتصارات الداوية هي بحاجة لسلطة قوية تثبت وجودها امام هذه النزعات الاقليمية والتهديدات التي تأتي من الخارج لتأمين الازدهار للبلاد . وبسمازك الرجل الحديدى اليد الذي انشأ الريخ بقيت يده على سكان سفينة الامة يتولى توجيهها وادارتها . فهو منصرف بكلية لتوطيد عمله وترسيخه .

ان ارتفاع الطاقة البشرية في البلاد ، بين ١٨٧٠ - ١٩٠٠ ، من ٤٠ - ٥٦ مليون نسمة جعل المانيا تته فخرها ، فانتشار اليسر وتحسن الاحوال الصحية خفض من معدل الوفيات وزاد في معدل امد الحياة دون ان يطراً اي هبوط او انخفاض في نسبة المواليد التي بقيت قوية . وحركة الهجرة جرفت من البلاد عدداً من الفقراء ، والاقبال على حركة النزوح الى المدن بلغ من اتساعه وقوة تياره بحيث اخذت البلاد تعول اكثر فاكثراً ، على الصناعة والتبادل التجاري بعد ان عجزت الارض المسككة عن تأمين الغذاء واسباب العيش لمن عليها . فبينما كانت البلاد في الامس

الغابِر تصدُر الحبوب والماشية الى الخارج، فقد اتخذت لها شعاراً الكلمات التالية *Verkehr* و *Handel* هذه الكلمات نفسها التي كانت شعار الاتحاد الجمركي المعروف بـ *Zollverein* فالعمل الريفي يأخذ بالالباب لنشاطه الجم ، محاولاً ان يزيد من انتاجية هذا السهل الرسوبي الممتد طولانياً من مونستر الى سيليزيا فيستصلح هذه الاراضي الرملية والبطاح العديدة ليُجعل منها اراضي صالحة للزراعة تمتد من الـ *Geesr* في الشمال الغربي حتى المقاطعات البولونية لتعطي اولى غلالها من البطاطا والشمندر السكري ، والحنزير وحشيشة الدينار دون ان يفني هذا الانتاج عن شراء ما تحتاج اليه البلاد من الحبوب والثمار والخشب . فالارض تتوقع كل شيء من الصناعة ووسائل النقل بعد ان تؤمن لها ما هي بحاجة اليه من الآلات الزراعية والمخربات ، ومثال هذه المحاصيل تتجة نحو مراكز السكن الكبرى المعروفة بضخامة استهلاكها . وهذه الصناعة القديمة التي اعتادت ان تنتج عدداً كبيراً من الادوات والمصنوعات الرخيصة ، انضمت اليها منظمات تجارية قوية سهل تأليفها توفر رؤوس اموال ضخمة ، بعد ان عرفت كيف تقيد من النظام الاجتماعي المسيطر على البلاد ومن جرأة الاساليب العملية التي هي قيد الاستعمال . وقد برز باكرًا ، عالم من الاعمال والمشروعات الجماعية رمت الى تأمين حركة بيع وتنفيذ ضخمة في الداخل والخارج ، على السواء تتناول المنسوجات والمصنوعات المعدنية والمواد الكيماوية والبناء وهي نشاطات توزعت مقوماتها بين مقاطعات رينانيا وساكس وبرلين ومراهي البحر الشمالي بفضل شبكة ممتازة من الخطوط الحديدية والاقنية المائية من المرتبة الاولى ، وبفضل اسطول تجاري يبشر بطلوع نشاط واسع . فالبورجوازي هو الذي في شخص فربنتاخ وآل سودرمان وآل هنريخ مان يطبع هذه الرصانة الهادئة الرزينة والثقيلة الوطأة نوعاً .

فأولو الامر يصرفون جهدهم الاكبر لتوحيد العمل واذكاء النشاط في فقير النحل الذي تمثله الامة الالمانية . فالهدف الاول من السياسة الالمانية هو تسخير الريخ في خدمة الاقتصاد الوطني . ولهذا بذلت الجهود ليس لتوحيد التشريع في البلاد فحسب كتوحيد المكاييل والموازين واصدار نقد واحد موحد لكل المانيا ، هو المارك ، بل ايضاً رصد مبالغ طائلة للاشغال العامة وللنفقات الحربية ، فالجيش الالماني يجب ان يكون الاول بين جيوش اوروبا كلها . واذا لم يكن في مقدور الريخ فرض ضرائب على الاشخاص المسجلة اسمائهم ، وهو امر من اختصاص الولايات استطاع مع ذلك تأمين الموارد اللازمة ، عن طريق قروض داخلية ورسوم جديدة تفرض على الاستهلاك . والرجوع الى سياسة الحماية الجمركية ، عام ١٨٧٩ ، يجب رده جزئياً ، الى حاجة الحزينة . فبسهارك في نقاش وحوار لا ينتهي مع مجلس النواب لاقرار الموازنة العامة .

قبل عام ١٨٧٠ كان ارباب الاراضي الضخمة ، المحافظون والمعروفون بمصيبتهم البروسانية واللوثرية ، على خصام وجدل مع الوطنيين الاحرار هؤلاء البورجوازيين الذين يحرصون شديداً على النظام مع تأييدهم النظام البرلماني . وكان بسهارك قد قطع لهؤلاء ولأئلك ضمانة ، اذ قبل الاخذ ببداً الاقتراع العام ، ودون ان يسمح بتطبيق هذا القانون ، في جميع المحماء الامبراطورية

الالمانية اذ ان صلاحيات الرايخسستاغ كانت مقيدة ومحدودة ، بينما كان سلطان الامبراطور وصلاحياته واسعة جداً ، فبعد الحرب كان خوفه من الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي برز للوجود من عهد قريب اخف مما سببت له معارضة الحزب الكاثوليكي من قلق ، هذا الحزب الذي يمكن ان تنضم اليه الاقليات البولونية والالزاس واللورين . فرأح يحاربههم بسياسة *Kulturkampf* يشد من ازره اللوثريون والوطنيون الاحرار . وفي عام ١٨٧٩ ، قلب ظهر المهن لهذا الفريق الذي طالما مالاه ، وعدل عن نظام التبادل التجاري الحر ، وقام بحركة تقارب من حزب الفلاحين المحافظين ، واستخدم ضد الحزب الاشتراكي ، قارة الضغط والاكراه ، وطورا تشريعاً اجتماعياً لم يكن ارباب العمل يرضون الاخذ به بطيبة خاطر ، على طريقة المطران كتليير واصحاب الاراضي .

وفي تلك الغضون راحت الازمة الاقتصادية الخائفة تفرض على البلاد في عداد ما تتطلب من مشاريع ، انشاء سوق واسعة تستطيع ان تزامم الاسواق الكبرى في الخارج . الا ان الدفع الاقتصادي يتوقف قبل كل شيء على التنفيق والتسويق وقد عقب عهد الوحدة ، عهد الامتداد عهد « السياسة العالمية » .

وعندما دشن الامبراطور غليوم الثاني « العهد الجديد » ، كان المجتمع الالمانى قد حقق نجاحات ضخمة في مجال الازدهار والرفاهية المادية صحيح ان نصيب الفلاح والعامل من هذا الرفه كان اقل جداً مما ناله كبار الملاكين وارباب العمال وكيسار الموظفين . غير ان الوفرة المنخر العظيم الذي امكن تحقيقه ، وأهمية رؤوس الاموال التي امكن استثمارها ، كل ذلك جاء دليلاً على نمو الطاقة المالية . وحركة تخطيط اصلاح المدن ، انما تدل ، مهها تباينت الآراء من الوجة الجمالية ، كما يدل التصنيع ، على هذه الإدارة الجبارة ، نحو ما هو ضخم ، عملاق . ومهما يكن هذا التوزيع الموسيقي الذي تم على يد واغتر ، فكل شيء يخضع لمستلزمات الجماعة ومقتضيات الضخامة ، مدنية جماعية . فالانسان فيها يربط نشاطه الفردي بهذه الانشاءات الوطنية بقصد تأمين ازدهار المجموع . فالفرد يضيع في المجتمع . وهذا التهاضد والترابط يقتل روح الاصاله في الفرد . فمن رأي نيتشه : « القوة تحبل المقل » ، « ولا يمكن بصورة من الصور ، الادعاء والتبجح بتحقيق انتصار الحضارة الالمانية » . فمباراة القوة توشك ان تسكر المانيا الشاعرة بقيمتها والمشبعة بفكرة تفوقها .

الفصل الثاوس

أوروبا الشرقية ويقظة الصقابة

لا نرى قط ان مصائر البشرية جماء منوطة باوروبا الغربية وحدها (اسكندر هارزن - ١٨٥١)

بعد الخط الممتد من هبورغ الى تريستا ، تأخذ القارة الاوروبية بالتكثف بروا اوروبا الشرقية والتضخم . فالمنظر التي تتعاقب تحت انظار المسافر تشير بانه يودع ، شيئاً فشيئاً استطالة العالم القديم في الغرب ليوغل اكثر فاكثر في قلب العالم القديم ، حيث تقع المين على اقطار اكثر اتساعاً وجبال شجراء وسهول فسيحة الأرجاء ، وطرق تندر وتقل ، وشبكة من الخطوط الحديدية مخلخة العرى . وألوان الطعام تغيرت وتبدلت فحلت المصيدة محل الخبز ، وصرنا نلح الواناً من الطعام بينها الـ *Barszcz* وهو مزيج من الملفوف والشمندر ، والـ *Braga* وهو ضرب من النبيذ المستخرج من الذرة البيضاء يشبه الـ *Kvass* الروسي (بينما يستطيب الالمانى صنف الشوكروت مع الجمعة) ، وتناهت المدن وتباعدت وهي اقرب الى القصة من المدينة ، بكنائسها البيزنطية وشوارعها المتعرجة التي يبدو عليها الاهمال . في هذه المجتمعات البشرية ، كثيراً ما نرى مجتمعات يهودية عديدة تؤلف احياناً غالبية السكان ، تستأثر بالتجارة وحياناً بالصناعة ، تتكلم اليهودية وتسكن حارات خاصة بها وحياناً تنقطع اليها وتنمزل عن باقي الجماعات ، ترك شاغال لنا عنها العديد من الصور والرسوم . وقد تبلبلت فيها اللغات والهجات المحكية وتنافرت لتصل احياناً الى عشر لغات مختلفة ، كما هي الحال مثلاً في مدينة لفوف^(١) كما تعددت الاديان والمذاهب والمعتقدات ، كما في فيلنا (حيث 'وجد' ١١ ملة أو طائفة) . ومدينة بودابست هي بمثابة جزيرة من طراز أوروبا الوسطى في وسط ريف على النزي الشرقي . ودالماتيا تؤلف واجهة من طابع لاتيني هي الباب الخلفي او البراني للبلقان . وهذا التشيكي في براغ يختلف تماماً عن هذا السلوفاكي في تراس اختلاف الاسرائيلي في فيينا عن ابن دينه في الكربات الروتينية أو في البوكوفين .

وتضم الامبراطورية الالمانية ضمن وحدتها المتراسة جزءاً - بولونيا - من اوروبا الشرقية ليجد نفسه في وسط اكبر واقوى شعب في اوروبا الوسطى . اما في حوض نهر الدانوب فالأمر يبدو اكثر تمقيداً .

(١) - بيا ليستوك . من هذه المدينة الاخيرة طلع الدكتور زمنهوف الذي وضع سنة ١٨٨٧ ، لغة الاسبرنتو .

على إثر معركة سادوا التي كان من بعض آثارها ان تُبعد النمسا عن
المانيا وتفضي على الاتحاد الكونفدرالي الذي انشئ عام ١٨١٥، توصلت
فبيننا الى تحقيق التفاهم مع بودابست ، هذا التفاهم الذي تحولت
ملكية آل هبسبورغ القديمة بموجبه الى دولة مزدوجة قامت على الـ *Ausgleich* الذي تم عقده
بين الطرفين عام ١٨٦٧ ، فخرج بموجبه الى عالم السياسة مسمى جديد هو النمسا - المجر أو المجر
النمسا على حد سواء، فوضع بذلك مملكة القديس اسطفانس والنمسا على قدم المساواة ، وبمباراة
أخرى اكثر لباقة دبلوماسية ، وحد بين ترانسيلتانيا ما وراء النهر وترانسيلتانيا عبر النهر .
وهكذا ضمنت اسرة هبسبورغ العريقة لنفسها البقاء وحمل رئيسها لقب الامبراطور الملك ،
رمزها النسر ذو الرأسين رمز الاستمرار والوحدة . وبالرغم من قلب الدهر له ظهر المهن ، فقد
عرف الامبراطور فرنسوا جوزف ان يحافظ على مركزه ومكائنته عن طريق انصراف البلاد
الخاضعة له ، للعمل المثمر وطول عهده المديد في الحكم . فقد كان عهده عهد حكم مطلق ،
خفف من حدته التكاسل الذي طبع حياة فيينا التي عرفت بنعومتها ورقتها . وكان تطلق
السكان بالاسرة المالكة تملقاً قوياً مخلصاً ، كما كان الجهاز العسكري فيها متيناً والشرطة يقظة .
وقد ألف الحوض الدانوبي ، الى هذا كله ، مجموعاً طبيعياً متكاملاً متكافلاً لو تناثرت
اجزأؤه وتفككت لأنزل ذلك به كارثة اقتصادية تأثر الجميع من عقابيلها الوخيمة . ومع انها
ادركت متأخرة عهد التطور الرأسمالي والاقتصادي ، وكانت وسائل المواصلات فيها فقيرة
ضيقة ، فلم تبرهن اسرة آل هبسبورغ عن مقدرة تستطيع معها رفع مستوى حياة الشعب
المتأخر تحت حكمها . فالاجوء الى الغرب ، بعد عام ١٨٤٨ ، ورؤوس الأموال اللازمة للنهوض
بأسباب التطور وقطع مراحلها حثيثاً ، لم يسمح للامبراطور فرنسوا جوزف الوقوف في وجه
الاتحاد المجركي الألماني (*Zollverein*) فاستطاعت بروسيا ان تؤمن لها الغلبة في ساحة الوغى .
الا ان الولايات التابعة للتاج بالوراثة كانت غنية بمواردها الجيولوجية وتوفر فيها يد عاملة لم
تكن مطلوبة . ولا تزال مقاطعات ستيريا وكارنتيا والنمسا العليا والسفلى ولا سجا بوهيميا تنعم
بشهرة صناعية واسعة عرفت ان تحققها منذ عهد بعيد . واملاك التاج في هنغاريا ، وهي املاك
ضخمة واسعة جداً ، تُردف بمواردها الزراعية والراعية الغنية ، الغلال والمحاصيل التي تعطيتها
سيسيلتانيا من الحبوب والشمندر والمراعي . وهكذا يمكن اعتبار هذه الشراكة الثنائية أو
المزدوجة ، سوقين استهلاكيتين تكمل الواحدة الأخرى .

هنالك ، مع ذلك ، فوارق ونزعات لا بد للمؤرخ من ان يلحظها ويأخذها بعين الاعتبار .
فالصناعة ، في النمسا ، كانت بحاجة لسياسة حماية جمركية ، ومثل هذه السياسية لم تكن هنغاريا
تتمناها أو تريدها باعتبارها بلداً مصدراً للحبوب والمحاصيل الزراعية . ولذا كان لا بُد من
التوفيق بين مطلب الزراعيين واصحاب رؤوس الأموال الصناعيين . وهذا ما رمى اليه بالفعل
الاتفاق الذي توصل اليه الجانبان الى عقده ، واعادة النظر فيه كل سنتين ، على ضوء الارضاح الراهنة .

ومقابل الفوائد التي أمنتها هذا الاتفاق الحبي رأيت النمسا تمويضا لها عن عُقب لحق بها فرض تعريفه مرتفعة . وفي أثر أزمة عام ١٨٧٣ التي جاءت أخف وطأة على المنطقة الوسطى الشرقية منها في تلك المنطقة الصناعية الأكثر تطوراً، فقد انفتح في وجهها باب البلقان بفضل الاتفاقات التي تم عقدها مع كل من صربيا ورومانيا ، وبفضل التعريف الأكثر رعاية عرفت مرافقها وموانئها البحر الادرياتيكي أمثال تريستا وفيومي ، ازدهاراً كبيراً .

فكبار الملاكين والبورجوازية هما القوتان الاجتماعيتان اللتان نسجت وقائع تنافسها حيناً ، واتفاقها حيناً ، وتطوراتها ، تاريخ هذه الملكية الثنائية . فالارستوقراطية التشيكية الالمانية في بوهيميا ، والبولونية في غاليسيا ، والمجرية في هنغاريا أحكمت السيطرة على مداخل السلطة ومخارجها . فقد عرفت ، بما تم لها من ثقافة وخبرات واسعة ، كيف تتخذ لها يداً من الاستثمارات الكبيرة لادخال التصنيع الآلي الى البلاد ولتطوير الاساليب الزراعية فيها . فهذه الارستوقراطية تصدر الجيوب وتشمعها الى الخارج بينما عدد كبير من سكان البلاد يتضورون جوعاً ويضطرون للزواج عن البلاد . صحيح ان هبوط اسعار المواد الزراعية ترك أثره العميق على الارباح وعلى ربح الاملاك ، ولذا راحت الاسر الكبيرة العريقة النسب تطالب بالحاج ، اكثر من أي وقت مضى ، ان تُوقف عليها الوظائف الكبرى ، كما اخذت تهتم ، من جهة أخرى ، بالنشاطات الصناعية .

وعندما اشتد ساعد البورجوازية اخذت بمهاجمة المؤسسات الارستوقراطية والاكلييريكية ، كما اخذت تطالب بملكية الدولة وتحقيق الوحدة الادارية التي من شأنها ان تسير كثيراً المعاملات الرسمية ، فقد استطاع اليهود ان يؤمنوا سيطرتهم على المهن الحرة وعلى مرافق التجارة في البلاد (ففي الجنازات والمآهذ العليا اربعة من اصل خمسة هم من اليهود الامر الذي شععن النفوس بعماء مستحکم للسامية) . وبدافع من رجال الفكر والادب هب على البلاد تيار اشتراكي قوي وجد له عددان من المؤيدين والانصار بين العمال في فيينا والمراكز الصناعية الاخرى . ووقعت اضطرابات وقلقل اجتماعية ، سنة ١٨٤٨ ، ومنذ ذلك الحين رأيت الملكية الثنائية نفسها عرضة للاضرابات وللقتل الريفية .

فقد ألقت العناصر الموجهة في قلب الطبقات العاملة ، اقلية ضئيلة رفلت بجميع اسباب الراحة والرفه في المجتمعات الكبيرة وفي القصور . فهل من داعٍ الى رهن اراضيه وأطبائه هذا المسلاك الكبير الذي كثر لديه الحشم والخدم ، والذي تزخر مائدته بأطياب الوان الطعام وترفل باللذيد الفاخر من الشراب ، والذي تم له من طاقم الفضية ومجموعات السجاد والطنافس والحيول الأصيلية والعربات ، والذي يقيم له الحدائق والرياض الغناء (فالاملاك التي تخص الارشيدوق جوزف في كونتية فينجر والتي نسقت على الطراز الانكليزي حدائقها وبساتينها ، تمتعت بشهرة واسعة من حيث تنسيقها) ويقوم في فيينا مجتمع ثقيف ، مهذب ، لطيف المعشر ، متساهل ، تعشق الادب الرفيع والموسيقى واشرابت عيناه نحو المانيا والغرب .

وبالرغم من هذا فقد عانى الامبراطور الملك من صراع القوميات . فكتاب الامراء وپورجوازيو بومبيا او غاليسيا على استمداد للتفام مع فيينا على شروط معينة . والحقيقة التي لا ممرارة فيها هي ان العنصر الجرمانى الذى طبع عميقاً المؤسسات والاذواق وصناعى التفكير فى الامبراطورية النمساوية القديمة لم يجر اتفاقه مع العنصر المجرى الا ليتمكن من الصمود فى وجه الدفع السلافى . « صونوا حدودكم محافظ على سلامة حدودنا » كان يردد واحد من هؤلاء الذين قادوا المفاوضات التى ادت الى هذا الاتفاق (١) وهذا التفام الالمانى المجرى آل فى نهاية المطاف ، الى التحالف مع برلين وبالتالى الى احتلال البوسنة والمهرسك ، وكلاماً من الاراضى السلافية السكان ، فالامبراطور فرنسوا جوزف لا يلبث ان يصبح ، بعد قليل « الرفيق الجميل ، للرايخ ، والمجرى وسيط بينهما .

فى حوض الدانوب ، كما نرى ، تاجحون وفاشلون . ولعدم قيام شكل فدرالى - قد يكون من المستبعد تحقيقه - بقى التعاون بين مختلف القوميات الواقعة تحت سيطرة آل هابسبورغ .

والقرن التاسع عشر الذى تميز بالاستقرار جغرافياً فى
من البحر البلطيقى الى الادرياتيكى
قوميات مستعبدة تشمل وتتمطى
اوروبا ، ساعد على ترسيخ التقسيمات الجغرافية الكبرى التى
وقعت الى الشرق منها ، فى القرنين السابع عشر والثامن

عشر لمصلحة الملكيات الثلاث : النمساوية والبروسانية والروسية . فالاتفاق الذى تم عقده ، عام ١٨٦٧ بعد ان حدد الاهداف وعين المهام الموكولة لكلا الطرفين ، : اضعاف « الاجلاف » قطع سيسلتانيا : البولونيين والروتين فى مقاطعة غاليسيا ، واعد بين السلوفاك والتشيك والسلوفين والصرى والكروات فى مقاطعة دلماتيا عن اخوانهم فى الدم : الكروات والصرى فى هنغاريا ، واحتفظ للامبراطورية النمساوية بايطاليى البترول وتريستا وبرومانيى بوكوفينا ، كما ادمج رومانيى ترانسلفانيا فى ترانسيلتانيا ، كل ذلك عملاً بالقول المأثور : « فرق تسد » .

بقيت المقاطعات البلطيقية الواقعة الى الشرق ، خاضعة منذ الاجيال الوسطى للتفوذ المجرمانى . فالتجارة سيطر على مرافقها الالمان فجعلوا من مدينة ريغا مدينة حاوة جميلة ، كما استولى البارونات الالمان على الاراضى الزراعية . والتعليم فى جامعة دوريات (تارتو) كان يعطى بالالمانية . الا ان عدداً من كبار الملاكين اضطر لبيع املاكهم فى اثنى عملية الاصلاح الزراعى الذى قام بها الروس ، عام ١٨٦١ . وهكذا ظهر فى البلاد ، من جهة ، طبقة من صغار الملاكين ، كما ظهرت ، من جهة ثانية ، طبقة بورجوازية محلية ، بفضل ظهور الخط الحديدى وتطور المرافىء البحرية فى هذه المنطقة . وقد نتج عن ذلك ، نقطة بين القوميات ابتدأت فى مجال اللغة ثم تطورت الى المجال السياسى . فاذا ما رأيت الحكومة الروسية ان توجه حركة اليقظة هذه ضد التيار المجرمانى ، فلم تكن لترمى من وراء ذلك ، الى اطلاق حركة انفصالية ، بل

(١) فى عام ١٨٨٠ ، هنالك ٩ ملايين المانى (منهم ٨ ملايين فى النمسا نفسها) ، و٦ ملايين مجرى ، مقابل ١٧ - ١٨ مليون سلافى ، و٣ ملايين ونصف مليون رومانيى وايطالى .

رمت الى تشجيع حرصة « ترويس » هذه المقاطعات وطبعها بالطابع الروسي وذلك بتحرير استعمال اللغات واللهجات الاقليمية في التعليم والمنشورات الرسمية .

وفي غراندوقية فنلندا الظليلة الاحراج والغابات، القاسية المناخ والفقيرة والتي تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري والثقافة الروسية واللوثوية التي تغفلت بين نبلاء البلاد والبورجوازية، لم تنتشر كثيراً بين سكان الريف الذين يتكلمون اللغة الفينية . وقد ترك الحكم القيصري هنا للشعور القومي ان ينمو ويشند بحرية، وذلك لاضفاف النفوذ الالماني المسيطر من عهد قريب، كما ان الامبراطور اسكندر الثاني جرد الاكليروس البروتستانتى من حقه الاشراف على التعليم ، وراح يوسع من الحريات المحلية بهذا المرسوم الذي اصدره عام ١٨٦٩ في اعقاب مجاعة ضخمة تضرت بها البلاد. وقد اخذ الاقتصاد الفنلندي يتطور مع استنثار صناعة الحشب والصمغيات والقطران وصنع رب الورق وعيدان الكبريت . ونما عدد السكان فيها بسرعة . واذا اخذت الحكومة الروسية تنظر شزراً الى اشتداد الحركة الوطنية واستفعالها في المنطقة ، فقد آلت على نفسها ان تربط بالامبراطورية الروسية ، سوقاً ناشطة ومقاطعة لها اهميتها الخاصة من الوجهة الاستراتيجية ، تقع على قيد غلوات من ابواب عاصمتها . ويسايف سوومى اوقاتاً عصبية جداً في أخريات هذا القرن .

فكيف السبيل لعمرى الى بئس الحياة في بولونيا وهي على ما نرى مقسمة الى ثلاثة أجزاء لكل واحد منها محور جذب وسيره الخاص ؟ غير ان الامة البولونية المترابدة سكانها، المجاهدة، القوية ، تحافظ على وحدتها الروحية . فهذه الآمال الرومنطيقية التي راودت خيالها الجوح ، ذهبت في الارض هباء منثوراً بعد الفشل الذريع الذي أصاب الثورات التي قامت بها في المنطقة الروسية ، عام ١٨٣٢ و ١٨٦٣ ، على اثر إلغاء جمهورية كراكوفيا ، عام ١٨٤٦ . هذا الكيان المهلهل الذي بقي من الاستقلال البولوني . فالارستوقراطية البولونية فشلت تماماً في مقاومتها الدول بالثلاث التي تقاسمت بولونيا من قبل ، كما لم يكن بالامكان مجابته بنجاح . وجل ما أطل من أمل مرجى هو احتمال قيام تعاون موصول بين كبار انشاء غاليسيا وآل هابسبورغ ، كما ان حركة الاغتراب السيامي الكبيرة في جميع أرجاء اوروبا عجزت في محاولتها إثارة أي رغبة في تعديل معاهدات ١٨١٥ ، كما ان انتصار بروسيا على فرنسا عام ١٨٧٠ ، والتفاهم القائم بين الاباطرة الثلاثة ، أبعدت عن الانظار مثل هذا السراب الفرار ، ومنذ ذلك الحين ، غلبت على القائمين بالحركة « النظرية الواقعية او الموضوعية » ، أي النظرة الى الواقع بالعين المجردة ، أي محاولة الصمود في وجه كل حركة ترمي الى « جرمنة » و « ترويس » البلاد ، والاقبال على تقوية القوى الحية الناشطة في البلاد ، الفكرية منها والمادية . ومنذ ذلك الحين اخذت تبرز للبيان بولونيا اكثر اخذاً بأسباب العصر ، واكثر إقبالاً على أسباب التصنيع ، مع العلم ان نشاطاتها الرئيسية تسيطر عليها العناصر اليهودية والالمانية . كذلك اخذ يبرز الضمير الوطني اكثر تحمراً بين البورجوازيين الاحداث واكثر اشتراكية بين رجال الفكر والادب واكثرهم من طبقة

البروليتاريا الذين راوحوا يعملون على الدور الذي ستلعبه ، في المستقبل الطالع ، حركة عمالية ناشطة . ففي الشطر الالمانى ، راح الفلاحون ورجال الاكليروس الكاثوليكى يقودون حركة الصمود في وجه عملية « جرمنة » البلاد الواسعة ، في المدرسة والريف . أما في الشطر الروسى فقد آلت حركة « ترويس » البولونيين الى نشر الامية بين جماهير الشعب . وعلى عكس ذلك برز الوضع في غاليسيا ، أي في الشطر النمساوي حيث سيطر جو حليم خفيف الوطأة ، اذ تمتت المقاطعة بشيء من الاستقلال الاداري والثقافي جاء يوثق من روابط الاتفاق الذي شد الروابط بين أعيان المقاطعة من جهة ، وبين حكومة فيينا التي أخذت تشجع تدريس البولونية في مقاطعة لفوف (ليوبول) ، هذه المقاطعة التي ألغت مع كراكوفيا ، مشعلا للأدب ومنازة للعلوم والفنون . وهذه البرودة التي دبّت الى العلاقات بين روسيا وبين الامبراطوريتين المركزيتين الاخرين ، ساعدت بدورها على بعث الامل في قرب انبعاث بولونيا الى الوجود .

وتاريخ الاقلية التشيكية اخذ مجراه ضمن الملكية النمساوية . ففي بوهيميا نفسها ترى العنصرين الالمانى والتشيكي نارة على وفاق وطورا في خصام . فالاول منها ، اي الالمانى ، يحتل المنطقة الجبلية الغنية بمعادنها واحراجها ونشطت فيها ، كما هي الحال في ساكس وفي سيليزيا ، صناعة النسيج . أما الثاني ، فيسكن التجويف الجغرافي الذي يمتد بالمعاصرة براغ التاريخية ، وبمدينة بلزن المعروفة بصناعتها الحديدية ويطالب عالياً « بحقوقه التاريخية » في هذه المقاطعات التاريخية التي خصت عرش الملك فنسلاس ، اي باعادة ملكة بوهيميا الى الوجود ، ومن ضمنها مورافيا وسيليزيا . هنالك ارسوقراطية تشيكية ألمانية ألقت التعاون مع فيينا وراحت تعتمد في نشاطها السياسي ، على آل هبسبورغ ، كما قام من جهة أخرى ، بين بوهيميا والنمسا روابط اقتصادية متينة . وهذا الوضع بالذات حمل بلاثشكي على التصريح بمد الفشل الذي اصيبت به حركة الجامعة السلافية الفدرالية ، عام ١٨٤٨ ، قائلا : « لو لم توجد الامبراطورية النمساوية من عهد مبيد ، لوجب العمل على انشائها في الحال لخير اوروبا جمعاء . ولذا جاء الاتفاق (بين النمسا والمجر) صدمة عنيفة للحركة النمساوية السلافية التي لم تكن لتحقق في قلب مقاطعة سيسليتانبا ، سوى تنازلات جزئية ، كاردواجية اللغة مثلا وانشاء جامعة تشيكية . وبذلك اخفقت المساعي الى عقد اتفاق نمساوي تشيكي شبيه بالاتفاق المجري الكرواتي . والحال فالشعب التشيكي المعروف بنحسب تناسله ، اخذ يحقق شيئا من السيطرة في هذه المناطق المتعددة ، وأخذت طبقة من البروليتاريا الصناعية وبورجوازية تجارية تزيل تدريجياً الطابع الجرمانى العالق ببراغ وبلزن ، بينما راحت الطبقة التشيكية المفكرة ، تذبذبي الاخرى ، الثقافة الالمانية . وقام في وجه حزب « قدامى التشيك » الذي أخذ نفوذهم الهبوط وحزب التشيك « الفتاة » الذي رفض التسليم أو القبول بسقوط الحقوق التاريخية ، وراح يطالب بانشاء دولة تشيكية ديمقراطية . وهكذا حوالي عام ١٨٩٠ ، وجه الاستاذ توماس مازارين التشيك والسلوفاك نحو الاتحاد معاً لذلك السيطرة المجرية النمساوية . فقد حاول اجتذاب الفلاح السلوفاقي في تتراس نحو بوهيميا وهو اكثر تطورا موصيا بأن الهجوم

يجب ان يتجه ضد بودابست وفيينا على السواء .

بين الشعوب التي خضعت للملكية الهابسبورغية كان الشعب المجري هو اول من يستفيد من هذا الاتفاق . فاذا ما أطلت علينا حركة 'مجيّرة' قبل عام ١٨٦٧ ، واذا ما رفض الزعيم المجري كوسوت عام ١٨٤٨ للأقليات الاخرى، في مملكة القديس اسطفانس القديمة ما يطالب به هو اليوم للمجر، راح اولو الامر في بودابست يارسون ضغطهم الشديد عندما وُضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ . ' فعلى هنغاريا ان تبقى هنغاريا او تموت ' ، بهذا كان يصرح كولومان تيزا . ومجوم المجري على الروماني اتسم بالعنف ، هذا الروماني الذي تزح من جبال ترانسلفانيا الشجره ليستقر في مقاطعة باتات وضواحي بيهور ، وكذلك هجومه على الصربي القابع في ما بين النهرين البانوني ، بالرغم من الاتفاق الموقود بينها عام ١٨٦٨ والموجه ضد الكروات على الاخص . وهذا المجري المتمركز في الوسط الذي يرى تحت تصرفه الموظفين ويستخدم في سبيل تحقيق اغراضه الثكنة والمدرسة والجريدة والاكليروس والاحصاءات بعد أن يجري فيها تلاعباً وترويراً ، يحاول أن يبسط سيطرته على المناطق الدائرية . فقد جاءت النتائج مشوشة ، مضلة للرأي العام في الخارج . والضغط ولد دوماً ردات فعل عكسية ، فدفع بالسوفاك باتجاه براغ ، وفتح الطريق أمام حزب وطني جديد في رومانيا ، وحل الصرب على الاتجاه بنواظرم نحو بلغراد ، وعمل على إثارة واهاجة الحركة اليوغسلافية التي الفت خطراً يحسب لها الف حساب في هنغاريا المجرية .

ويعتمل صقالية الجنوب بتيارات متضادة . هنالك بالفعل ثلاث أقليات سلافية : اثنتان منها ترسنان تحت حكم آل هابسبورغ من عهد بعيد هما السلوفين والكروات وتتجهان بأنظارهما نحو فيينا ونحو روما كذلك، بوصف سكانها من رعايا الكنيسة الكاثوليكية ، ولا يزال طرياً في الاذهان ذكر مرور الفرنسيين في الإلبيريا والمناداة باستقلالها القصير . اما الاقلية الثالثة ، وهي اكبرها على الاطلاق ، فتتألف من هؤلاء الصرب المستقيمي الرأي أو المقيدة الذين خضعوا أجيالاً طويلاً ، للسيطرة العثمانية ، مما حمل قسماً منهم على اعتناق الاسلام . من هنا: صربيا التي تحاول ان تلعب من بلغراد، نحو الاتراك ، الدور الذي لعبه البيامونت ، ومن هناك زغرب التي قد تصبح عاصمة المحادية لثلاث اقليات هي كرواتية وسلافونية ودالماتية (La Troadna) . وقد لعب الامبراطور فرنسوا جوزف آخر ورقة بيده هي حركة اوستروسلافية اخرى . فالفريق الكرواتي بزعامة جيلاتشيتش قام يرد على تعنت كوسوت كرجع صدى لبالاتشي : ' لو لم تكن النمسا موجودة لوجب ايجادها في الحال ' . برنامج يوغسلافي هذه المرة ، يضعه كرواتية ويدور حول الكروات . فبينما كانت صربيا تتحرك دائرة على نفسها ، فضلت فيينا ان تدخل في مفاوضات مع المجر وتوفقت الى ابعاد السلوفينيين عن الكروات فتلقني هؤلاء الى ايدي المجر بينما تحتفظ هي لنفسها ، بهذا الحزب من مقاطعة دالماتيا التي تقطنه أقلية صربية كرواتية الى جانب اقلية ايطالية اخرى . فكان على كرواتيا ان تنزل عند هذا الاتفاق

الغامض الذي وقعه قوم يبيشون كراهية للحركة الصربية ، فلم يبقَ من ثم أي عمل ، بعد هذا التدبير ، لاليريا . وتوترت على الأثر العلاقات بين بودابست وزغرب في الوقت الذي راحت فيه المملكة الثنائية ترفع عن الكاثوليك والمسلمين ضد الارثوذكس في مقاطعتي البوسنة والمهرسك التي احتلتها عام ١٨٧٨ . وهكذا لم نَعُدْ بيميدين عن هذا اليوم الذي ستشهد فيه الجامعة اليوغوسلافية وقوع انهيار الامبراطورية النمساوية - المجرية وتقسيمها لمنفعة صربيا الكبرى .

وهكذا من البلطيق الى الادرياتيك ، اشتد هياج الاقليات الواقعة تحت الضغط بالرغم من التطور اندي اصاب مرافق البلاد الاقتصادية ، في الامبراطوريتين الالمانية والنمساوية . وبما هو انكس من هذا كله ووقع في النفس هو ان تصبح هذه المنطقة مكمناً للخطر يهدد السلام في اوروبا .

تفقر تركيا وبروز الدول البلقانية والوضع السياسي في البلقان يبدو كثير المزالق واكثر ميوعة . فشب الجزيرة البلقانية هذه التي تقاسمها الجبال العالية وتجعل منها مناطق موصدة وحجيرات شبه مغلقة ، لا تضم ، بخلاف شبه الجزيرة الالبرية المقابلة في الطرف الآخر من البحر المتوسط ، أي صعيد في وسطها ، واصبحت على قاب قوسين وادنى من تحورها من نير الاتراك العثمانيين وعبوديتهم . نحن هنا أمام فتح مسيحي جديد . فقد حلت التجزئة محل الوحدة الاسمية ، وقد استفحل تدخل الدول الاوروبية في هذه المنطقة التي وقعت في صلب ما يعرف بالقضية الشرقية التي تعني النظر في أمر وراثة أو التصرف بتركة « الرجل المريض » ، اذ نرى من جهة ، الروس يشربون بأعناقهم الى القسطنطينية والى المضائق ، كما نرى من جهة أخرى البريطانيين يقفون في وجههم ويقطعون عليهم الطريق ، كما نرى الضغط الجرماني المجرى يشتد ليتجه من حوض الدانوب السفلي شطر بحر ايجيه ومنافذ البحر الادرياتيكي . لعبة متشعبة ، معقدة ، يمل فيها الاتراك النفس بالأمل ان يفضي هذا التنافس الى ترسيخ اقدمهم كما تملل القوميات التي تتحرك وتجوهر في هذه المنطقة النفس بأمل الاستقلال على ان نجد بين الدول الاوروبية الكبرى من ينصرها ويقف الى جانبها . وهكذا فتلوع هذه الدول البلقانية وإطالاتها على الدنيا ، تم نزة نزة ، وفقاً لماجريات السياسة الاوروبية .

فقد فرضت هذه السياسة على السلطة العثمانية ، في مطلع القرن العشرين ، الاعتراف باستقلال اليونان ، وهي سابقة حرصت قوميات عديدة على تذكرها في اليوم العصيب . ولكن دولة اليونان هذه التي برزت عام ١٨٢٩ ، جاءت دولة فقيرة ، « قاحلة جرداء » في معظم مناطقها - هكذا تبدت للامارتين ، عام ١٨٣٣ - لا مال عندها ولا حكرمة ، قوامها وكيانها يتألف مسن مقاطعة الاتيك وجزيرة أوبه ومقاطعة البلوبونيز القديمة (الموره) وجزر السيكلاذ ، وهي تتأرجح بين النفوذ الروسي والنفوذ البريطاني . ومع ذلك فسيتنازل لها الانكليز عن الجزر الالبرية ، ثم حالها الحظ فضمت اليها مقاطعة تساليا وفكرت جدياً بضم جزيرة كريت ومقاطعتي الأبير ومقدونيا ، كما توجهت بأنظارها نحو شواطئ ايجيه الآسيوية : حركة ضم وتوحيد

جريئة لعمري ، اذا ما نظرنا الى ضعف وسائل التنفيذ والعمل المتبسرة لديها . فحق الاقتراع العام يفعل فعله ، كما ان الأقبال على العلم والتعلم ينبض في كل صدر . الا ان الاقتصاد الوطني يشكو من الفقر المدقع كما ان الحاجة الشديدة للفنيين ولرؤوس الأموال 'مقعدة لها 'مرزحة ' ، اذ ان تحصيل العلم يفضي بطالبه الى مزاوله المهن الحرة والى الوظائف العامة والى المراكز ذات المرتبك المفرقات والى المترك السياسي . واثنا التي كانت قسبة صغيرة عند الاستقلال ، ألبانية الطابع والسمة اكثر منها يونانية ، قفز عدد سكانها من ١٥ ألف عند المناداة بها عاصمة للبلاد الى ١٠٠،٥٠٠ شقت فيها الجادات الواسعة في وقت عجزت فيه مرافق الزراعة عن تأمين إعالة السكان الآخذ عددهم بالازدياد بسرعة ، فبعد ان عطلت قلة المواصلات واقتتار البلاد للادوات والاجهزة المسمفة كل حركة . وسوء توزيع الملكية في البلاد وتوزيع الاقطاعات التركية لم 'يحمل قط دون بقاء اصحاب الاملاك الضخمة برزحون تحت وطأة الضرائب والاعشار . فالاغريقي يؤثر التجارة ، وهناك جانب كبير من الاغارقة يعملون خارج هذه المملكة الصغيرة التي أمدتها باقاربا بملك من عندها عقبه ملك آخر من الدانمارك ، على أمل أن يبقى هؤلاء الامراء فوق الحزبيات الهلية التي تتطاحن فيما بينها للاستئثار بأكبر عدد من المنافع . هذا هو لعمري وضع الاعجوبة اليونانية .

وهذه اليونان التي تؤلف شبه جزيرة صغيرة في قلب شبه الجزيرة البلقانية مع ما اليها من جزر متناثرة ، تشمر في الصميم ، انها تتصل بالبحر الابيض المتوسط بكل جوارحها . اما القوميات البلقانية الاخرى التي تتسم بالاحرى بالطابع القاري الشرقي ، فهي تور وتتحرك ضمن حدود مبهما لا تستقر على وضع ولا على حال .

هنالك ابن تائه للحركة السلافية يحتل في هذه الجبال الوعرة المسالك ، عش نسر لا يرام ، يخضع لسيطرة العثمانيين . هذا البلد يعرف عند الاتراك باسم : كراداخ وعند الايطاليين بالجبل الاسود ، وعند اليوغوسلاف ب *Tserno Gora* ويطل من سهل على نهر كوتور (كاتارو) . وتؤدي الى هذه الامارة الشيوقراطية التي يؤول الامر فيها لآل بتروفتش نيفوش ومن اليهم من هؤلاء الاقوام الرعاة الذين يترواح عددهم بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألف نسمة ، الطريق الوحيدة المبد لعربات الجر . فهو يكاد لا يظهر على الخريطة الجغرافية ، ومع ذلك فقد كان حصناً حصيناً من حصون الحركة الصربية منذ ان لاقت صربيا دوشان حتفها في معركة كوسوفو الطاحنة .

وتبعت صربيا من جديد ، ولو ببطء فتمتقطع محلا لها تحت الشمس ليس بين انهار بانونيا ، بل عند ملتقى نهري الدانوب والساف فيجريا مما في وادي . ورافيا باتجاه مقدونيا . وهؤلاء الانكشارية الذين اتخذوا من قلعة بلغراد حصناً حريزاً لهم لم يهدأ يوماً لهم روع ولا بال منذ ان تلاحق على مهاجرتهم ، دونما ملل ، هؤلاء الفلاحون الخوارج الاشداء من سكان المقاطعات

المجاورة يرون قطعان الخنازير في غابة البلوط القريبة ، « غابة عذراء » في عيني لامارتين الذي زارها عام ١٨٢٩ . وميلوخ اوبرنيوفتش الذي اعلن نفسه رئيساً اعلى *Knez* للامة الصربية كان احد مرابي الخنازير ، على شاكلة كارا جورج الذي تولى قيادة الثورة في عهد نابليون وراحت الامارة الصربية تجاهد صابرة ، دونما ضجة في الظاهر ، وتناضل في سبيل التحرر من ربقة الاتراك العثمانيين ، محاولة التوسع عبر مجاز نهر المورافا. الا انها عجزت عن الوصول الى احواض مقدونيا ، كما فشلت في محاولتها الاتصال بالشقيق الجبل الاسود . فقد استطاع الاتراك الاحتفاظ بالمجازات التي تفضي من تراقيا الى شواطئ البانيا والى البوسنة. وقد أقصيت ، هذه الاخيرة ، عام ١٨٧٨ ، من الدولة السلافية الجنوبية ، التي تخلت عنها روسيا وتركها وشأنها ، برهة من الدهر ، لتقع تحت تابعة الامبراطورية الاوسترو - مجرية الاقتصادية . وبعد ان حبل بينها وبين البحر وانعدمت لديها كل الامكانات . والوسائل الضرورية واصبحت عالة على القروض التي تأتىها من الخارج ، وبقيت مملكة آل اوبرنيوفتش ، حوالي عام ١٨٩٠ ، بلداً فقيراً سكانه الفلاحون يتكاثرون وينمون بسرعة تشدهم بعضاً الى بعض وشائج القربى والتماكك مع مجتمعهم . ومع ذلك ، لن يلبث هذا الشعب الفخور ، المناضل الذين لا يزيد عدد سكانه على مليوني نسمة ان يصبح مناط امل اليوغسلافيين الوطنيين الذين نظروا اليه نظر الايطاليين الى البيامونت فكان محور وحدتهم وعمل على جبهتين : ضد الاتراك وضد النمسا والمجر .

وقد لعبت الـ *Munte* المولدا في الفلاح ، في مطلع القرن التاسع عشر دوراً يشبه الدور الذي لعبته *Chaumadia* عند صغار المزارعين والرعاة الرومانيين متخلين عن الـ *Cimp* او السهل ، للاسياد الروس *Boiars* الذين اخضعوا المزارعين العاملين عندهم لعبودية الارض تجار الحي اليوناني المعروف بالفنار . في استنبول فالثورة اليونانية أقصت سلطة السلطان عن الفنانيين واستبدلتهم بأمرأ محليين من ابناء اليونان جرى انتخابهم من قبل الـ *Boiars hospodars* الروس . ومع ان هذه الارستوقراطية الاقطاعية حررت الفلاحين واولتهم ، عام ١٨٦٤ ، حق تملك الارض ، على غرار ما فعلته الحركة الاصلاحية الزراعية في روسيا ، الا انها لم تفقد شيئاً من سيطرتها وبأسها بهذا الاستقلال الذي سام نابليون الثالث بتحقيقه . فهي تحكم رومانيا المولدو - فالاخ تحت ستار دستور معلن ، وتفتح ابواب البلاد امام رؤوس الاموال الاجنبية التي تطمح الى السيطرة على ثروات البلاد من الحبوب والخشب والبترول . وهذا الاستثمار حرص على ان يبقي متدنياً ، مستوى العيش في شعب خصب التناسل ، سريع الحاطر ، حاد الذهن .

والسياسة الحزبية التي تعلن عن نفسها متحررة ، لم تحل قط دون ثورة الفلاحين ولا دون اضطهاد الاقلية اليهودية في البلاد والغالبية الوجود في المدن . هنالك نخبة صغيرة ثقافتها فرنسية تقطن قلب بخارست تقابلها هذه الجمهير الريفية التي تتسكع في الجمل والجمالة والتي تفتقر في الصميم لكل جهاز وآلة ، تشاطر الحيوانات الاهلية مسكنها الذي يتألف عادة من اكواخ من اللبن او من روث البقر الجفف سقفه المعروف من القش أو من القصب ، في جو قاس منفر . هذا وضع

تفتح منه رائحة الروسي الذي يصدر الحبوب في الوقت الذي يتضور الفلاح فيه جوعاً . فالوفيات بينها هائلة والاتصال في خصب غريب . فرومانيا التي كانت تعد عام ١٩٠٠ خمسة ملايين نسمة هي اكثر دول البلقان سكانا. فضمهم لمقاطعة دوبرودجه القفراوية على البحر الاسود لم يعوض عليهم خسارتهم لمقاطعة بسارابيا الجنوبية التي اضطروا للتخلي عنها للروس . اما هذه الاتفاقات التي توصلوا الي عقدها مع فيينا ومع برلين بتأثير الملك شارل هوهنزولرن فهي لا تتسجم كثيراً مع هذه الوشائج اللاتينية التي كثيراً ما تبجح بها سكان رومانيا المعاصرون عند الدائوب السفلي .

والى الجنوب من هذا النهر تبرز بوضوح سيطرة الاتراك . فأينما أجلت النظروقت منك العين على الاملاك الضخمة و « الجفتلك » التي تعود لهؤلاء البكاوات والآغاوات ، والفلاح فيها مشدود الى الارض شداً وثيقاً تابعاً لها يزرع تحت الجزية والحراج . فقد سجل الاسلام هنا ارتدادات كثيرة تفادياً من الأهلين للطرده ولمصادرة املاكهم وأراضيهم . وهكذا اعتنق الاسلام البوماك او بلغار الرودولف ، والالبانيون في الجنوب ، وعدد كبير من قرى و دساكر الصرب في البوسنة . ومن جهة ثانية فقد أقام مزارعون اتراك لهم ، هنا وهناك ، مزارع عديدة . وفي وادي نهر المارتزا ، حيث خضع الفلاحون لمبودية مرزحة عرفوا هنالك باسم روملي او رومي اي روماني ، الا انهم في الواقع ، من عرق البلغار ، هؤلاء البلغار الذين يرجع أصلهم البعيد الى قبائل الهونز ، تمت صقلبتهم على نطاق واسع واعتنقوا الارثوذكسية واستمسكوا بأراضيهم . وأتيح لهم ان يؤسسوا امبراطورية دامت ردها من الزمن ، ولم يلبثوا أن رزحوا تحت ضغط البكاوات ، عرضة للسرقه والاعتصار من قمل التجار اليونان يقنعون ، طعاماً لهم ، بكمكة وبعض البندورة والبصل واللبن . فللمدن طابع تركي صرف بماآذنها الشاهقة واسواقها المسقوفة . ويبدو ان يقظة الضمير القومي في هذا الشعب تمت بصعوبة .

وفجأة أطلت علينا ، بدافع من أطماع قيصر روسيا ، عام ١٨٧٠ أكسرخا (اماره) بلغارية كما راح دعاة الروس يحثون الفلاحين المهتاجين على الثورة ويدعونهم لانشاء دولة كبرى لهم ، تمتد من البحر الاسود حتى مشارف مقدونيا في إطار هذه الاكسرخا . والحال فقد اعتاد السلطان ان يحرك البوماك والارناؤوط المسلمين ضد سرايا الكومتياجي المسيحيين . فالفظاظات التي اقترفها هؤلاء الباشبازق ، المعروفة في التاريخ « بالمآسي البلغارية » والاضطرابات التي وقعت في المنطقة وامتدت حتى البوسنة ، كانت السبب المباشر في اشعال الحرب البلقانية عام ١٨٧٧ ، كما كانت فرصة لتدخل الجيش الروسي فسجل على الاتراك انتصاراً كلفه غالياً . غير ان مؤتمر الدبلوماسيين الذي عقد في برلين ، في السنة التالية لم يقر سوى قيام « اماره مستقلة ادارياً خاضعة لولاء السلطان ، هي بلغاريا الجنوبية التي فصلوا عنها المقاطعة الجنوبية المعروفة باسم الروميلي الشرقية ، بينما اوقف التقدم الروسي عبر وادي مورافيا واعترف للامبراطورية الحق بإدارة البوسنة والهرسك . والثابت ان الامير اسكندر باتنبرغ اي شقيق الامبراطور اسكندر الثاني اخذ منذ عام ١٨٨٠ ، يعتبر نفسه « امير بلغاريا الشمالية والجنوبية » الا انه لم يلبث ان

اختلف والقيصر واضطر ان يرفع استقالته كما اضطر خليفته الامير فريدينان الاول من اسرة ساكس كوبرج الملقب « برئيس الداساين » ان يهد الطريق لمدة طويلة وان يراعي جانب الدول الكبرى وان ينمي الموارد اللازمة لامة خصص الانسال فيها والتوالد لا يقل بشيء عما هي عليه جاراتها من هذا القبيل ،مدقوعة الى ذلك بما ركز في طبيعتها من حب للعمل وما فيها من عطش ورغبة في العلم اذا ما ارادت يوماً ان تعاود سيرتها في جمع شمل كل الشعب البلغاري .

الا ان تركيا لا تزال تسيطر على ممر ضيق من الاراضي ينطلق من المضائق ويستمر بلا انقطاع حتى يتصل بتراقيا وجبال رودولف بمقدونيا والباينا والايير حيث يؤلف الاقوام فيفساء مدهشة من الشعوب والاجناس. ويقوم الى الغرب من هذا الممر العرق الالباني، كاثوليكياً كان او ارتوذكسياً او مسلماً، ويميش مستقلاً في جبال صعبة المرتقى كثيرة الانحدار، تنتهي بسهل ساحلي ضيق يمتد على سيف البحر. أما في الوسط ، فتقوم مقاطعة مقدونيا، ذات الاسم الساحر ، وهي تتألف من كتلة الجبال الصعبة ومن الناس ساكني تلك الجبال ، وهم اقوام يفتخرون الى عرقية واضحة المعالم ، ينظر اليونان الى هذه المنطقة باشتهاه وازورار، كما يحدجون بانظارهم سالونيك حيث يؤلفون ، مع اليهود ، اكلوية هؤلاء اليهود الذين قدموا من اسبانيا واستولوا على مرافق البلاد التجارية، كما ان الصرب كانوا يطالبون بها لأنفسهم تحت ستار رابطة اللهجة المحكية؛ يجوبها ظعناً بمواسيهم ، اقوام من رعاة الالبانيين والفالاخ . وفي نهاية الامر يستقر الاتراك فيها وقد زرعوا فيها الفوضى باهمالهم الفاضح ، وعرفوا ان يستثمروا لمصلحتهم الخاصة المناقسات الحامية بين هذه الاقليات المتباينة الاجناس والعروق . واخيراً نجد في الطرف الشرقي من هذا الممر ، مقاطعة تراقيا التي تؤلف مفترقاً طبيعياً للطرق المتصالبة ، وهي مقاطعة تتميز بطابعها السهلي يتشبث الاتراك بملكيتها كما يطالب بها البلغار على السواء . فهي تضم الرأسين الجغرافيين المندفعين في البحر باتجاه آسيا، احدهما يحمل عاصمة السلطنة التي تسهر الدول الكبرى العظمى على سلامتها وبقائها بغيره وحرص كبيرين .

فهذا الجزء من اوروا الجنوبية الشرقية ، لم يعد اوروبياً بالفعل . فبعد ان وزح اجيالاً متطاولة تحت وطأة الاتراك الذين اهملوا شأنه وأساؤوا استغلاله ، فقد وقع فريسة سهلة للتقسيمات السياسية بين قوميات غشوشنة ، مقتولة العضلات ، حربية المزاج فقيرة الحال ، عرضة دوماً للفوضى والاضطراب ، وهو وضع لم تحاول الدول الاوروبية الكبرى التخفيف من حدته او ادخال اي تعديل عليه . وموقف ألبانيا بذكرنا حتماً بموقف مقاطعة القبائل في الجزائر كما تذكرنا مقدونيا بسوريا . اما هذه المدنية الزراعية والراعية بما لها من عادات مجتمعية ، واعراف قومية وانماط العيش السائدة بين اقوامها، فهي تذكرنا ، وبحق ، بروسيا القريبة منها .

المهد الاستبدادي الروسي والنظام
القديم قبل حرب القرم

للامبراطورية الروسية منذ حرب التحرير التي خاضتها ضد
الفتح النابوليوني نفوذ كبير . فهي الحامية للنظام التقليدي
السائد في أوروبا ، وهي الهادفة باستمرار ، الى تحقيق
« الحلم اليوناني القديم » متابعة فتوحاتها الداوية في قلب آسيا وأطرافها الشمالية الشرقية . الا ان
حرب القرم وما رافقها من شؤون وشجون وماجريات كشفت مجلاء عن عورات هذا الحكم
المطلق وعن خلخلته .

هنالك سلطة تفرض الطاعة العمياء ، وشعب يأخذ بالخرافات والاساطير ، واحكاليروس
كهنته جهة أميون لا اخلاق لهم ولا اعتبار ، يعمل في خدمة السلطان المستبد ويأتمر بحركات
بنائه ، وطبقة من اسباد الارض يتمتعون بامتيازات عريضة شريطة السير في ركاب الحكومة
والنظام ومساعدتها على ابقاء الفلاح تحت ولائها ، وطبقة من الموظفين هم من البساطة
والسذاجة ما يخفف كثيراً من وقع تصرفهم الكيفي ، الا ان الكسل والاهمال والمجرفة
أصارتهم مكروهين من الناس . (من المبادئ التي سارت بينهم ان الكلل يسرقون ، وان
يسوع المسيح نفسه كان سرق لو لم تكن يدها مسمرتين على الصليب) ، وشرطة بوليسية لها
محاكمها الخاصة تخضع البلاد والشعب لمراقبة شديدة ضيقة ، ولنظام حجر صحي أسر شديد
يتصل نشاطه خارج روسيا ويعمل بغير علم السفارات الروسية ، وجيش بطاش هو أداة لفرض
هيبة الحكم وللنظام في البلاد ، واداة الفتوحات الاستعمارية ، الا ان عدم الانضباط فت في عضده .
أما جمهرة الفلاحين فهي حيناً راضخة مستسلمة لمصيرها ، وحيناً متذمرة متأففة من وضعها
المرزح المرهق ، تزاعة الى ردود فعل بربرية وحشية ، تكره نظارها وتحقد على وكلائها ،
ألفت الحياة المجتمعية ، وتكالبت على الارض بنهم ، متخاذلة في مطالبتها بالتححرر من رق
الارض وعبودية الفدانة (ظهري مطية لك يا سيدي ، اما الارض فهي لي) ، هاجزة ، مع كل
هذا ، عن ادخال أي تحسين على الوضع الزري الذي يكتنفها . هنالك طبقة بورجوازية ،
متوسطة وطبقة من أصحاب الحرف منصبة على العمل (د فليس في روسيا من طبقة ثالثة او
طبقة الشعب ، كما تلاحظ بحق مدام دي ستال) . هنالك صناعة مرتبطة بالدولة رأساً او ببعض
الاسر الشريفة ، أو بأصحاب رؤوس اموال اجنبية تحميها التعريفات الرسمية ، تسير في تقاليدها
المرعية ، لا تصيد عنها ولا تجدد فيها . (فالامبراطورية تتوقف عن تصدير ما تنتجه من الحديد
عندما لا تلاقى شاريا او زبوناً يرغب فيه بينما تستمر في بيع الحبوب) وبخلاف ما نشاهد في
الغرب ، فالثروة المنقولة محدودة للغاية ، والحرف اليدوية تفتقر اصلاً ، للآلة وتفضل العمل
الريف حيث تتوفر لها اليد العاملة . والمدن تشبه ، في سوادها الاكبر ، قرى وضياعاً كبيرة
منازلها من الخشب ، بعضها يستخدم كقلاع او حصون ، لها احيائها المقفلة ولها ما يعرف عندهم
بـ *Kremi* ، والحركة التجارية في البلاد مشلولة لعدم وجود طرق للمواصلات يسهل معها
التنقل والانتقال ، وللتضيقات المفروضة عليها من قبل الاجراءات القانونية من جهة ولقلة
النقد بين ايدي الناس ، من جهة ثانية .

كل شيء في هذا الهيكل الاجتماعي القائم في البلاد ، وفي العقليّة المسيطرة على الناس يقف في وجه تطور رأس المال الحر الذي يعتبر بحق ، الخير الذي يُطلع كل ثورة اقتصادية في البلاد ، وسيؤول في نهاية المطاف الى زعزعة نظام الحكم القديم السیادي ، المطلق . فكيف السبيل الى إدخال اصلاحات على المؤسسات والنظم القائمة في البلاد دون إحداث هزة عنيفة في قلب هذه الطبقة الضخمة من الفلاحين الجبهة وبدون نقل هذه الهزة الى الاقوام الاخرى ، وبالتالي دون مس وحدة البلاد وإثارة التشكك في سلطة القيصر نفسه التي عليها يرتكز كل بناء الدولة ؟ وهكذا ندرك جيداً كيف ان كاتباً مثل غوزول او تورغنيف او سلتيكوف تشيدين الذين رسموا لنا صورة ناصمة لهذا النبيل المنحرف الاخلاق ، ولهذا الموظف المختلس ، لا يستكفون عن التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظر مثل هذه روسيا العفنة .

ولكن لم يكن بدّ هذه البلاد من ان تتبنى الاساليب والاشكال الجديدة التي يقتضيها الانتاج والتبادل التجاري . فوجودها ذاته يتوقف على هذا . فال فشل الذي منيت به الجيوش الروسية امام سبستوبول تعود اسبابه البعيدة التأخر ويجب رد بواعثه الدفينة لهذا الوضع الذي رسفت فيه البلاد . فالقوة الحربية لا يمكن ان تقوم لها قائمة ما لم يدعمها اقتصاد قوي صحيح ، وما لم تطلق البلاد الاساليب البالية التي سارت عليها . وعبثاً يُخضع القيصر نيقولا الجامعات في البلاد لرقابة خانقة ، ويفرض على الكتب والمنشورات مراقبة لا ترحم ولا تلين ، فهو اعجز من ان يمنع كل اتصال مع الغرب ، ولا يستطيع ان يكتم الافكار والالسنه . صحيح انه حدث بعض التطور في البلاد منذ محاولة القتل التي قامت بها جمعية الفحاميين السرية . فالافكار المتوارثة عن الثورة الفرنسية تنكفئ وتعود القهقري في الوقت الذي تقوم في البلاد ردة ضد عقلانية القرن الثامن عشر ، التي تهاقت عليها الاوساط الارستوقراطية لتلقف مبادئها وتماثلها . فقد حل محل الفلسفة الفولتيرية الفلسفة الهيغليانية التي غذت في البعض عبادة الدولة كما دفعت بالبعض الآخر الى الثورة والتمرد . وهكذا ظهر في البلاد ، في اعقاب حرب القرم ، تياران قويان تنازعا السيطرة على الافكار واستبدا بها: تيار « الفريين » الذين شمروا عميقاً انهم قرييون من خصوم المهد كالاشاركيين والفوضيين والليبرية البورجوازية اكثر هذه الحركة الليبرالية ، و « انصار السلافيين » الذين استقر في روعهم ان التقليد الروسي يمكن له ويترتب عليه ان يمد الطريق لتعاون وثيق بين القيصر والكنيسة الارثوذكسية ، والموجيك (اي الفلاح الروسي) الذي يُشيد كورولينكو وتولستوى بفضائله العليا . ولكن كلا التيارين ، ينظر على ما نرى الى المجتمع القروي صاحب المزارع واشكال العمل واهدافه ، نظرة ملؤها الارتياح والرضى . فاذا ما استسلم بعضهم لليأس وراحوا يصفون ما تقاسي النفس الروسية من عذابات الیمة ويصورون الشقاء والبؤس الذي يتسكع فيه المجتمع الروسي الفارق في الفوضى ، فمعظم القوم يؤمنون بقدرة البلاد على التجدد كما لا يسقط بعضهم من حسابهم احتمال قيامها بهمة ثورية .

الائمة الروسية في عهد اسكندر الثاني- الاصلاحات وبيوادر الحركة الثورية

من الواضح ان النهوض بالامة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنجاح عملية واسعة للاصلاح الزراعي. ان إلغاء رقب الارض وتحرير الفلاح لا يزالان من الطريقي كل العقبات. فتحرير الفلاح دون تأمين وسائل العيش الكريم له هو بمثابة اعداد مستقبل مليء بالمخاطر والشورور. ولما كان لا يمكن التفكير مطلقاً بمصادرة املاك النبلاء دون التعمير عليهم ، كان لا بد من فرض فداء للأرض وفقاً لشروط ، ولو محففة نوعاً بحق الملاك ، بدلاً من شروط يزرع تحتها صاحبها الجديد. ومهما يكن ، فملى السلطة ان تتحرك وان تقوم بعمل شيء ما. من هذه الاحداث التاريخية الهامة ، الثالث من آذار عام ١٨٦١ ، اذ فيه يملن القيصر اسكندر الثاني الذي اخذوا بتلقيه ، ابتداءً من هذا اليوم « بالحرر » ، تحرير الفلاحين . فجمهور الفلاحين يجزل غبطة وسروراً. الا ان خيبة الامل لن تتأخر .

والذي حصل بالفعل هو محدود بالفداء لصالح المجتمع الريفي . فالدولة تقدم ١/٤ المبلغ المتوجب. فالتملكون بنالون سبعة هكتارات بوصفهم مزارعين تابعين للتاج وقد تنخفض حصة الواحد الى ٣ هكتارات في الاراضي السيادية حتى تصل الى هكتارين في الاراضي ذات التربة السوداء ، اذ لا مصلحة للملاك في التنازل او التخلي عن شبر واحد من هذه الاراضي . فهم سيقون يعانون الجوع الذي ستشدد وطأته مع التقسيم الجديد للارض بعد ان يتضاعف عددهم بفضل ارتفاع معدل المواليد في البلاد . فيستعبرون أنفسهم قد هُزىء بهم وراحوا ضحية السرقة بينما تشابك القطع الزراعية التي فالوها بالقطع التي بقيت للملاك السابق ستكون مثاراً لدعاور كثيرة امام القضاء. كل هذا والتبلاء ينفثون احقادهم: فقد اقتطع من حسابهم ليس مبلغ مساو للدين فحسب بل ايضاً لم يستلموا سوى سندات لن تلبث قيمتها ان اصيبت بالهبوط. فلأعجب والحالة هذه ان تباع املاكها او ان تؤجرها للتجار. فالاملاك التي احتفظت بها لا تستغل بصورة احسن من قبل ، والفلاح الروسي لا يستطيع - لو شاء - ان يدخل اي تحسين على وسائل الزراعة . وبعض افراد هذه الطبقة لهم من الاراضي اكثر مما تستطيع استجاره (٧٥ مليون هكتار لم يستثمر منها سوى ٢٥ مليوناً ، حوالي عام ١٨٨٠ ، كما ان البعض الآخر كان يشكو من الحرمان او من عدم حيازته ما يكفي منها (١٠٠ مليون) فقد كان هذا الاصلاح عملية فاشلة من كلا الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية

ردت الجماهير الروسية على مقتل « الحرر » و« حسن النية » بالجمود . فمحصول سنة ١٨٨١ كان طيباً كما ان جهاز الدولة تمكن من السيطرة على الحركة الإرهابية ، ولم تشهد البلاد سوى بضع مؤامرات فردية منها المؤامرة التي وقعت عام ١٨٨٧ التي أودت بحياة أوليانوف الشقيق الاكبر للنين . فبعد ان عرف كيف يكسب الوقت باعلانه عن انشاء مجلس عام من الـ Zemstvos وتخفيضه معدل فداء الارض بعد ان جملة

إلزامياً وبأنشائه مصرفاً للفلاحين يعنى بتسليف الهيئات الزراعية في القرى ما تحتاج اليه من الاموال لاستثمار اراضيهم وتخفيض ضريبة الاعناق وساعات العمل في المصانع ، وبتنظيم الهجرة الرسمية الى سيبيريا . وقع القيصر الجديد الذي رأى في الحركة التحررية هذه شيئاً يبعث القرف في النفس ، تحت تأثير استاذة القديم بوبيا دونستريف الاخصائي الكبير في القانون المدني الذي عين معتمداً امبراطورياً لدى السينودوس المقدس ، والذي راح يدعو الى «ملكية» اشتراكية ابوية على اساس من التسلسل الطبيعي . وقد اخذت ردة الفعل تميل نحو النبلاء ورجال الدين والوطنيين . ففي الوقت الذي انشئ فيه مصرف يعنى بمساعدة النبلاء الذين يمحزون عن استثمار املاكهم ، أعيد الى الـ *Barne* القديم الدور التقليدي الذي مثله من قبل بوصفه قياً على الفلاحين ومرجعاً لهم في المناطق الريفية . وقد لعبت الارثوذكسية دورها المعروف في الضغط على القوميات الغربية ، متممة في سياستها تلك اسلوباً منهجياً . ولم تلبث السلطة المدنية ان اشتدت وطأتها فضربت بيد من حديد الطوائف والملل الاخرى (*Skopsy* المنحرفين) والعقلانيين ، حتى الكاثوليك في بولونيا ، والاورثيين في الولايات البلطيقية ، وسببت ارتعاجاً كبيراً للبطريرك رئيس الكنيسة الارمنية ولم توفر المسلمين في القفقاس حتى شملت البوذيين في آسيا واشتدت وطأة الاضطهاد خاصة ، على العنصر اليهودي الذي اصبح منذ ذلك الحين هدفاً لتدابير عنيفة اتخذت ضده . وقد وضع اولو الامر في بطرسبورغ خطة لتحقيق الوحدة في البلاد . رمت فيما رمت اليه من اهداف الى « ترويس » فنلندا وانولايات البلطيقية والبولونية وبارابيا وطبعها بالطابع الروسي الى حد انها بعثت كردة فعل ، حركة انفصالية بين هذه القوميات التي راحت فريسة الضغط والارهاق . وفي الوقت ذاته وجد عهد الاستبداد هذا عوناً مالياً ودبلوماسياً وعسكرياً لدى حكومة الجمهورية الفرنسية في باريس دون ان يقطع علاقاته بالامبراطورية الجرمانية .

وهذا الجهد المؤقت الذي بذله الحكم المطلق في روسيا لاعادة هيئته ونفوذه يجب ربطه بحركة التطور الصناعي الذي اخذت روسيا بأسبابه ، اذ ذاك . فقد تهاقت رؤوس الأموال الاجنبية على هذه البلاد بعد ان أخذت بسحر غنى مواردها الطبيعية الهائلة ووثقت بصلاحتها للاستثمار والاستثمار . ففتحت المناجم وارتفعت في كل بقعة ومكان المصانع والمعامل التي اخذ سكان الريف البائسون يتجهون اليها من كل فج وصوب من جميع انحاء البلاد .

والاحصاء الاول الذي وقع عام ١٨٩٧ ، دل على ان سكان البلاد قفز عددهم الى ١٢٥ مليوناً بعد ان كان ٥٧ مليوناً عام ١٨٥٠ ، كما اثبت ان مقابل ٣ ملايين من صفار الملاكين ينعمون باليسر كما استقر في الازهان ، هنالك ٢٢ مليوناً روسياً م من البروليتاريا يعملون في خدمة الصناعة ، ٣٦ مليوناً من صفار الفلاحين الملاكين الفقراء و ٤١ مليوناً من البروليتاريا المزارعين . ويشير الاحصاء بشيء من الرضى الى الارقام العالية التي سجلها الانتاج في البلاد . اكتسبت الامبراطورية الروسية ، في بعض المجالات ، محلاً مرموقاً بين الدول الاقتصادية

الكبرى ، إلا انها تبقى عاجزة عن تلبية حاجة الاهلين من الغذاء . فهي تسجل ادنى مستوى للمعيش على الاطلاق في اوربا وتشير غالباً الى صادرات البلاد العظيمة من القمح وتهمل تماماً الاشارة الى الفقر والمجاعة الضاربة اطنابها فيها .

وقد شجع *Rejtern* بوصفه وزيراً للمالية في عهد القيصر اسكندر الثاني مرافق الصناعة في البلاد ، وهي سياسة تبناها وسار عليها خلفاؤه في هذه الوزارة ، امثال بوننج وفتشسغرادسكي وفيت (الذي كان موسيقياً أعجبت بليست وشرحه) . واقبلت روسيا تقترض من الخارج واستجابت الدول لنداءاتها في هذا المجال . فالدين العام زاد خمسة اضعاف واربى على خمسة مليارات عام ١٨٩٥ كما ان النظام المصرفي تطور في البلاد بسرعة . والدليل التجاري الاعلى الذي كان بمعدل ١٠٠ في الفترة الواقعة بين ١٨٠٠ - ١٨٢٥ ارتفع الى ٩٧٢، للفترة الواقعة بين ١٨٧٤ - ١٨٩٩ في حين ان عدد السكان لم يرتفع الا ثلاثة اضعاف . وهكذا دخلت روسيا حلبة التجارة الدولية على حساب طبقة الفلاحين فيها التي أستبيحت كما ان الطبقات الشعبية فيها راحت فريسة ضرائب ورسوم مرزحة . ومهما يكن فقد ساعدت هافت رؤوس الاموال الاجنبية على توسيع شبكة الخطوط الحديدية ، واصلاح المرافىء والموانىء البحرية والاقنية النهرية ، والصناعات الاستخراجية والانتاج الميكانيكي والمنسوجات في كل من بطرسبورغ وموسكو واوركرانيا . من الرواد في هذا الميدان ولا سيما في حوض الدونetz ، الروسي بوهل الذي عرف ان يستثمر رؤوس اموال فرنسية والانكليزي يوث . وتولى فرنسيون من مدينة ليون ، ادارة شركة كاما التي راحت تعنى بانتاج الصلب والصفائح الحديدية ، كما اشرف غيرم على صناعة الحرير في منطقة موسكو . وسفل بلجيكيون ، والمان مراكز هامة في البلاد وفي هذا العهد راح السويدي لودفيغ شقيق ألفرد نوبل ، وهو من رجال الصناعة المشهورين اذ ذلك ، يتمهد بناء البوارج الحربية في كرونستادت . واخذ يدعو لبتترول باكو كما يصمم الصهاريج وبواخر النقل الخاص بالبتترول .

وأخذت المدن العمالية تنمو وتكبر بعد ان شيدت على عجل دون الاهتمام كثيراً بوسائل الراحة والترفيه . هنالك مساكن يفتقر ساكنوها الارض المراء لا حصير فيها ولا فراش . وقد اعدت بعض الشركات لعمالها مباني ضخمة جهزوها بالحمامات والمغاسل وراح بعض ارباب العمل يفرضون على العمال شراء موادهم الغذائية من مخازن التموين التي انشأوها بالقرب من هذه المباني ، كما ان العمال راخوا يؤلفون لهم ، في بعض الاماكن تعاونيات لتأمين حاجياتهم . واليد العاملة غير مستقرة تقترض عليها ايام عمل شاقة وطويلة بأجر سيء وانتاج ضعيف ، كثيراً ما يتعرض العمال فيها لحوادث العمل ، ينمون فيهم روح النعمة وحب الثأر والانتقام . ومنذ عام ١٨٨٠ ، قامت في البلاد اضرابات عديدة أدت الى هبوط كبير في الاجور كما ان ارباب العمل كثيراً ما عمدوا الى اقتطاع بعض اجور العمال اقتصاصاً منهم لسوء العمل . ولهذا الاسباب

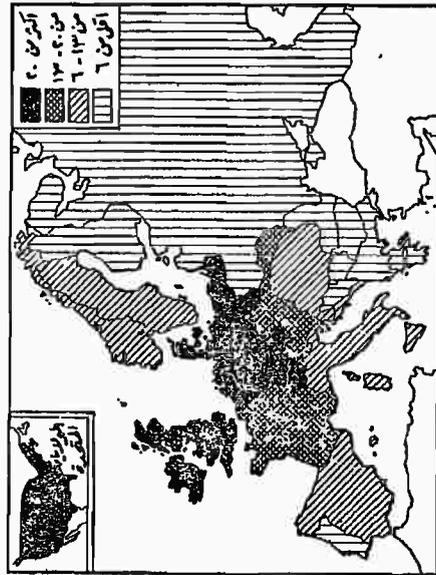
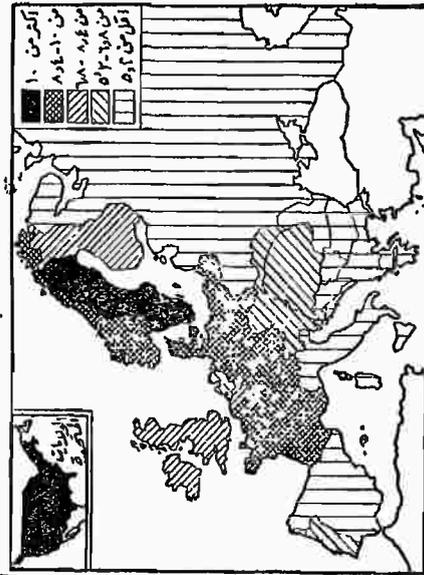
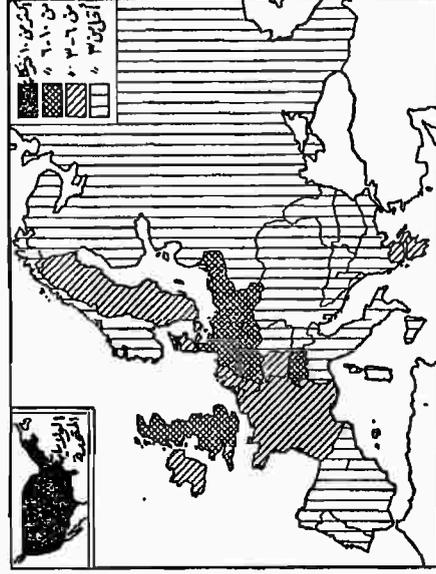
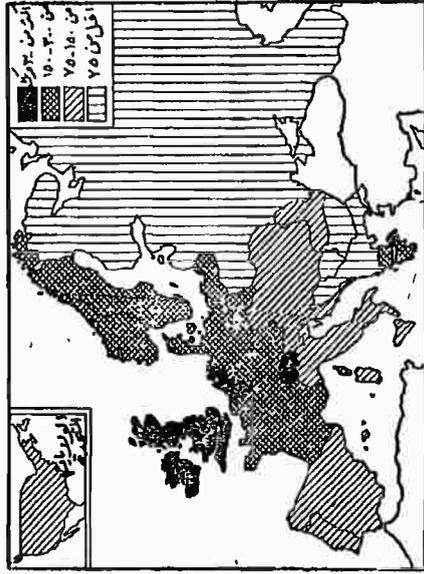
راحت حكومة القيصر تحاول الحد من هذه التصرفات الصارخة وترسم سياسة اجتماعية لتتسم بروحها الابوية .

ومع ان الطابع العام للبلاد هو طابع ريفي فلم يستفد الفلاح الروسي كثيراً من فوائد الصناعة . من المفارقات الصارخة ، هذه الاراضي ذات التربة السوداء الصالحة لانتاج القمح . فقطع الارض في منتهى الصغر وحيث تشتد المجاعة فتصبح مخيفة (فقد ضربت مجاعة عام ١٨٩١ أرضاً تبلغ مساحتها مساحة فرنسا) اذ يضطر المنتج ان يبيع غلته في الحريف ليدفع ما يترتب عليه من الضرائب والاقساط السنوية المستحقة عليه ثم يضطر بعد ذلك لشراء حاجته من البذار بسم أعلى مقتنماً في غذائه وغذاء ذويه بطعام ردي . هنالك سبعمائة ملك يزيد مجموع ما يملكون من الاراضي على ٢٠٠ مليون هكتار . بينما ١٠٠٠٠٠٠ من صغار الملاكين لا يزيد مجموع املاكهم على ٣٤٠٠٠٠٠٠ هكتار . وقد استطاع «الكلية» الاراضي ان يقتصبوا شيئاً فشيئاً اطيب الاراضي المشاعية التابعة للهيئات البلدية ، بينما نرى فقراء الفلاحين ، في كل مكان ، في خصام موصول مع هؤلاء القولاقي . من هذه البروليتاريا الريفية الآخذة دوماً بالازدياد والنمو قسم يتجه نحو المعمل او يلتحق ببعض ورش العمل ، كما راح قسم آخر منها يعطل النفس بسأن يستقر يوماً في سيبيريا حيث تنتظره متاعب الحياة ومنفصاتها . وهكذا نرى الؤساً من هؤلاء البؤساء يجوبون الارض سيراً على الاقدام لا يملكون شروى تقير او ما يمكنهم من ركوب القطار فيتساقط عدد كبير منهم عناء ويموتون فرسة الشقاء والبؤس . فظروف العيش لم تتغير كثيراً عن تلك الظروف التي رسف فيها ارقاء الارض . ولم يعد الموجيك يردد : « ليس غير الكسالى لا يوجه لنا اللطمة » ، فهو لا يزال يرى كما في الماضي : « ان الله يبيد عنه في الاعالي ، كما ان القيصر يبيد عنه جـداً في قصره . ففي خضوعه دوماً للحياة الجماعية ولقتضياته ، فهو يرى نفسه مضطراً لتكليف نفسه ضمن الجدار الذي يحيط بكوخه الحفير - هزبة الشال - المبنية من الخشب ، لا نافذة لها ، يحتل الوجاق جانباً كبيراً من كوخه ، ينام فيه صاحبه مع اولاده بلباسهم ، أو خطة الجنوب ، من اللبن وأحياناً من القش اليابس . ليس في هذا المسكن من صابون ، وقد يفتقر أحياناً للاضاءة ، كما يفتقر لعمده عن الغابة للحطب ، فيقنع ، ولا اختيار له ، بالقش والتبن . فالازدحام انما يعني : الاختلاط والفساد . فالإشياي عندهم من الكماليات (واعطاء بقتيس ، في الروسية ، انما يعني : اعطاء شيء من الشاي » . وكثيراً ما يحتسون شراباً اشبه ما يكون بعصير التفاح يستخرجونه من نسج الدرदार وعصيره ، يعرف عندهم «كفاس» . فالنقص في المواد الغذائية والادمان على السكريات يرفعان عالياً من نسبة المحللل الفساد . والامل في الحياة يبقى ضعيفاً كما ان نسبة الوفيات بين الاطفال بقيت عالية جداً (فولدا ليون تروتسكي مزارعان يهوديان ينعمان باليسر يفقدان أربعة من اولادهم الثمانية ، غير ان الحصب في التناسل هو مرتفع جداً ويكون معيناً للعديد من المعوزين والفقراء .

كانت روسيا ، منذ عهد بعيد ، مثار دهشة الاجانب لما
منظران مختلفان لروسيا : نخبة ادبية
تبدية حضارتها من اعداد ومفارقات . من جهة اخلاق
رفنية متميزة وتأخر اقتصادي متصل
شعبية ناعمة وان خشنت ملامسها ، ومن جهة ثانية ، مجتمع
رفيع مستسلم للذات . هنا ، الجهل والسذاجة الفكرية والعقلية ، وهناك ، مرونة عقلية فائقة .

الادب الروسي أدب غني واقعي ، روحاني يصف لنا الموجيك الخشن الطباع والمرح معاً ،
والتاجر الجشع ، والملاك الفظ بقلب الطفل ، والجذاف العامل على النهر ، والمتشرد التائه الذي
لا جذر له ولا ينتمي لطبقة . فمن بوشكين الى نكرا سوف الى بلوك ، ومن غوغول الى
دوستوفسكي ، ومن تشيخوف وتولستوي الى غوركي يفتخر الادب الروسي عن شعر او قصة أو
اقصوصة بلغت سدره المنتهى بما تقوم به من خيال مجنح ونقد لاذع وجزالة ادهشت اوروبا
المهذبة وسحرتها . فالرغبة في العلم والاقبال عليه لا حدود لها ، وحب الفضول والظلم الى
المعرفة لا يروي له غليل ، وبقفزة واحدة يرتفع الفكر الروسي الى ابعد الحلول جرأة .
فالانجازات العلمية عديدة ، سواء التجريدية منها والعملية الواقعية . صحيح ان الالهام الهندسي
الذي ينبع من الوحي الديني خبا وكأنه جف وغار ؛ الا ان معظم المنازل السكنية والمباني هي
مستوحاة من الطراز الكلاسيكي أو الطراز الغريب الذي غلب على اوروبا الغربية . ومع
ذلك ، نحن أمام بوادر نهضة فنية روسية المصدر سلافية ينبوع ، كما نرى ذلك في كنيسة المخلص
في موسكو ، ومدارس الرسم الجديدة من الطراز الرومنطقي او من الطراز الواقعي ، ورسم
المنظر الطبيعية مع وفرة من التحف والنقش والحفر والرسم التزييني ، الا ان مظاهر الحساسية
الروسية تجلت على اكملها في الموسيقى . فبينما نرى تشايكوفسكي وغلازونوف وروبينشتاين
يقعون تحت سحر الموسيقى الالمانية ، نرى فريقاً كبيراً يستلهم بحق الادب الشعبي القومي
والاغاني الفلكلورية ، والرقص القومي وأناشيد الطقوس الدينية امثال غلينكا ومن امثلهم
دارغومسكي اولاً ، ثم « الحناسي » او الفريق الخمس الصغير Koutchko (او الكومة الصغيرة)
كما كان يلعبهم بسخرية خصومهم و منافسوم . وقد برز بينهم : بوردوين ورمسكي -
كورساكوف وموسورغسكي الذين خرجوا لنا بانغام والحان موسيقية تأخذ بمجامع القلب لما
تسم به من سمو وروعة و مناغاة وانسجام . وقد تلمذ على رمسكي كل من سترافنسكي
وبروكوفيف و خوستاكوفتش . كذلك عرف رقص الباليه المستوحى من الرقص الشعبي نجاحاً
غريباً ، وقع تحت سحره كثيرون من سكان المدن : « فالباليه المسكوبية هي ، ولا شك اكبر
لذة يمكن ان يستمتع بها مشاهد ، كما كانت تشهد بذلك مدام جوليت .

تمثل روسيا في الخريطة مساحة كبيرة اذ تؤلف مع مستعمراتها في آسيا كتلة واحدة . فهي
في مقدمة الدول الاوروبية بكثرة سكانها . ويكون العسكريون لهم فكرة عن الجيش الاحتياطي
الذي يتوفر لها كما يكون علماء الاقتصاد فكرة لهم للوارد الطبيعية الهائلة التي تتوفر لها .
والحال ، فبالرغم من التطورات العظيمة التي حققتها خلال جيل ، فنشاطاتها لا تؤلف مع ذلك



شكل رقم ٢٠ - نشاط أدوية سنة ١٨٩٠
 اعطى ، الى الشمال : الخطوط الحديدية : عدد الكيلومترات لكل ١٠٠٠٠٠ نسمة (معدل ٦٠٨) اعطى ، الى اليمين : عدد الرسائل والبطاقات البريدية المرسة بالنسبة للقرود الواحد (معدل ١٣٠) اعطى ، الى اليمين : للتجارة بالنسبة للقرود الواحد (معدل ١٧٣ فونكا) . اعطى الى اليمين : نفقات الدول على التصنيع العام بالنسبة للقرود الواحد .

شيئاً يذكر ، اذا ما قورنت بنشاطات دول اوروبا الغربية والوسطى . فمحصول روسياً من القمح في أواخر عهد اسكندر الثالث كان يوازي بالنسبة للقارة اجمع ١٥٪ من القمح ، يربى على ٢٥٪ من ما شيتها انما لا تنتج سوى ٢ بالمائة من القمح ، و ٤ بالمائة من الصب ، و ٣ من الفولاذ ، ولا تصدر سوى ٤ بالمائة من الرسائل ، وعلها لا يرقرف الاعلى ٣ بالمائة من مجموع السفن التجارية في العالم ، كما لا تساوي تجارتها مع الخارج سوى ٦٤ بالمائة من مجموع الصادرات العالمية . اما مدارسها فلا تضم سوى ٢٤ تلميذاً لكل الف نسمة (١٧٢ في المانيا ، و ١٤٠ في السويد) .

فاذا ما سببت مناهج القيصرية وأعمالها القلق ، فالراقبون السياسيون يشددون على ما «للعلاق الروسي من اقدام مزيمة العطب » . وعندما اعلن القيصر نيقولا الثاني ، إثر اعتلائه العرش ، عام ١٨٩٤ ، عن عزمه بالدفاع عن مبادئ السلطة المستبدة ، كان الشك يخيم بالفعل حول حيوية هذا النظام بالنسبة للحاجات الكبرى التي يشعر الشعب الروسي اليها وبالنسبة للقوى الجديدة التي كانت تتمثل فيها .